الروض النسيم والدر اليتيم في مناقب السلطان إبراهيم

في سيرة الولي الزَّاهد إبراهيم بن أدهم

تأليف

أبو العباس أحمد بن يوسف بن سنان الدمشقي المعروف بالقرماني

المتوفَّى سنة 1019هـ

تحقيق ودراسة على جميع النسخ الخطية

محمد أشرف الأشول

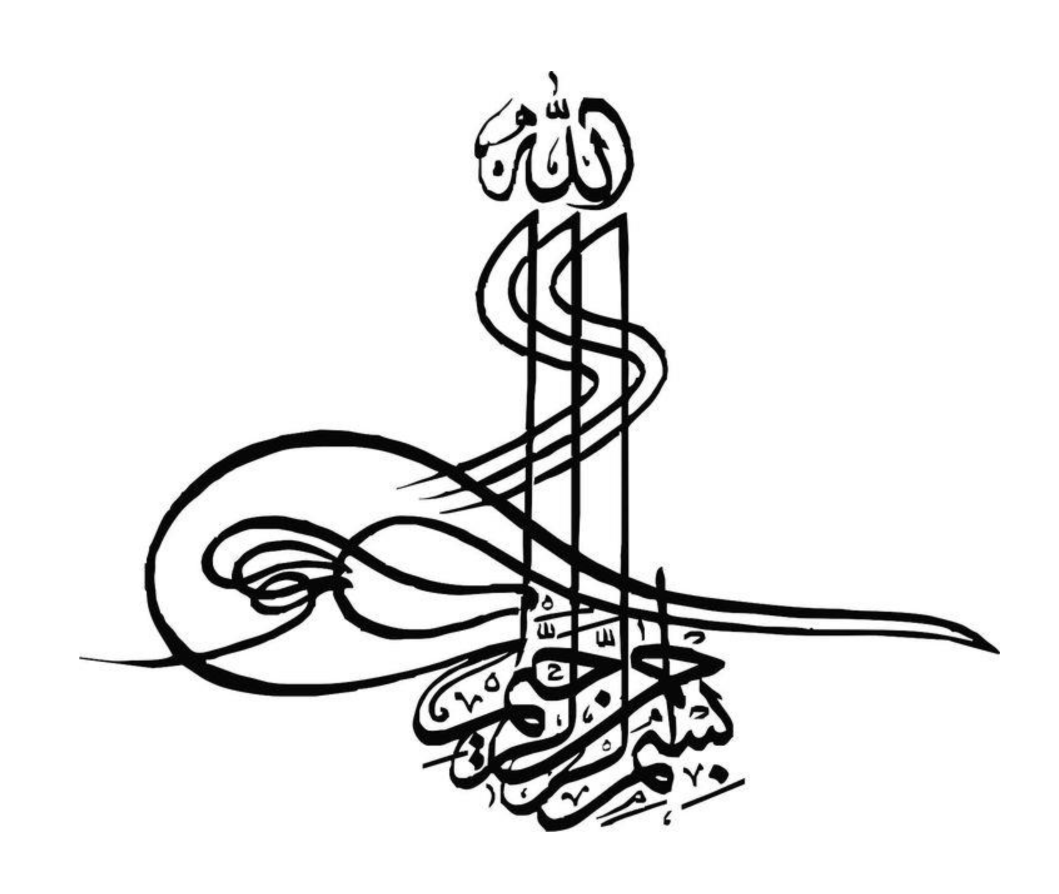
1446هـ - 2025م

المؤلف: أحمد بن يوسف بن سنان الدمشقي المعروف بالقرماني.
عنوان الكتاب: الروض النسيم والدر اليتيم في مناقب السلطان إبراهيم بن أدهم.
النوع: تصوف، سير وتراجم.
عدد الصفحات: 156 صفحة.
المحقق: محمد أشرف الأشول.
الناشر: محمد أشرف الأشول.
رقم الإيداع: 8913/2025م.
الترقيم الدولي: 978- 977- 95- 2463- 4.
مكان النشر: القاهرة.

الطبعة الأولى

1446هـ/ 2025م

Muhammad.elashwal@gmail.com



فهرست الكتاب

مُقَدِّمَةُ التَّحْقِيقِ

الحمد لله رب العالمين الذي طهر قلوب أوليائه بمياه اليقين من دنس الأغيار، ورفع عن وجوه عقولهم قناع الغفلة والاغترار، وألبسهم حلل المعرفة والاعتبار ما ألبس عليهم آياته البينات في الليل والنهار. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له أزال الران عن قلوب العارفين، وأبرز من سماء الذات نور شموس الأسماء لوصول السائرين، وأخرج فؤاد الأحباب من ضيق الاحتجاب إلى النور المبين، ورسم بيد العناية سطر آلاء إنعامه في صفحات ألواح عقول المنكسرين، الذي أحيى أموات المقامات بوابل غيث الأذكار لإنبات العلوم اللدنية في فؤاد الواصلين.

وأشهد أن سيدنا ومولانا محمد ﷺ عبده ورسوله، مفتاح خزانة الغيب المطلق، وكشف أسرار العالم المفلق، قطب رجاء الموحدين، ونقطة دائرة المحققين، ومحيط مركز المقربين، المتكلم بلسان الجمعية الكبرى، صاحب مقام قاب قوسين أو أدنى، قلب الوجود، وروح كل موجود، سر الله المدعم، وطراز الوجود المعلم، خلاصة الصورة والمعنى، وعلى آله الهادين وأصحابه التابعين إلى اليوم الدين.

أما بعد، فهذا الكتاب في سيرة الولي الزاهد إبراهيم بن أدهم القدوة، الإمام، العارف، سيد الزهاد، سلطان بلخ وخرسان والسبع أقاليم، الذي خلع ثوبه المعلم، ونزع تاجه الأفخم، وهدم ركنه المحكم، وترك سلطانه الأعظم، ولبس العباءة من الصوف، ورضي بالجلوس على الحصير، بعد التخت والسرير. هذا السيد الجليل، ذي الثناء الجميل، سلطان الزهاد والعباد، الذي زهد في هذه الدنيا الفانية، واختار الدار الباقية، وترك الملك والمالك، وتوجه إلى مولاه الخالق، الذي طلق الدنيا ورماها بالبعاد، وفارق الملك والأهل والأولاد، ورافق السادة العباد، وبها قد انفرد وقد كان أهلا للشريعة في زمانه، وعنوان ذوي

الطريقة في أوانه، اعترف له بالفضل أهل العلم والبراعة، وضريحه موجود إلى الآن في بلدة جبلة جنوبي اللاذقية بسورية.

وقد ألف الدرويش حسن الرومي الأندروني العثماني [1] سنة 973 هـ – 1565م كتابًا بالتركية في سيرته، ونقله إلى العربية ثم اختصره أبو العباس أحمد بن يوسف بن سنان الدمشقي المعروف بالقرماني سنة 1019هـ – 1610م تحت عنوان (الروض النسيم والدر اليتيم في مناقب السلطان إبراهيم).

وأحمد بن سنان المعروف بالقرماني الدمشقي صاحب التاريخ المشهور وأحد الكتاب المشهورين كان كاتبا منشئا حسن العبارة قدم أبوه سنان إلى دمشق وولي نظارة البيمارستان ونظارة الجامع الأموي. نشأ أحمد صاحب الترجمة بعد أبيه وصار كاتب وقف الحرمين ثم ناظره. وكان حسن المحاضرة وله مخالطة مع الحكام خصوصًا قضاة القضاة، وكان له حشمة وإنصاف في كثير من الأمور، وجمع تاريخه الشائع وتعرض فيه لكثير من الموالي والأمراء المتأخرين وسماه (أَخْبَارُ اَلدُّوَلِ وَآثَار اَلْأول)، وله أيضا هذا الكتاب الذي بين أيدينا الآن المسمى (الرَّوْض اَلنسِيم والدّر اَليتِيم فِي مَناقِب السُّلْطان إِبْراهيم)، وكانت ولادته في سنة تسع وثلاثين وتسعمائة وتوفي يوم الخميس تاسع عشر شوال سنة تسع عشرة بعد الألف ودفن بمقبرة الفراديس رحمه الله تعالى. [2]

---

[1] هو درويش حسن الرومي الأندورني العثماني من تلاميذ الشيخ نصوح الأسكداري الإستانبولي، عاش في القرن 12 هجري تقريبًا، ومن تصانيفه سيرة السلطان إبراهيم بن أدهم في التصوف، ومناقب المشايخ المدفونين بمدينة بروسه (انظر: معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم لعلي الرضا قره بلوط وأحمد طوران قره بلوط، ص902).

[2] انظر: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر للمحبي ج1، ص209؛ الأعلام للزركلي ج1، ص275؛ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا الباباني ج1، ص159.

وقد تعددت نسخ الكتاب في أماكن متفرقة ويسر الله لي الحصول على جميع نسخ الكتاب المتوفرة – على حد علم واطلاع المحقق- وأهم هذه النسخ وأوضحها صورة ورسما وكتابة، هي صورة لمخطوطة من مجموعة مخطوطات إبراهام شالوم يهودا كتبت على يد ناجي بن عبد القادر الشهير بزين العابدين اللاذقي (ت: 1355هـ)، وهي نسخة تمت كتابتها في 24 ربيع الاخر 1310هـ/ 1892م، عن نسخة تمت كتابتها في 29 ربيع الاول 1066هـ/ 1656م، وهي عبارة عن 132ورقة بقياس160:250 ملم، بأوراق غربية حديثة؛ المسطرة 15 سطرًا. وفي أعالي الصفحات حكم وعظية أولها: "الرضى في الأمور سمارة وراحة اصبر" والأخيرة: "من أخلص عمله لله فهو خير له والله اعلم".

كما يسر الله لي الحصول على صورة من نسختين لمخطوطتين مودعتين بمكتبة ولاية برلين الوطنية الحكومية بألمانيا، الأولى برقم (394 Wetzstein II) وهي نسخة كتبت نهار يوم الثلاثاء من ثمانية وعشرين يوم خلت من جمادى الأول في سنة 1125هجرية على يد كاتبها عبد القادر ابن علي الأدمنازي، والنسخة الثانية برقم (395 Wetzstein II) وهي نسخة كتبت نهار الجمعة في شعر ذي القعدة الحرام سنة 1152هجرية على يد كاتبها عمر ابن عثمان ابن عمر بن علي القدسي الحنفي.

كما يسر الله لي الحصول على نسخة من صورة لمخطوطة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية مصورة عن مخطوطات رضوان دعبول رقم 212 قائمة 24، والمكتوبة بقلم نسخي وعدد أوراقها 118 ورقة المسطرة 15 سطرًا، بقياس 21:15 سم، غير معروف ناسخها، وفي أعالي الصفحات حكم وعظية أولها: "من توكل على الله كفاه" والأخيرة: "لا تعجل فإن الأمر موقوف والرب رحيم عطوف".

وقد أثبت المخطوط على حاله بعد مقابلة النسخ، دون إحداث أي تغيير فيه إلا ما ظهر لنا من خطأ إملائي نصححه وفق الطريقة الحديثة في الكتابة، دون أن نشير إلى كل تبديل أجريناه في هذا المجال، تيسيرًا على القارئ ورغبة في عدم التشويش عليه أثناء القراءة بكثرة الإحالات في الهوامش، كما قمنا بتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشريفة والأعلام والبلدان من أمهات الكتب ومصادرها.

وفي الأخير، فهذا كتاب (الروض النسيم والدر اليتيم في مناقب السلطان إبراهيم) ليوسف بن سنان المعروف بالقرماني نضعه بين أيدي القراء – وقد بذلنا فيه جهدنا قدر الطاقة والاستطاعة- آملين أن يحظى بالقبول، وأن يشتمل بالعذر عن التقصير لما فاتنا فيه من أمور، وما اعترى عملنا من ثغرات، فالكمال لله وحده، وهو الهادي إلى سواء السبيل.

واللهَ أسأل، وبنبيِّه أتوسَّل، أن يسلك بي السبيلَ السويَّ في المبدأ والختام، وفَّقنا الله لذلك بمنِّه وكرمه، آمين آمين آمين!

الأستاذ

محمد أشرف جمال الأشول

مستشار قانوني ومحام

رمضان 1446هـ/ 2025م


نَمَاذِج مِنْ اَلْمَخْطُوطَاتِ اَلْمُحَقَّقَةِ

الرضى في الأمور سعادة وراحة اصبر

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الحمد لله الذي أولانا من مزيد النعم . ورفع عنا من الضر
والبلوى والسقم . والشكر شكر من اعترف من بحر جوده
واغتنم . خلق آدم وعلمه الأسماء كما هي في اللوح والقلم واسجد
له ملائكته وخصه بالعلم والحكم وخصص انبياءه بالمعجزات
واولياءه بالكرامات ورفع لهم الدرجات في الازل والقدم
ونرجوا من الله التوفيق والعفو عن زلة القدم واشهد ان لا اله
الا الله وحده لا شريك له معبود الرحم واشهد ان سيدنا محمد
عبده ورسوله الذي اصطفاه واجتباه من طيب عناصر العرب
والعجم وارسله بشيرا ونذيرا الى سائر الامم الذي سبح الحصى
في كفه وعليه سلم وخاطبه الضب واتى له الظبي بما
التزم القائل قولا ابلغ به سائر من ولي شيئا
من امور

لله لطايف احلا من القطايف

من امور امتي فرفق بهم فارفق اشفق عليهم
فاشفق اللهم عليه فآمن وآل البيت والحرم صلى الله عليه
وعلى آله ورضي الله تعالى عن العلماء
العاملين والخلفاء الراشدين والائمة المجتهدين من اهل
السموات واهل الارضين وسائر عباد الله الصالحين وعنا وعن
السامعين وعلى جميع المسلمين ومن قال آمين ما اقبل الدجا
الظلم وتنفس صبح وابتسم وسلم تسليما الى يوم الدين والحمد
لله رب العالمين فيقول العبد الفقير المعترف بالذنب والتقصير
الراجي عفو ربه الصمد القدير احمد بن يوسف سنان لما اطلعت على
مناقب الطراز المعلم السلطان ابراهيم بن ادهم قدس سره ونور
ضريحه وعلى نسبه الشريف ومولده اللطيف من الكرامات
التي الفها درويش حسن الرومي في محروسة قسطنطينية
المحميه في سنة ٩٦٣ وهو كتاب جليل لكنه بكتابة التركي
مترجم فسألني بعض الاخوان بأن اترجمه بالعربي بأوضح بيان
بلا زيادة ولا نقصان ليسهل مطالعته على من اراد الوقوف

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين
الحمد لله الذي أولانا من مزيد النعم ودفع عنا
من الضر والبلوا والسقم والشكر شكر من
من اعترف من بحر جوده واغتنم خلق ادم وعلمه
الاسماء كما هو في اللوح والقلم واسجد له الملائكة
وخصه بالعلم والحكم وخصص انبيائه بالمعجزات
واوليائه بالكرامات ورفع لهم الدرجات في الازل
والقدم ونرجو من الله التوفيق والعفو عن زلة
القدم واشهد ان لا اله الا الله وحده لا شريك له
واشهد ان سيدنا محمد عبده ورسوله الذي اصطفاه
واجتباه من طيب عناصر العرب والعجم وارسله بشيرا
ونذيرا الى سائر الامم سبح الحصا في كفه وعليه سلم
الضب ووافى الظبي مما التزم القائل قول بلغ به سائر
الامم اللهم من ولي شيئا من امور امتي فارفق بهم ومن اشفق عليهم
فاشفق عليهم فآمن على الله سفف البيت والحرم وعلى آله
واصحابه اهل الفضل والكرم ورضي الله

٢
والكرم ورضي الله عن العلماء العاملين والخلفا الراشدين
والايمة المجتهدين من اهل السموات واهل الارضين
وساير عباد الله الصالحين وعنا وعن السامعين وعلى
جميع المسلمين ومن قال آمين ما اقبل دجا واظلم و
صبح وابتسم وسلم تسليما الى يوم الدين وبعد يقول
العبد الفقير المعترف بالذنب والتقصير الراجي عفو
ربه الصمد القدير احمد ابن يوسف سنان لما اطلعت على
مناقب الطراز المعلم السلطان ابراهيم ابن ادهم
قدس الله سره العزيز ونور ضريحه وعلى نسبه
الشريف ومولده اللطيف من الكرامات الذي الفها
درويش حسن ابن الرومي في محروسة قسطنطينية
المحمية في سنة ٩٦٣ وهو كتاب جليل لكنه بكتابة الترك
المترجم فسألني بعض الاخوان بان الترجمه بالعربي
باوضح بيان بلا زياده ولا نقصان ليسهل مطالعته على
من اراد الوقوف على اصله وفرعه فاجبته الى ذلك

بسم الله الرحمن الرحيم

العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير الراجي عفو ربه
احمد ابن يوسف سنان لما اطلعت على مناقب الطراز المعلم
السلطان ابراهيم ابن ادهم قدس الله سره ونور ضريحه وعلى
نسبه الشريف ومولده اللطيف من الكتاب الذي الفه … وبشو
حسن الرومي رحمة الله بمحروسة قسطنطينية … في
سنة ثلث وستين وتسعمائة وهو كتاب جليل …
بلسان التركي ترجم … فسألني بعض الاخوان ان
ترجمه بالعربي باوضح بيان بلا زيادة ولا نقصان …
… على من اراد الوقوف على اصله وفرعه فاجبته
الى سؤاله وشرعت في حل رموزه وكلامه مستعينا بالله
… وحسن ختامه راجيا بذلك الثواب من الملك الوهاب
… بعد ما اجتهدت فما كان موافقا قصدناه وما كان مخالفا
تركناه ولفقت هذا المختصر وسميته الروض النسيم والدر النظيم
في مناقب السلطان ابراهيم وابتديت بما قصده التاريخ الا انه
من سيرة جده الامجد الحبيب النسيب السيد الاشرف السلطان
احمد وقد اوردت فيه ما اوردته المشايخ العظام ونقلت
ما اوضعوه السادات الكرام وصدرت فيه من اخباره وحكاياته
ومعجزاته واشعاره وشرعت ما هو مسطور من الكتب المعتبرات
والاسانيد المرويات واسندت كل قول لراويه وكل خبر



هذا الكتاب الطراز المعلم في قصة
السلطان ابراهيم بن ادهم قدس
الله سره ونور ضريحه ومصنفه
العبد الفقير الى ربه المنان
احمد ابن يوسف سنان
رحمه الله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

فاول ما ابتدي بسيرة جده الامجد السلطان احمد
عفا عنه الواحد الاحد هو انه قد كان في مملكة
عادلا سلطانا زاهدا وكان تحت ملكه مدينة
بلخ خاليا من الظلم كانه في ملكه سليمان
وفي عدله انوشروان وكان يحب الفقراء
والمساكين ومجالسة العلما والصالحين

مُقَدِّمَة النَّصِّ المُحَقِّقِ

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين. الحمد لله الذي أولانا من مزيد النعم، ورفع عنا من الضر والبلوى والسقم، وأشكره شكر من اغترف من بحر جوده واغتنم، خلق آدم وعلمه الأسماء كما هي في اللوح والقلم، واسجد له ملائكته وخصه بالعلم والحكم، وخصَّ أنبياه بالمعجزات وأولياءه بالكرامات ورفع لهم الدرجات في الأزل والقدم، ونرجو من الله التوفيق والعفو عن زلة القدم.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له معيد الرحم، وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذي اصطفاه واجتباه من أطيب عناصر العرب والعجم، وأرسله بشيرًا ونذيرًا إلى سائر الأمم، الذي سبح الحصى في كفه وعليه سلم، وخاطب الضب ووافى له الظبي بما التزم، القائل قولًا بلغ به سائر العرب والعجم: "مَنْ وَلِيَ شَيْئًا مِنْ أَمْرِ أُمَّتِي فَرَفَقَ بِهِمْ، فارفق به، ومَن وَلِيَ من أمر أمَّتي شيئًا فشقَّ عليهم فاشقُقْ اللهم عليه" [3] فأمن أهل البيت والحرم، صلى الله عليه وعلى آله ورضي الله تعالى عن العلماء العاملين والخلفاء الراشدين والأئمة المجتهدين من أهل السموات وأهل الأرضين وسائر العباد الصالحين وعنا وعن السامعين وعلى جميع المسلمين ومن قال آمين ما أقبل الدجى وأظلم، وتنفس صبح وابتسم، وسلم تسليمًا إلى يوم الدين والحمد لله رب العالمين.

وبعد فيقول العبد الفقير المعترف بالذنب والتقصير الراجي عفو ربه القدير أحمد بن يوسف سنان، لما اطلعت على مناقب الطراز المعلم السلطان إبراهيم ابن أدهم قدس سره ونور ضريحه وعلى نسبه الشريف ومولده اللطيف من الكرامات التي ألفها درويش حسن الرومي في محروسة قسطنطينية[4] المحمية

---

[3] صحيح مسلم، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر، والحث على الرفق بالرعية، والنهي عن إدخال المشقة، حديث رقم (1828)، ج3، ص458.

[4] هي عاصمة الإمبراطورية الرومانية خلال الفترة من 335 إلى 395م وعاصمة الدولة البيزنطية من 395 إلى 1453م حين فُتحت على يد العثمانيين بعد محاولات عدة في 1410 و1422 فدخل محمد الفاتح القسطنطينية، وأطلق عليها إسلامبول أو الآستانة. وبدخوله أصبحت المدينة عاصمة السلطنة العثمانية. غُيِّر اسمها في عام 1930 إلى إسطنبول ضمن إصلاحات أتاتورك القومية. تأسست المدينة عام 658 ق.م. وكانت من قبل قرية للصيادين وعرفت باسم بيزنطة. وفي عام 335 للميلاد جعلها

في سنة 963هـ، وهو كتاب جليل لكنه بكتابة التركي مترجم، فسألني بعض الإخوان بأن أترجمه بالعربي بأوضح بيان بلا زيادة ولا نقصان ليسهل مطالعته على من أراد الوقوف على أصله وفرعه، فأجبته إلى سؤله وشرعت في حل رموزه وكلامه مستعينًا بالله تعالى على إتمامه راجيًا بذلك الثواب من الله الملك الوهاب، فجمعت بعدما اجتهدت، فما كان موافقًا قصدناه، وما كان مخالفًا تركناه، وألفت هذا المختصر وما أبديه من الغلط والخطأ وسميته (الروض النسيم والدر اليتيم في مناقب السلطان إبراهيم).

وابتدأت بما اقتضاه التاريخ إلى الابتداء بسيرة جده الأمجد النسب الحسيب السيد الأشرف السلطان أحمد، وقد أوردت فيما أوردت المشايخ العظام، ونقلت ما وضعوه السادات الكرام، وصدرت فيه من أخباره وحكاياته وغزواته وأشعاره، وشرحت ما هو مسطرًا من الكتب المعتبرات المعتمدات والأسانيد المرويات، وأسندت كل قول لراويه، وكل خبر لنا قله وباديه، وتعرضت فيه لذكر مقامه الشريف، ومرقده الذي حوى كل معنى لطيف، مع اعترافي بالعجز عن القيام بذلك لكوني لست معدودًا هناك ولا هنالك، لكون بضاعتي في العلم مزجاة، وكوكب فكري لا يكاد يشرق في هذه المشكاة، ولكني ارتشفت قطرة من بحر القوم الزاخر، وتمثلت بقول القائل: وكم ترك الأول للآخر، وقلت في ذلك المعنى: أو كمل سطر بعد شهر، وابنى كل بيت بعد عام غيره، والفكر كالبحر عن جواهره مع الصفاء ويخلفها مع الكدر، وإن من يوفي المقامات حقها ويعطي كل مستحق منها حقها.

ولقد سلكت في هذا الكتاب مسالك أبناء جنسي، وطريقة أولاء انسي، وما ابرئ نفسي، وما توفيقي إلا بالله وهو حسبي ونعم الوكيل.

الإمبراطور قسطنطين الأول عاصمة للإمبراطورية الرومانية الشرقية (الإمبراطورية البيزنطية) وأصبح يطلق عليها القسطنطينية نسبة للإمبراطور قسطنطين الأول مؤسس الإمبراطورية. أصبحت المدينة مركز المسيحية الشرقية ومركز حضاري عالمي، فأضحت أعظم مدن العالم في ذلك العصر.

فَصْلٌ فِي سِيرَةِ جَدِّهِ الْأَمْجَدِ السُّلْطَان أَحْمَدْ رَحِمَهُ اَللَّهُ

أول ما ابتدئ بسيرة جده الأمجد السلطان أحمد عفى عنه الواحد الأحد، هو أنه قد كان في ملكه عادلًا، وسلطانًا زاهدًا، وكان تحت ملكه مدينة بلخ[5]، خالية من الظلم والتلخ، كأنه في ملكه سليمان، وفي عدله أَنُوشِرْوَانَ[6] وكان يحب الفقراء والمساكين ومجالسة العلماء والصالحين، ويعمل اللبن من الطين، وينفق ثمنه في قوته على الأرامل والأيتام والمساكين، وكان يلبس القميص القطن تحت القَبا الحرير، ولم يتنعم في الدنيا إلا بشيء يسير، وينام على خش الحصير، ولم يجلس على التخت والسرير.

وكان دائمًا بالتهجد والطاعات، والتعبد والرياضات، سالكًا على قدم نبي الله أيوب وإبراهيم الخليل، لأنه كان يحب اقتناء المواشي والأنعام، وله عدة قطعان من الأغنام، ولها جماعة من الرعاة يرعونها بالغدو والأصال، ولهم عدة من الكلاب، يحرسونها من الضواري والذئاب، وكان يضع في رقبة كل كلب طوقًا من الذهب ومهما يحصل من ألبانها وأصوافها وأشعارها يفرقها على فقراء البلدة وسكانها.

وكان وزرائه وسائر الأمراء والحجاب يلومونه على وضع أطواق الذهب في رقاب الكلاب فيجاوبهم بهذا الجواب: إنما الدينا جيفة وطلابها كلاب، فأردت أن أضعها في أعناقهم لأن أخلص من شبهاتهم.

---

[5] بلخ هي مدينة قديمة، لها تاريخ طويل يبلغ 2500 عام، وتقع على السهل بين جبال هندو كوش ونهر آمو داريا (المعروف تاريخياً باسم أوكسوس) في شمال أفغانستان. تقع بلخ، المعروفة باسم الغزاة العرب باسم أم البلاد، "أم المدن"، على طرق طريق الحرير الرئيسية الممتدة بين الشرق والغرب. كان تاريخ المدينة لامعًا حتى دمر جنكيز خان وجحافله المغول الدمار في عام 1220م؛ لم يتعاف بلخ تمامًا، ثم تلاشى أخيرًا في قرية صغيرة في ولاية بَلْخ، أفغانستان.

[6] هو كِسْرَى الأَوَّلُ (501–579 مـ) معروف أيضا باسم أَنُوشِرْوَانَ العَادِل الروح الخالدة واسمه كسرى أنو شروان بن قباذ بن يزدجرد بن بهرام جور، حكم الإمبراطورية الساسانية ما بين 531 و579 للميلاد. وقد اعتلى العرش بعد أبيه قباذ الأوّل، ووضع الأسس لمدن وقصور وبنى العديد من الجسور والسدود، وخلال عهده ازدهرت الفنون والعلوم في بلاد فارس، وكانت الإمبراطورية الساسانية في قمة مجدها، وهو أحد الأباطرة الأكثر شعبية في الثقافة والأدب الإيرانيين (شاهنشاهى ساسانيان، مريم نژاداكبرىمهربان، ص87).

وكان له بستان قد حوى فيه من الفواكه والزهور ألوان، وفيه من أصناف الرياحين كالورد والبنفسج والنسرين والياسمين والأقحوان، وقد أنبت الله سبحانه تعالى فيه زهرة بيضاء نيرة يضيء نورها كالمصباح من بين الأزهار، لا يتغير لونها، ولا يطفئ نورها في العشي والإبكار، قائمة بقدرة من أنبتها مستمرة على حالها، لا تضمحل أوراقها في الصبح ولا في الظلام ولا على ممر الشهور والأعوام.

وكان يتردد إلى هذا البستان في أوقات السحر للتعبد والطاعات، وكان مولع بهذه الزهرة حيران مما يشاهده من أسرار الرحمن، وكلما ينظر إليها بعين حقيقته يكشف الله تعالى عن سريرته، فيشاهد العرش ببصيرته وقلت في هذا المعنى:

قُلوبُ العاشِقينَ لَهَا عُيونٌ * تَرى ما لا يَراهُ الناظِرونا

وَأَجنِحَةٌ تَطيرُ بغَيرِ ريشٍ * إِلى مَلَكوتِ رِبِّ العالِمينا

وكان دائم الحرص على حفظها وحراستها مستقيظًا على رعايتها حتى لا تقطفها يد إنسان، أو يجنيها شيء من الحيوان، فلما أراد الله تعالى إظهار حكمته الخفية غفلت الحراس ورعاة الأغنام يومًا من الأيام، فدخل كبش على حين غفلة من بين الأغنام فاجتنى تلك الزهرة من البستان، فلما تقررت في أحشائه واستقرت في أمعائه لم يقدر أن ينتقل في مكان إلى مكان، شاخصًا ببصره نحو السماء، لم يصبه جوعا ولا ظمئا، واستقر على هذه الحال مدة من الأيام.

فلما شاهدت رعاة الأغنام أحوال تلك الحيوان، وفقدت الزهرة من البستان، داخلهم الخوف والهوان، فمنهم من أصر على الإنكار، ومنهم من أصر على الفرار، وكان بينهم رجلًا عاقلًا كاملًا قد قَلب الأمور، وشاهد الدهور، فخاطبهم: إلى أين المفر من المقدور، ونحن أفنينا أعمارنا في خدمة هذه الأنعام والبستان، وليس لنا أن نكتم سر هذا الحيوان وأكله الزهرة عن السلطان، ولابد أن يقف على هذا السر

عيان، بل من حفظ الأمانة والإيمان، بأن لا نكتم خبره عن مولانا السلطان وإذا لم نخبره نحن بحالنا، أخبره غيرنا عنا ثم يبطش بنا ولم يرحمنا.

فأجمع الجميع رأيهم، وقد حضروا إلى الديوان والموت قدامهم قد هان، وطلبوا الأمان من حضرة السلطان، فخاطب الوزراء والحجاب: ما لهؤلاء الرعاة والحراس داخلهم الخوف والوسواس؟ هل حصل لهم شيء من الظلم والحيف؟ فقالوا: حاشا لله يا مولانا يا ملك الزمان بأن يظلم منا إنسان، ولكن نمنا عن تلك الزهرة النابتة في البستان، وغفلت الحراس والرعاة عنها، فدخل كبش من بين الأغنام اجتناها من البستان، وذلك الحيوان مقيم في مكانه والهًا حيران كالسكران، ولم ينقل قدمه من مكان إلى مكان.

فلما سمع السلطان أحمد كلامهم وفقد الزهرة من البستان، قام بسرعة وهو غضبان، وسارع هو والوزراء والجند والأمراء والغلمان، ليشاهدوا سر هذا الحيوان عيان، فدخلوا إلى البستان وشاهدوا ما حل بهذا الحيوان وتحقق هذه الأحوال، فقال السلطان أحمد ومن حضر: لا حول ولا قوة إلا بالله الكبير المتعال.

فعند ذلك حصل للسلطان أحمد ألم شديد من فقد هذه الزهرة من بين الأزهار، ولم يجد أحدًا يكشف له عن هذه الأسرار، فأمر السلطان أحمد بإحضار العلماء والمنجمين والفقهاء وسائر الأعيان ليشاهدوا سر هذا الحيوان، فشاعت الأخبار في سائر الأمصار، وحضرت الناس من سائر الأقطار، واجتمع الجميع إلى ذلك البستان، وشاهدوا سر هذا الحيوان بالعيان، فقال السلطان لمن حضر من أهل المعرفة والخبر: كيف شاهدتهم هذه الأمور الغريبة والأسرار العجيبة؟ فقال من حضر: يا مولانا ويا من له اعتمادنا، ليس يدرك هذه الأسرار بشر ولا إنسان، إلا من له عناية من الملك الديان، فلما رأى السلطان أحمد هذه الأحوال ازداد حزناً، وزهد في الدنيا وحق الواحد المتعال.

فلم يزل على هذه الحال حتى ولده أدهم، فأطعم الطعام، وتصدق على الأرامل والأيتام، وأعطوا المولود إلى المراضع الكرام، وقد آن وقت الفطام، إلى أن أتى عليه سبعة أعوام، وقد نشأ في غاية اللطف والكمال، والقد والاعتدال، فأحضروا له فقيهًا عالمًا فصيح اللسان سليم البنيان، فأخذ ذلك العالم في حسن تأديبه وتعليمه إلى أن بلغ من العمر عشر سنين، تزايدت منه الأوصاف، وعظم حاله عن الإشراق، وانتشر اسمه في سائر البلاد، وغرست محبته في قلوب جميع العباد، وفاق أهل عصره وساد، فمالت إليه الوزراء والأمراء والنواب وأرباب الدولة والحجاب.

فلما مضى عليه شيء يسير إلى أن انتقل والده السلطان أحمد إلى رحمه الله الملك الأمجد، وكان عمر أدهم عشرة أعوام، وقد نشأ في غاية اللطف والكمال والقد والاعتدال، وهذا ما انتهى إلينا من سيرة السلطان أحمد على التمام والكمال.

فَصْلٌ فِي قِصَّةِ اَلسُّلْطَانِ أَدْهَمْ رَحِمَهُ اَللَّهُ تَعَالَى

قال أصحاب الروايات الأخيار من أهل التقاة والثقات والأخبار، لما أراد الله تعالى إظهار حكمته وإبراز قدرته تولى السلطان أدهم ملك أبيه، واعتصب بتاج الملك، وجلس على التخت، وبسط بساط العدل، ونشر جناح الأمن والأمان في الأرض، وأفاض الإحسان على عباد الله بالطول والعرض، فانقاد تحت أمره الوزراء والأمراء وأصحاب الدولة والنواب، وأرباب المراتب والحجاب، فتسامعت بعدله الملوك والسلاطين ومن حوله، فبايعوه في الوقت والحين، فقطع من كل غاية الوتد، واحمى القطيع من الذئب والأسد، ولا مد يدى الأذى إلى سالك طريق الانقياد، ولا ضيق على أحد من أهل الخير والعباد، فأنارت الأرض بنور عدله، وانغمرت بحسن رأفته، حتى صارت الدنيا في أيامه كما قلت في هذا المعنى:

بِرَأْفَتِهِ طَابَ اَلزَّمَانُ فَقَدْ غَدَتْ * تُخَاصِرْ آرَامْ اَلصَّرِيمْ ضَرَاغِمَه

وَتَرْبِضُ فِي حجرِ اَلسَّرَاحِينْ شائه * وَتُفْرِخَ فِي وَكْرِ اَلعقابِ حَمَائمهُ

ثم إن السلطان أدهم استقر عشر سنين، حتى ملك الأقاليم من بلاد الصين، فتسارعت الناس إلى طاعته، وأنفقوا على بيعته، وشكروا لله على ما أباحه لهم من بركته ومن سيرته، وأخلصوا الدعاء له ولدولته، ودوام نوبته، وجدَّ مثل أبيه في زهده وعبادته، وداوم على التعبد والتهجد والرياضات، والزهد والطاعات، ويحض عباد الله على طاعته وعبادته، وكان مع ملكه وسلطانه ينظر إلى الدنيا الفانية بعين الاعتبار، ويرتجي الملك في الآخرة بدار القرار، دائم الافكار، آناء الليل وأطراف النهار، وأطال تفكره وتحسره.

وكان جالسًا في قصرة لتفريج همه وغمه، إذا رأي درويش فارغ الحال سليم البال، تاركًا الدنيا الفاجرة الغدارة، متوجهًا إلى السعادة الفاخرة، فلما رآه السلطان أدهم لم يلتفت إلى هذا العالم، ارتجز بيتا قال:

فيا ويح مهجور منع الوصول * ويا حسرة محروم منع القبول

ثم أنشد وقال شعر غيره:

أيها المعجب فخرًا بمقاصير البيوت * إنما الدنيا محل لقيامٍ وقنوت

وغدا تنزل لحدًا ضيقًا بعد التخوت * بين أقوام صموت ناطقات في الصموت

فارض في الدنيا بثوب * ومن العيش بشيء يقوت

فقام أدهم من الوقت والساعة، ونزع ما كان عليه من الثياب والبضاعة، وترك لباس الحرير والديباج، وخلع من قلبه الملك والتاج، ولبس العباءة من الصوف، ومضى طول ليلته يطوف، متوجهًا إلى ربه طالبًا طريقًا يسلك به إلى قربه، ففاض به الغرام ولم يلذ له منام، وبقي كالواله الحيران، لا يستقر بمكان، وسلك البراري والقفار، وسار في الأقطار حتى أتى بعض الأمصار، وقد اجتمع في بعض المشايخ والصلحاء والعارفين وأرباب السالكين، ليرشدوه إلى طريق المحبين المخلصين، فوقعت عليه أعين الصادقين والمقربين، فحصلت له العناية والهداية، وحلت له السعادة والكرامة، فسلك البراري بلا زاد ولا ماء حتى أضر به الجوع والظمأ، فضعفت قوته، وتغيرت أحواله، وقلَّ رجاهُ وجهده، وقال لسان حاله:

اعجبت مما قد رأيت وفي الحشا * أضعاف ما عانيت في الأعضاء

فلما أعياه ذلك الجوع أنشد يقول:

أنسيت ذا ضر وفي يده الشفا * لما غدوت من الذنوب على شفا

وعلمت أن الصفح منك سجية * والعفو مأمول لديك لمن عفا

فان انتقمت فإن ذنبي موجب * وإذا عفوت فإن مثلك من عفا

فلما كان في مناجاته وتلهفه وزفراته إذ رأي من قربه بساتين ورياضات وأزهار، وجنات تجري من تحتها الأنهار، فقصد ذلك المكان فرأي نهرًا جاريًا صافيًا كالزلال حول البستان، فتوجه ليتوضأ من ذلك الماء، وقد أضر به الجوع والظمأ، فأسبغ الوضوء وأخذ راحة، إذ رأي في وسط النهر تفاحة، فأخذها من الماء بسرعة، وأكل نصفها بلا مهلة، فافتكر في فكره في الحال، وقال: يا ترى هذه التفاحة حرام أم حلال؟ وإذا هاتفًا من الغيب يخاطبه بلا ريب، وقال له: يا مسكين كيف تأكل التفاحة بلا تعيين؟ هذه سمة الصالحين؟ هذه أفعال الزاهدين؟ هذه طريقة عباد الله المخلصين؟ أما علمت أنك تطالب بها بين يدي أحكم الحاكمين؟

فلما سمع هذا المقال، رجع على عقبه في الحال، وقال: أروح إلى رأس هذا المكان، وأنظر صاحب هذا البستان، وأطلب منه استحلال أكلي نصف هذه التفاحة، لأني لم أجد في أكلها راحة، فمشى على ذلك النهر في افتكار، حتى انتهى به إلى طريق فرأى بستانًا عظيم الشأن، وفيه من سائر الفواكه ألوان، فطرق باب البستان، فسارعوا إليه المماليك والغلمان، وقالوا: من يطرق باب بستان السلطان يا أيها الإنسان؟ وما قصدك في هذا المكان؟، فقال لهم: إني رجل غريب وعابر سبيل، وقصدت هذا المكان لأجل الاستراحة، فوجدت في هذا الماء تفاحة فأمرتني نفسي الأمارة فتناولتها بسرعة وقصمت نصفها بفمي، فلُمت نفسي

اللوامة، فقالت لي نفسي المطمئنة: ارجعي إلى ربك واطلبي حلكي من جناية جرمك، وقد جئت إلى بابكم اطلب لطفكم وإحسانكم بأن تجعلوني في حل من أكلي نصف هذه التفاحة، والنصف باقية بيدي.

فلما سمعوا ذلك الغلمان هذا الكلام من داخل البستان، قالوا له: يا مسكين! نحن لنا مدة أربعين عام لم نعلم طعمة هذه الثمار إلى هذا الوقت ونحن فيه خدام، ولكن في هذا البستان من هو أكرم منا ومتكلم علينا وسيدنا، وليس لنا تصرف في ذلك دونه، اقصد إليه لعله يسلك بك اسنى المسالك، وهو رجل في غاية النسك والصلاح، لعلك ترجع من عنده على الإصلاح.

فلما سمع أدهم ذلك زاد به الألم والهم، فقصد نحو ذلك الأمير الكبير، وشرح له ما وقع منه من التفريط والتبذير في أكله نصف ذلك التفاحة، ومن ذلك الحين لم يجد في نفسه راحة، وألقى نصفها في يدي ذلك الشيخ الكبير، فلما رأى نصف تلك التفاحة ملقاة بين يديه، أسرع في الحال إليه، وقال: وحق الملك العلام إن لي مدة ثمانين لم أعلم طعم هذه الثمار إلى هذه الأيام، وأنت يا درويش جنيت على نفسك هذا التشويش، وقال في ذلك:

إن الأمانة والديانة خلة * قد زاد قدرًا فيهما العبد الأمين

فمن تأدب بهما فقد نال المنا * دنيا وأخرى من إله العالمين

وقال له: إن كان مرادك براءة ذمتك يا أيها الإنسان، فاقصد مدينة خراسان[7]، وهم أهل الكرم والإحسان، وتوجه إلى باب صاحب هذا البستان، ولذ بجنابه لعله يتفضل عليك ويجعلك في حل مما جنيته يديك.

---

[7] خراسان منطقة تاريخية عظيمة تُرجم اسمها إلى مشرق الشمس، كانت جزءًا كبيرًا من الدولة الإسلامية القديمة، حدودها كانت من العراق، وآخر حدودها الهند، ومن أطراف حدودها طخارستان وغزنة وسجستان وكرمان، ومن أهم مدنها: نيسابور وهراة، ومرو وبلخ وطالقان ونسا، وأبيورد وسرخس، تتقاسمها اليوم إيران الشرقية (نيسابور)، وأفغانستان الشمالية (هراة وبلخ)، ومقاطعة تركمانستان (مرو).

فلما سمع أدهم هذا الكلام زاد به الحزن والغم وغاب عن الصواب، ولم يقدر على رد الجواب، وقد انقطعت أنفاسه وضاق به الكون والمكان، فهام على وجهه يقصد مدينة خرسان.

فلما وصل إلى حد مدينة خرسان جعل يسأل بعض الإخوان ليرشدوه إلى حضرة السلطان، فوصل إلى الباب وأراد الدخول فمنعه الحجاب، وقالوا له: من أنت أيها الدرويش الفقير تدخل باب هذا الأمير بغير إذن الوزير؟، فقال لهم: إني رجل غريب الديار لا أطلب منكم درهمًا ولا دينار، وإنما قصدي براءة ذمتي من السلطان، صاحب المواهب والإحسان، فشاوروا عليه الحجاب أن في الباب واقفًا رجلًا فقيرًا في صفة درويش، قد دخله الهم والتشويش، يطلب الدخول إلى الديوان والاجتماع بحضرة مولانا السلطان، فعندها أمروا بإحضاره والوقوف على أخباره.

فلما أن دخل أدهم سلم على من كان جالسًا، وطلب الأذن في الكلام، فردوا عليه السلام، بأفصح نظام، وقال له الوزير الكبير: ما مرادك أيها الفقير؟ فقال أدهم: يا أيها السيد الجليل إني رجل فقير وعابر سبيل، قد ساقني سائق التقدير إلى ماء غدير، فقصدت الوضوء من ذلك الماء، وقد زادني الجوع والظمأ، فوجدت في وسط الماء تفاحة، فأكلت نصفها في مدة هذه السماحة، فلمت نفسي على فعلتي، وأبقيت نصفها الثاني في يدي، فخاطبتني نفسي المطمئنة وقالت لي: ارجعي إلى ربك فاطلبي حلك، فقصدت باب البستان لأبرئ نفسي من هذه الفعال، فجاوبتني الغلمان من داخل البستان: سر إلى حضرة ملك خرسان، وقد أتيت بابكم وقصدت جنابكم، وأطلب من حضرة مولانا السلطان العفو عن زللي وما جنته يدي من أجل أكل نصف هذه التفاحة، ومن وقت أكلتها لم أجد في نفسي راحة.

فأجابه الوزير: أيها الفقير إن هذا البستان قد كان إلى حضرة السلطان، واليوم قد صار إلى بنت الملك الآن، وقد خرج من ملكه وصار تحت ملكها، وما بقي لنا فيه حق ولا مستحق، اقصد إليها واطلب براءة ذمتك منها لعلها تسامحك وتخلص منها.

فلما سمع أدهم هذا المقال، توجه في الوقت والحال، وقال: يا من لا يشغله شأن عن شأن، ويا من لا يغفل ولا ينام، أسألك أن تفرج عنا ما نحن فيه من الأسقام؛ وخرج من الديوان والهًا حيران، وطلب باب ابنة السلطان، وقد علاه الحزن والهوان.

فلما وصل أدهم إلى الباب تلقته الحجاب والنواب، وقالوا له: ما قصدك يا فقير في باب ابنة الأمير؟ فقال لهم: ليس قصدي منكم درهم ولا دينار، وإنما أنا رجل غريب الديار سائحًا في الأمصار، أتيت إلى مكان رأيت بالقرب مني بستان، فقصدت إليه، ورأيت حوله أنهار وأثمار ومياه ورأيت في الماء تفاحة جارية، تناولتها من غير أذن واعية، فجئت إلى خدام البستان وطلبت منهم الاستحلال، فذكروا أن البستان لملك خرسان فقصدت إليه وطلبت الحل بين يديه، فذكروا لنا أنه قد خرج من ملكه إلى ابنته، فجئت إلى بابها وقصدت براءة ذمتي منها لأكلي التفاحة، وما جنته يدي وقلة الراحة.

فقالت له الحجاب: قف مكانك حتى تعرض بين يديها أحوالك، وننظر ما يحصل لك من أفعالك، فدخلت الخدام عليها والمتصرفون بمصالحها، واعرضوا ذلك الكلام لديها وما قال أدهم، فلما سمعت من الخدام هذا الخطاب، لم تبد برد جواب، وتفكرت في عقلها وقالت في نفسها: من أجل أكل نصف تفاحة جرى على هذا الفقير هذه الفضيحة، فوقفت خلف الأستار وقالت: اتوني بهذا الرجل المكار الغدار، فلما أن تمثل بين يديها وأعرض حاله لديها، فلما سمعت منه ابنة الملك هذا الكلام وحسن النظام، نظرت إليه بعين الكمال، ورأته في غاية الحسن والجمال، وقد جللته المهابة والوقار، مع تزايد الاعتذار، فمالت إليه بقلبها وأخذت محبته جوامع عقلها ولبها، وقالت له: يا مسكين كيف جنيت هذه التفاحة من بين البساتين؟ فقال لها: يا سيدة نساء العالمين لم أقصد جنايتها بيدي، وإنما وجدتها في الماء موضوعة أخذتها بسرعة وأكلت نصفها في الحال وبقي نصفها بيدي إلى الآن، وأرماها من يده وأجرى عبرته على خده.

فلما شاهدت ابنة الملك من أدهم هذه الأحوال، مالت إليه بنفسها واختارت أن يكون بعلها، ونادت بلسان حالها: يا أيها الرجل الصادق في المقال، والشارح لنا هذه الأحوال، إن كان مرادك الخلاص من زلتك، والبراءة لذمتك، والصفح عن جنايتك، تكون لي بعلًا، وأنا لك أهلا، على سنة الله تعالى وسنة رسول الله ﷺ وهو المأمول؛ فلما سمع أدهم من بنت الملك هذا الجواب، وقد أفحمه هذا الخطاب، لم يقدر على رد الجواب، بل أخذه الحياء وانقطع ظنه وما يرجوه وهام على وجه في البراري والقفار، وأخفى ما كان أظهره وأبداه، وخرج خارج المدينة وقد داخله الحزن والسكينة.

ووجد في طريقه مسجدًا خرابًا، وحوله قبور الأتراب، فدخل ذلك المسجد وقد اشتد به الهم، وزاد به الغم، فحينئذ أسبغ الوضوء، وتوجه إلى خدمة الملك المعبود، واجتهد في عبادة الله وفي الركوع والسجود، طول ليلته، ويناجي ربه وأنشد وجعل يقول:

ألا أيها المأمول في كل حاجة * شكوت إليك الضر فارحم شكايتي

ألا يا رجائي أنت كاشف كربتي * فهب لي ذنوبي كلها واقض حاجتي

أتيت بأعمال قباحٍ رديةٍ * وما في الورى خلق جنى كجنايتي

أتحرقني بالنار يا غاية المنا * فأين رجائي ثم أين مخافتي

وقال آخر مفرد:

وكل الحادثات إذا تناهت * فموصول بها فرج قريب

وفي بعض الكتب، أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجدًا، وأقرب ما يكون الفرج عن قدر الإياس، وقال تعالى: ﴿إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: 6]، وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَن نَّشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يوسف:110].

وأخذ في التضرع إلى الله تعالى والبكاء وأنشأ يقول:

يا من يجيب دعوة المضطر في الظلم * يا كاشف الضر والبلوى مع السقم

أدعوك ربي حزينًا راجيًا طمعًا * فارحم بكاي بحق البيت والحرم

أنت الغفور فجد لي منك يا أملي * واعطف علي يا ذا الجود والكرم

إن كان عفوك لا يرجوه ذو سرف * فمن يجود على العاصين بالنعم

ثم رفع رأسه وهو ينادي: إلهي وسيدي ومولاي، أطعتك بمشيئتك فلك المنة علي، وعصيتك بجهلي فلك الحجة علي، فاغفر لي وارحمني ولا تحرمني رؤية جدي وقرة عيني محمد ﷺ، ثم قال: إلهي وسيدي، الحسنات تسرك، والسيئات لا تضرك.

فاستقر طول ليلته في مثل هذا الكلام، حتى أخذته عيناه بالمنام، فنظر جده محمدًا ﷺ التي رؤيت له مشارق الأرض ومغاربها، وتمثل بين يديه، وقال: أبشر يا أدهم قد زال عنك الهم والغم، انهض واطلب بنت الملك الكريم، فيحصل لك منها ولد اسمه إبراهيم، فيملك السبع أقاليم، ويكون له برهان وسر عظيم، فانتبه أدهم مرعوبًا من منامه، وما شاهده في أحلامه، ففاض جنانه، وكل لسانه، وقام على قدميه وداوم على عبادته وجهاده، حتى أتى الله بالصباح، ونادى المؤذن حي على الفلاح، فقام أدهم من مكانه قاصدًا باب الملك وإيوانه، وقال في هذا المعنى:

أتوه عن سعدي بعُلوي * فلا سعدي أريد ولا علوي

فدخل أدهم الديوان، ولم تأخذه لومة لائم، وطلب من الحجاب الدستور، وقال: إن لي مع الملك أمر من الأمور، وسر مستور، فأخذوا له دستورا من الملك، وقالوا: إن هذا الدرويش أتى إلى الديوان وله كلام وسر يبديه إلى حضرة السلطان، فأمرهم بإحضاره والوقوف على أسراره، فدخل أدهم وحيًّا وسلم، فقال الملك: ما حاجتك يا مسكين؟ وما قصدك في هذا الوقت والحين؟ فرد عليه أدهم وهو في البلاء والهم: يا أيها الملك الكريم، أتيت لأن تزوجني ابنتك على سنة سيد المرسلين، وتجعلني عضدك، وكفوًا إلى ابنتك ومساعدًا لك.

فقال الملك لما سمع من أدهم أمر الزواج، تزحزح من مكانه وهاج، وقال له: يا درويش قد ألقيت نفسك إلى التهلكة والتشويش، بالأمس أتيت إلينا تطلب العفو عن زلتك وأكلك التفاحة، وما لقيت من الفضاحة، وقد أمرنا إلى ابنتنا أنها تسامحك وتعفو عن جنايتك، وفسحنا لك في الخطاب، واليوم أتيتنا بهذا الجواب، فاليوم نجازيك بفعلك، وما جنته يدك.

فأمر الجلادين في الوقت والحين في ضرب عنقه وصلبه ليكون عبرة لمن قبله وبعده، فأخذوه الجلادين وقد أشهروا النطع والسكين فقال: يا راحم المساكين، والتفت أدهم وقال: يا أيها الملك المغرور بملكه وسلطانه إياك ودعوة المظلوم، ودمعة اليتيم، فإنهما يصعدان إلى بين يدي الله أسرع من طرف عين، فقد قال النبي ﷺ: (ليس بين دعوة المظلوم وبين الله حجاب)[8]، إذا قال المظلوم: يا رب، يقول الله تعالى: إن لم أحكم بينك وبين من ظلمك فأنا الظالم.

---

[8] صحيح البخاري، كتاب المظالم، باب الاتقاء والحذر من دعوة المظلوم، حديث رقم (2448)، ج3، ص129.

وكان للملك وزير كبير وهو بالخير مشير، فقال: أيها الملك الجليل، كيف تأمر بقتل هذا الحقير الذليل بغير حق ولا تعديل؟ أما غدًا، تطالب بدمه بين العادل الجبار الواحد القهار، إذا شاع خبرك بين الملوك والسلاطين بقتلك هذا المسكين، فقال له: كيف الحال يا ذخر الرجال؟ فأجابه الوزير: أن رد إلي هذا الفقير ونطلب منه المهر والجهاز وما يحتاج إليه في أمر الزواج، فنطلب منه معادن وجواهر وأموال لا يقوم بها بحال من الأحوال، ونطلب منه جواهر ولؤلؤ لا يوجد نظيرها في خزائن الملوك ولا السلاطين، فيعجز عن تحصيله، ويرجع عن مطلوبه، وعندك في خزائنك تُحف نعرضها ونطلب بدلهن إليه.

فعند ذلك استصوب الملك رأي الوزير، وقال: ردوا هذا الفقير، فلما أن حضر أدهم بين يدي السلطان قال له: ما حملك على هذا الكلام يا إنسان؟ قال: إنما هو بأمر الملك العلام، فقال له الوزير: أيها الرجل الفقير إن كان مرادك الزواج، فإنك تحتاج المهر والجهاز وما يؤل إليه أمر الزواج، فعند ذلك قال أدهم: اطلبوا ما شئتم، وخذوا ما أردتم، وكان في خزائن الملك من الجواهر الثمينة والعقود المنظومة ما لا يوجد مثله في سائر الأقطار ولا في جمع الأمصار، فأمر بإحضاره، فأحضروه بين يدي أدهم، فقال له الوزير: أيها الفقير الدرويش لا نطلب منك سوى هذا، فأجابهم إلى مثل هذا السؤال، وقال: جهزوا البغال والدواب والجمال، فقال كل من حضر: يا مولانا هذا لبس ببشر ولا إنسان، إنما يتخبطه شيطان.

وكان ذلك الوزير محترم استدرك ما قاله أدهم وبه أمر، وقال له الوزير: يا درويش إن ابنة الملك في ألم وتشويش، وقد أخذ الله بصرها وشل يديها ورجليها وهي ملقاة على الفراش، فقال له: يا وزير قد قبلناها من الملك الكريم، ونحضر لكم ما طلبتموه من الدر المنظوم بعناية الملك العظيم.

فحصل بينه وبين أدهم القول والإقرار، وسار أدهم ومن معه نحو البحار، وأخذ بيده جلدًا من الغنم وقدحًا من الفخار، ووصل إلى ذلك العجاج المتلاطم بالأمواج، فجعل يغترف ماء البحر بقدمه ويلقيه في البر، وينادي ويقول: يا كريم الفعال، يا معطي النوال قبل السؤال، أنت عليك الاتكال، أجب

دعوتي، واقض حاجتي، ولا تفضحني، ولا تردني خائبًا من كرمك ببركة جدي محمد ﷺ يا أكرم الأكرمين.

فما استتم كلامه إلا وحيتان البحر تمثلت بين يديه وأنطقهم الله الذي أنطق كل شيء بقدرته وجوده وفضله كل منهم يخاطبهم بلغته، فقالوا: يا أيها الإنسان قد أضر بنا العطش الشديد، الذي ما عليه من مزيد، ما مرادك هنا؟ وما الذي تقصده منا؟ فقال: مرادي تخرجوا لنا من البحار من الدر الحسان، ما يعجز عن وصفه كل إنسان، فأجابوه إلى ما طلب، وأحضروا له في الحال من الجواهر العجب، وألقوها بين يديه، فلما رأي أدهم ما أحضروا لديه، شكر الله وأثنى عليه، فحمل منها ما استطاع عليه، وعبًّا كشكوله وجلده، ومضى إلى حال سبيله.

ووافى بالمسير، حتى وقف بباب الملك والوزير، فلما أن وصل أدهم إلى الباب دخلت الحجاب، وأخبروا السلطان بما جاء به ذلك الإنسان، فأمر السلطان بإحضاره، والوقوف على أسراره، فدخل أدهم على حضرة السلطان وألقى الجواهر على ظهره، فحضر عند ذلك الوزير والأمراء والأعيان وأرباب الخبرة وأصحاب العرفان، فشاهدوا شيئًا ليس يوجد في خزائن السلطان، فتحيرت عقولهم مما رأوا، وانشرحت صدورهم لما عاينوا ونظروا، فقالوا له: أيها الدرويش من أين أتيت بهذا الدر النفيس؟!، فقال لهم: أيها الإخوان أما علمتم أن الله إذا أراد شيئًا قال له كن فكان، وقد جئنا بما طلبتم، وأجبناكم إلى ما أردتم، فأوفوا بعهدكم الذي عاهدتمونا عليه.

فتحققوا قوله، وما ظهر لهم من أفعاله، وصدق مقاله، وقالوا: ليس ذلك بمقدر درويش ولا إنسان، إنما هو من أفعال الرحمن، وعلموا أن له صدق مقال عند الملك المتعال، فقربوه ذلك الوقت إلى حضرة السلطان وزاد في اكرامه غاية الإكرام والاحترام، وخاطبوه بألطف عبارة ولين كلام.

فعند ذلك استدعى السلطان سائر العلماء والمشايخ والصالحين والفقهاء من سائر الأقطار والأمصار، ليقفوا على ذلك الأسرار، فاجتمعت سائر العلماء والمشايخ والفقهاء والصالحين في الوقت والحين، واعرضوا عليهم ما جاء به أدهم من الدر اليتيم، فقالت العلماء والمشايخ الكرام: إن لهذا عند ربه مقام، فأجمعوا رأيهم بأن يجيبوه إلى سؤاله، فقال الملك: لابد من إذن البنت في ذلك، فأرسلوا إلى الدايات والمخدَّرات وسائر النساء والقهرمانات، ودخلوا على بنت الملك، وعرفوها عن أمر الزواج، وكانت ابنة الملك في تلك الليلة قد رأت في منامها النبي ﷺ وأتم السلام وقال لها: انه سيأتيك غدًا السلطان أدهم الذي جاء إليك في تحليل أكله نصف التفاحة، فهو لكي بعلًا وأنتِ له أهلًا، فيقضى بينكما الشفاء والراحة.

فلما سمعت هذا الكلام، استيقظت مرعوبة من رؤية تلك الأحلام، فبينما هي في هذه الأفكار، إذ وردت عليها هذه الأخبار، فلما سمعت كلامهم وما أمر به أبوها من أمر الزواج، مال قلبها إليه وهاج، وقالت لهن: رضيت، فقالوا لها الدايات: إن أبيك ليس بذلك راض، فقالت لهن: إن الله تعالى قد قدر هذا وقضى، فعلمن منها الخطاب، فحينئذ أسرعوا برد الجواب، فلما تحقق السلطان ومن حضر من المشايخ والعلماء والفقهاء والأعيان بالرؤيا والبرهان، قالوا: هذا شيء بأمر الملك الحنان المنان، وأذعنوا إلى قدرة الملك المعبود.

فأحضروا القاضي والشهود، وأجروا نكاح بنت الملك المعظم على السلطان أدهم على سنة محمد ﷺ، فلما دخل بها وخلا بها، وجدها سالمة من العيوب، فلما أن رأت بنت الملك السلطان أدهم، فانكبت على قدميه تقبل يديه ورجليه، فقال لها بلين الكلام: من أين علمتي أني السلطان أدهم؟ فقالت له: يا سيدي ومن به مقصدي، قد كنت في هذه الليلة في المنام، إذ رأيت محمدًا سيد الأنام ومصباح الظلام، عليه من الله أفضل الصلاة وأتم السلام، وقال لي: غدا يأتيك السلطان أدهم الذي طلب منك التحليل في أكل نصف التفاحة، فتزوجي به يحصل لكي من الراحة والسعادة، فعندها تحقق ذلك الجمعين وصدق الرؤيتين.

فَصْلٌ فِي مَوْلِدِ اَلسُّلْطَانِ إِبْرَاهِيمْ بْنْ أَدْهَمْ وَنَشْأَتُهُ وَمَنَاقِبُهُ

لم يزل أدهم على ذلك الحال، حتى أتى له ولد يسمى إبراهيم، وعاش هو وزوجته مدة من الزمان، في ألذ عيش وأطيب منام، حتى جائه هادم اللذات ومفرق الجماعات، فقبض إلى رحمة الله تعالى وجناب عالية.

ولم تزل أم إبراهيم تربيه حتى كبر وشاع ذكره في سبع أقاليم، فعند ذلك، زهد في ذلك السلطان إبراهيم، إلى يوم من بعض الأيام، ركب إلى الصيد والقنص، وكان قد تزوج وجاء ولده يقال محمود، فعند ذلك أخذ الجند والغلمان، وسار طالب الصيد، إذ مالت القبة من على رأسه، فحس بحرارة الشمس على جلده كأنها جمرة نار، لما كان من النعمة، فقال في نفسه: إذا كان هذا فعل الشمس في جبين آدم، فكيف بنار الجحيم؟! وأضمرها في نفسه إلى أن أتى منزله، وصبر إلى الليل، وخرج ولم يأخذ معه سوى مصحفًا وسيفًا وألف دينار والجواد الذي كان يركبه، لأنه كان إذا أرسله يسير في ليلة واحدة ثمانين فرسخًا طول ليلته، وأنشأ يقول هذه الأبيات:

ليس البلاء بلية الأجساد * ومصيبة الأموال والأولادي

هجر الحبيب هو البلاء بعينه * والصد بعد تواصل وبعادي

فالربع بعد الإنس عاد معطل * فلقد تبدل قربه ببعادي

والعيش من بعد الصفاء مكدر * والحزن أضنى مهجتي وفؤادي

ولأجلكم جفت الجفون منامها * وتبدلت بعد الكرى بسهادي

إن الخلي عن الشجي بمعزل * والفرق بينهما جلي بادي

يا عاذلي كف الملام وخلني * أخذ الغرام بمهجتي وقيادي

من لم يبت والحب حشو فؤاده * لم يدر كيف تفتت الأكبادي

ثم إنه سار فارًّا إلى الله تعالى حتى أتى الصباح فرأى راعيًا يرعى الأغنام، فجاء إبراهيم إلى ذلك الراعي وتقدم وخاطبه بلين الكلام، فقال له: خذ ثيابي وأوهبني ثيابك يا غلام، فأجابه الراعي إلى مراده، ونزع السلطان ثيابه وألقاها إلى ذلك الراعي، وألقى الراعي ثيابه عن ظهره، جبة صوف، وسربال من القطن، وقبع من جلد خروف، وشملة من صوف، فاستتر إبراهيم بذلك الجبة، واشتمل بتلك الشملة، وترك ذلك الراعي في مكانه، وسار على جواده، وجد في السير حتى قطع ذلك الجواد أربعين فرسخًا في العمران، وأربعين فرسخًا في الخراب، وانقطع عن أعين الغير، حتى أن جاوز به السير إلى غدير ماء، فنزل عن الجواد، وأخذ من رأسه اللجام، وسرحه يرعى، وحفر حفيرة ودفن فيها سيفه خوفًا أن لا يتأذى به مسلم بعده.

ومما قال ابن غانم المقدسي[9]: لما لاحت أعلام القبول لأهل الوصول، ونسيم القرب قد تنسم، وأقبلت ركائب الحبائب تحث السير وتبالغ فيه، ورأيت رايات أرباب الهمم العالية قد سارت، والحادي يترنم، والهوادج كالعرائس تزف، والمشتاق إلى لقاء محبوبه قد هم، والألوية نشرت، والأعلام قد خفقت، والوجد على القوم قد غلب، وفيهم قد تحكم، ونادى منادي التحقيق، من أفق التوفيق، وتكلم ونادى أن يا إبراهيم، ما هذا الغم والهم، فمن كان بالنزال في معترك العشق قد هم، فإن حاكم الهوى قد أقسم، لا تبرز عروس المحبة إلا لمن نزل على حكمها وأمرها، فافهم، فإن كنت بطلًا تقدم، وإن كنت بطلًا لا تندم، واخلع ثوبك المعلم، وانزع تاجك الأفخم، واهدم ركنك المحكم، واترك سلطانك الأعظم، واهزم جيشك العرمرم، وانقض رأيك المبرم، فعند ذلك تقرأ حروفها المعجم، وتحل رمزها المترجم، وتشرح

---

[9] ابن غانم المقدسي (920 – 1004 هـ = 1514 – 1596 م) هو علي بن محمَّد بن علي بن خليل بن محمَّد بن محمَّد بن إبراهيم بن موسى بن غانم بن علي بن حسن بن إبراهيم بن عبد العزيز ابن سعد بن سعد بن عبادة –سيد الخزرج– الخزرجي السعدي العبادي المقدسي الأصل القاهري المولد والسكن، الملقب نور الدين الحنفي العالم الكبير الحجة الرحلة القدوة رأس الحنفية في عصره وإمام أئمة الدهر على الإطلاق واحد أفراد العلم المجمع على جلالته وبراعته وتفوقه في كل فن من الفنون، ولي المناصب الجليلة، كإمامة الأشرفية ومشيختها، ومشيخة مدرسة الوزير سليمان باشا، ومشيخة الإقراء بمدرسة السلطان حَسن غير ذلك، وحج مرتين، ورحل إلى القدس ثلاث مرات، وألف التآليف المفيدة (انظر: إمتاع الفضلاء بتراجم القراء فيما بعد القرن الثامن الهجري للساعاتي ج2، ص254).

سرها المبهم، وتعلم ما لم تكن تعلم، فأنشد كلام شرحه معجم، وسر ضميره مبهم، يشابه لفظه بالسمع، ولكن ذوقه محكم، فقم يا بارد الهمة، واشرب قبل أن تندم، شراب شربه فرض لمن يدري ومن يعلم، فكم في شربها مغنم، فقم واغنم وإلا نَمْ، وإن غنى لك الحادي وباسم الحب قد زمزم، فصرح باسم من تهوى وسبح باسمه الأعظم، وقل يا ساقي الكاسات أدر لي كأسها الأقدم، وأن عرَّبت من سكري، فسامع بالذي تعلم، فسلطان الهوى عندي بعفو السر قد خيم، فصار بصيرها أعمى وصار فصيحها أبكم.

فقال إبراهيم: ما هو إلا أن ركبت جوادي في معترك جلادي بين أجنادي، إذ سمعت من قربوس سرجي مناديًا: يا ابن أدهم ما لهذا خلقت عبادي، ولا بهذا أمرت أهل ودادي، فاترك مرادك لمرادي، وإلا أنت من أهل عنادي، فأصابني السهم في مقتل فؤادي، فأول مسلوب سلب قلبي الصادي، وأول مأسور أسير قيادي، وأول مطلق أطلق دمعي الغادي، فرحلت عن بلادي، وتشتت عن أوطاني وأولادي، وجئت أسير إلى من عليه توكلي واعتمادي، وخرجت وحيدا وأنا أنادي:

أهيم بوجدكم في كل بادي * وأسأل عنكم في كل نادي

واندب كلما عاينت ربعًا * وجدده لو شك البين حادي

قال: فلما انفصلت عن حظيرة قصري، حتى دخلت مصر أمصري، وناديت: يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر، وجئنا ببضاعة مزجاة وافتقار، فانظر بعين الرأفة والرحمة إلينا، فقال: هل علمتم ما فعلتم؟ وهل عرفتم ما أنكرتم؟ وأما المعترف فنكس رأسه من الخجل، وأما المفتر فصعد أنفاسه وابتهل، فنادى الحبيب: لا تثريب عليكم، اليوم يغفر الله لكم، سلام عليكم طبتم فادخلوا مصر فإن لكم ما سألتم، وهو معكم أينما كنتم، وأنشد وقال:

طابت بطيب وصالكم أوقاتي * وصفا بكم نعيم حياتي

فأنا المقر بأنني عبدكم * فتصدقوا بالعفو عن زلاتي

فلما أن إبراهيم ترك ما كان من أمر الدنيا، وأبقى المصحف ليستأنس بكلام ربه، ثم رأي بالقرب منه مكانًا خرابًا فقصده ودخله، فإذا هو مسجد قد تهدمت أركانه، وخربت حيطانه، فدخل إليه وبنا حوله أحجار، وأقام في ذلك المكان أربعين يومًا لا يأكل ولا يشرب ولا ينام.

ومما نقله الشيخ أحمد بن عبد الله القدسي[15] قال: قال لي إبراهيم: لما كنت خرجت سائحًا متوجهًا إلى الله تعالى، لحقني رجل حسن الوجه والثياب، طيب الراحة، فتقدمت إليه وصافحته وسلمت عليه، فرد علي السلام، وقال لي: يا إبراهيم أين تريد؟ فقلت: هربت منه إليه، فقال لي: يا إبراهيم أنت جائع؟ قلت: نعم، فقام وصلى ركعتين، وقال لي: قم وصلي كما صليت ففعلت، والتفت فإذا عن يمينه طعام موضوع وماء بارد، فقال لي: تقدم وكل من فضل الله تعالى وأشكر ربك على ذلك، فتقدمت وأكلت كفايتي من الطعام وهو باق على حاله، وشربت من ذلك الماء وحمدت الله تعالى على ذلك، ثم قال لي: يا إبراهيم اعقل وافهم ولا تستعجل في أمورك فتندم، فإن العجلة من الشيطان، واعلم أن الله سبحانه وتعالى إذا أراد بالعبد خيرًا اصطفاه لنفسه، وجعل في قلبه سراجًا من نور قدسه، يفرق به بين الحق والباطل، ويبصره عيوب نفسه، وإني أريد أن اعلمك الاسم الأعظم، إذا أنت جعت أو عطشت تدعوا الله به فإنه يشبعك أو يرويك، يا إبراهيم إذا جالست الأخيار والفقراء فكن لهم أرضا يطئونك، ولا تعصي لهم أمرا، فإن الله سبحانه وتعالى يغضب لغضبهم، ويرضى لرضاهم، قال: ثم علمني الاسم الشريف، وقال: استودعك الله الحي القيوم الذي لا يموت، ثم احتجب عني.

---

[15] أَحْمد بن عبد الله بن أَحْمد بن الْمُحب عبد الله بن مُحَمَّد بن إِبْرَاهِيم ابْن أَحْمد بن عبد الرَّحْمَن بن اسماعيل بن مَنْصُور الْقُدسِي أَبُو الْفَتْح ولد سنة 719 وَسمع من ابْن الزراد وست الْفُقَهَاء وَغَيرهمَا وأحضره أَبوهُ قبل ذَلِك على ابْن الشِّيرَازِيّ وَابْن سعد وَحصل لَهُ ثبتا فِيهِ شَيْء كثير وقفت عَلَيْهِ ثمَّ تنبه وَطلب بِنَفسِهِ وَقَرَأَ وَخرج لنَفسِهِ وَلغيره وَكَانَت فِيهِ لكنة وَمَات فِي الطَّاعُون الْعَام سنة 749 وَهُوَ حفيد الَّذِي بعده وَأَخُوهُ الْحَافِظ أَبُو بكر ولد الْمُحب الْمَشْهُور (انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني ج1، ص210).

فأخذت في الطريق وإذا أنا بفتى حسن الوجه طيب الرائحة، فسلمت عليه، فرد علي السلام، وقال لي: ما حاجتك يا ابن ادهم؟ ومن لقيت في سفرتك هذه؟ فقلت: لقيت شيخًا مليحًا من صفته كذا وكذا، فبكى الفتى وأبكاني، فقلت له: يا سيدي أقسمت عليك بالله الكريم ما هذا البكاء؟ وكيف عرفتني؟ ومن أنت؟ ومن ذلك الشيخ؟، فقال: أما الشيخ فأخي إلياس، وأما أنا فالخضر أبو العباس، ففرحت بذلك فرحًا شديدًا، فضممته إلى صدري وقبلت ما بين عينيه وسألته الدعاء، فدعا لي بالثبات ثم غاب حتى أني لم أرى أين ذهب.

فجديت في السير إلى أن وصلت إلى ذلك المكان الخراب، ووجدت رسوم ذلك المسجد الداثر، فأخذت من بعض الأحجار ووضعتها حولي، وأخذت في المجاهدة والعبادة أربعين يومًا لا زاد ولا ماء، فلما كان بعد الأربعين يومًا جلست متفكرا في شأني وأقول في نفسي: يا هل ترى قبل الله توبتي أم لا؟

قال رضي الله عنه: فبينما أنا في هذا الافتكار والوسواس، إذ غلب علي عيني النعاس، فنام ووضع جنبه إلى الأرض، فلما استغرق في نومه إذ أقبل عليه سبعًا ولبوة، وكانت ليلة شديدة البرد، فجاءت اللبوة برفق وفرشت جنبها تحت جنبه، وجعل السبع قائمًا من فوقه يمنع عنه المطر، فانتبه وأحس بشيء لين تحت جنبه قبل أن يفتح عينيه، فظن أنه رجع إلى لحافه وفراشه الموضوعة على تخته، فإذا هو بسبع قائم فوق رأسه يمنع عنه المطر، واللبوة تحت جنبه تمنع عنه برودة الأرض وصلابة الحجر، فقال إبراهيم: لا إله إلا الله سبحان الله ما أعظم شأن الله وأعز سلطانه، يا مولاي الأسد واللبوة أعد أعداء ابن آدم، فلما أن رضيت علي سار الأعداء أصدقاء وأحباب، اللهم أدم رضاك علي ولا تحوجني إلى أحد سواك.

فانطق اللبوة بقدرة الله تعالى وخاطبته: يا إبراهيم إنك لا تقدر على المشي، فاجعلني من بعض دوابك، وهذا السبع خادمك في سيرك.

وقلت في ذلك المعنى:

فإن أعطيتني الدنيا * وإن أعطيتني العقبى

فلا أرضى من الدنيا * إلا رؤية المولى

فلما خاطبته اللبوة وقالت: إن الله سبحانه وتعالى أمرني لك بالسمع والطاعة أنا ورفيقي هذا، فلما سمع إبراهيم من اللبوة هذا الكلام، علم أن الله سبحانه وتعالى قبله، فهاج به الغرام، وقصد السفر إلى أن ينقطع عنه الأثر والخبر.

فنهض إبراهيم إلى تلك اللبوة وركبها، وسارت به والسبع دليله، إلى أن وصلت به إلى بعض المدائن في أطراف بلاده، فنزل عن اللبوة وأطلقها، وجعل على وجهه برقعًا حتى لا يعرفه أحد، ودخل إلى المدينة وقت المغرب، وقصد جامعها وصلى فيه الصلاة خلف الإمام، وجلس في زاوية الجامع، وإذا بفقراء مجتمعين في ذلك المكان وهم يشكون الجوع من مدة ثلاثة أيام، وكان قد صحب معه المصحف الشريف، فأخذ المصحف وأتى به إلى بقال فأرهن ذلك المصحف على درهمين واشترى بهما خبزًا وجبنًا وتمرًا وجاء به إلى الفقراء، ووضعه بين أيديهم، وجلس في مكانه ولم يلتفت إليهم، واشتغل في العبادة والتهجد والتضرع والاجتهاد إلى رب الأرباب إلى وقت الصبح.

فلما أصبح الصباح صلى صلاة الصبح مع الإمام ومضى إلى بين الناس، فلقي غلام الوالي وقال: من فيكم يحمل شوي إلى بيت الوالي؟ فقالوا له: هذ الشاب قوي على الحمل، خذه حتى يحمل معك، فقال لي: يا شاب بكم تحمل خروفين ودستتين رقاق وشوي، قلت: بدرهمين، فقال لي: تعالى احمل، فحملتهم ومضيت وهو قدامي قاصدين بيت الوالي، وكدني عرقًا شديدًا مما نالني من التعب والنصب، حتى وافينا دار الوالي ووضعت الشوي بين يديه، وتقدم الغلام إليه، وقال له: يا سيدي تصدق على هذا الرجل

بدرهمين لأنه رجل صالح، وقد ناله المشقة والتعب، فقلت لهم: ما نريد منكم صدقه، وإنما أريد أجرتي التي اشترطت لي، كما قال رسول الله ﷺ: (أَعْطُوا الْأَجِيرَ حَقَّهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ)[11].

فلما سمع الوالي منه هذا الكلام نظر إليه شَذَرًا، وكان جالسًا على كرسي وعليه ثياب الديباج، مرصعًا بالذهب الوهاج، وبيده ميل من الذهب، فأومئ إلي بذلك الميل وقال: من هذا الذي يريد أن يأخذ منا أجرة ونحن نأخذ ولا نعطي؟!، قال: فتبسم إبراهيم من كلامه، وقال له: يا هذا إن لم تعط اليوم وإلا فتعطي غدًا بين يدي العزيز الجبار، وتؤخذ من حسناتك وتبقى في النار حاملًا أوزار المظلومين بحكم أحكم الحاكمين، وإن أعطيت الناس حقوقهم فما خرجت عن العدل واستحققت الأجر والفضل، فقد قال رسول الله ﷺ: (الظالم نادمًا وإن كان غانمًا، الظالم لا يموت إلا حقيرًا ولا يحشر إلا فقيرًا)، وقال ﷺ: (الظالم محجوب عن الشفاعة والرحمة، وويل للظالمين يوم تقوم الساعة).

فلما أن إبراهيم لح على الوالي بهذا الكلام، وكان قد سمع بخروج السلطان عن الملك وجميع الخدام، ففطن به تلك الساعة، لما رأى على وجهه تلك الستار، فنهض مسرعًا عن سريره، وكشف البرقع عن جبينه، فشاهد سيده السلطان إبراهيم بن أدهم، فنزل على أقدامه يقبلها، وقال له: لا بقيت أعيش بعدك يا سيدي أبدًا ولا أراك على هذه الحالة بعد ذلك، ولا يبلغ من قدري أنك حملت لي الشوي، ثم عمد إلى سكين كانت على جنبه وقصد أن يقتل نفسه، فقبض إبراهيم على السكين من يده، وقال له: أعطني، كيف تهلك نفسك يا مسكين؟!

ثم إن إبراهيم حدف تلك السكين من يد الوالي، وقال له: أعطني درهمين ولا تبالي من أمر ما رأيت، فقال له الوالي: إني جمعت لك الأموال من جزية اليهود والنصارى والعمال، وقد كنت جمعت من الأموال عشرة آلاف دينار، وتزيد عن هذا المقدار، وجهزت الخزائن لإرسالها إلى حضرتك الشريفة، ولكن

---

[11] سنن ابن ماجه، كتاب الرهون، باب أجر الأجراء، حديث رقم (2443)، ج2، ص317.

عاقتها المقادير لما بلغنا هذه الأخبار، أنك تركت الأموال والملك والديار، وتوجهت إلى البراري والقفار متوجهًا إلى جناب الملك القهار.

فعند ذلك أمر الوالي بإحضار تلك الأموال، ووضعها بين يديه، وقال: يا سيدي قد جمعتها من وجه حلال، فأخذ إبراهيم من ذلك الأموال درهمين لا غير، وقال له: يا مسكين إن كان هذه الأموال جمعتها من وجه حلال فسيرها إلى بيت المال ليصرفوها على العساكر والرجال، وإن كان جمعتها من وجه حرام، فرده على أصحابه إن كنت تعرفهم، وإن لم تعرفهم تصدق به على الفقراء والمساكين، إن الله لا يحب الظالمين، وإلا غدًا تطالب به بين يدي الرحمن، يوم لا ينفعك مال ولا أهل يوم القيامة يوم الحسرة والندامة، وأما أنت فخر لوجه الله تعالى، وإن كانت البلد لي فقد وليتك إياها فلا تظلم أحدا من رعيتك.

ثم أخذ من ذلك المال درهمين ومضى إلى حال سبيله، وأتى إلى البقال، وأخذ المصحف، وخرج من البلد حتى لا يطلع على سره أحد، فتبعه الوالي، وقال له: يا سيدي ما يهون علي فراقك، وأنا أكون في خدمتك لمشاهدة وجهك، فاقسم عليه إبراهيم أنه يرجع إلى بلده، فودعه وانصرف حتى غاب عن عينه ولم يعرفه أحد.

وقد أتاه ذلك اللبوة والأسد فركب وسار طول النهار حتى قرب إلى العمار، فنزل عن ذلك الأسد وأطلقه وقصد البلد، وكانت هذه يقال لها نيسابور[12] وكانت هي من ملكه آخر بلاده، فتوجه إلى نحو المسجد وقت العشاء الأخير ليبيت في تلك الليلة إلى وقت الصباح، فأتاه الخدام لذلك المسجد بالغضب وقال له: قم واخرج من المسجد وإلا أذيقك العطب، فقال له إبراهيم: إني رجل غريب الديار أبيت هذه الليلة إلى أن يطلع النهار، فقال له خادم المسجد: يا قليل العقل قم واخرج وإلا أذيقك القتل، فخرج إبراهيم من ذلك المسجد ودخل في بعض الأزقة يريد مكانًا يواريه ليأوي إليه، فلقيه الحرس فسارعوا إليه

---

[12] نَيْسَابُور هي مدينة في مقاطعة خراسان شمالي شرق إيران قرب العاصمة الإقليمية مشهد. كانت نيسابور عاصمة لمقاطعة خراسان قديماً، وتعد من أشهر مراكز الثقافة والتجارة والعمران في العصر العباسي، قبل أن يدمرها زلزال ضربها عام 540 هـ (1145 م)، ثم أكمل خرابها غزو المغول لها سنة 618 هـ (1221م).

وقبضوه من يده، وقالوا: إن هذا سارق من بعض السراق، قد أتى هذه الليلة ليسرق من بعض الأسواق، فأخذوه في الحال وأحضروه قدام حاكم البلاد بلا إمهال.

فلما أن رآه ذلك الأمير، قال: ما هذا الفقير؟ قالوا: إنه لص حرامي من بعض السراق، أتى ليسرق شيئًا من الأسواق، فلم يثني عليهم الكلام، حتى أمر الجلادين بصلب إبراهيم، فلما تحقق إبراهيم ما أمر به ذلك الأمير، ولم يسأله عن شيء، وأرادوا أخذه من يده، فحينئذ تقدم إبراهيم إليه وساوره في أذنه وقال له: أما تعرفني يا أيها المغرور في حكمه المتبع هوى شيطانه؟! أما تقف على حقيقة أحوال المسلمين؟! أما تعرف أحوال المظلوم من الظالم؟! كيف تحكم بهذا الحال بين المؤمنين ولا تقف على السؤال؟! أما تعرفني؟! أنا سيدك إبراهيم، أطلقني ولا تكشف حالي إلى أحد من العالمين.

فلما سمع ذلك الأمير من إبراهيم ذلك الكلام، نزل يقبل يديه والأقدام، وقال: يا سيدي الحكم بعدك حرام، هذه رقبتي والسيف مما وقع مني من ذلك الحيف، وأنا عبدك وتحت رقك، افعل بي جزاء الذي صدر مني في حقك، فقال له إبراهيم: أنت حر لوجه الله، وهذه البلد لك مؤبدا سرمدًا، ولا تظهر سري إلى أحد، ولا تكن جائرًا في الأحكام، ولا تعجل في الأمور فإن العجلة من الشيطان، والرفق من الرحمن، وقل إلى هؤلاء العبيد والخدام إن هذا رجل فقير غريب، وقد أتى من بلد بعيد وقد عفونا عن زلته، وغفرنا له جرمه، فأوصلوه إلى المكان الذي رأيتموه فيه ولا تعارضوه.

فعندها أمر الوالي الخدام أن يأخذوه بالإعزاز والإكرام، ويوصلوه إلى ذلك المكان، فحملته الغلمان بالإكرام والاحترام، وجعلوا يقبلوا يديه والأقدام ويطلبوا منه العفو والغفران، عما صدر منهم في حقه من الضرر والنقصان، فعفى عنهم وودعهم ودعا لهم.

وسار فلما خلص من أيديهم ورجعوا إلى حال سبيلهم فقال في نفسه: ليس بقي لك مقام في هذا المكان، فخرج من المدينة هائمًا على وجهه هاربًا إلى ربه، فزاد به الوجد والغرام، وأداه الحال إلى مسجد خراب ظاهر البلد بعيد عن الأوطان، فدخل إبراهيم ذلك المكان، واعتكف على عبادة الرحمن أربعين صباحًا، وكان كل يوم يأتيه فقير بعشاه وهو لا يعرفه، فلما كان عند تمام الأربعين ليلة، أتاه الخضر عليه السلام بأمر الملك العلام، ومعه ورقة فيها اسم الله الأعظم، فقال له: يا إبراهيم تسلم هذا المرسوم الكريم لأنه مرسوم ولايتك، وخلعة كرامتك، إن جعت دعوت به كفاك، وإن عطشت دعوت به أرواك، وإن تعبت دعوت به استرحت، وان احتجت إلى نفقة تدعو به تقبض من الغيب، فقال عند ذلك للخضر: يا أخي ليس لي حاجة إلى الدنيا، ولا طلب العليا في الآخرة، إلا رضى المولى، فقال له الخضر عليه السلام: يا ابن أدهم لولا الرضا من العلي الأعلى ما جعل لك هذا المقام الأعلى، وهي إشارة الرضا من العلي الأعلى، فتقدم إبراهيم وقال: بسم الله على بركة الله، فأخذ الاسم الأعظم من الخضر عليه السلام، كما قال فيه بعض السادات هذه الأبيات:

يا رب ما لي عدة عند اللقا * إلا رجا قلبي ونطق لساني

قد أمل الراجون يبغون المنا * يا خيبتي إن عدت بالحرماني

قال: فلما حصلت له العناية وخلعة الولاية خرج من ذلك المكان، وطلب السفر ليزول عنه الهم والخطر، فضل عن الطريق، وانقطع عن الرفيق، وصار له سبعة أيام لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، فغار منه الشيطان لأن الشيطان غيور حسود، وكيف لا يغار من الأكابر الأبرار الأخيار، وحق له أن يغار وقد ألبسوه حلة التي لا انخلاع عنها، وولايته التي عزل منها، فجاءه في صورة شيخ صالح، وبيده ركوة وعكاز كأنه من بعض عرب الحجاز، وتقدم إليه وسلم عليه، وقال له: يا إبراهيم إن الحبيب الذي تركت لأجله المهالك، وقطعت في طلبه المهالك، قد ضيعك حتى أشرفت على الموت، وفات منك الفوت، فعلم

إبراهيم أنه الشيطان، فقال له: يا شيطان لابأس بالموت إذا حصل من المحب الأمان، وتواجد وجعل يقول:

يا لائمي لو بذلت الروح مجتهدًا * وجملة المأمول والدنيا وما فيها

وجنة الخلد والفردوس أجمعها * بساعة الوصل كان القلب شاريها

لا تسلكن طريقًا لست تعرفه * بلا دليل فتهوى في مهاويها

ظننت أن الهوى سهل طريقته * أم المحبة أسماء تسميها

لا يعرف الشوق إلا من يكابده * ولا الصبابة إلا من يعانيها

وسار فارًا إلى الله تعالى في مرضاته، لاسيما وقد جاد عليه بالقبول، كما قال بعضهم رضي الله عنهم: الزهد أساس الأحوال المرضية، والمراتب السنية، وهو أول قدم يصل به العبد إلى الله، فمن لم يحكم له أساس في الزهد لم يصح منه شيء مما بنى بعده، فالفقر رداء الشرف، ولباس المرسلين، وجلباب الصالحين، وتاج المتقين، وغنيمة العارفين، ومنية المريدين، ورضى الجبار، وكرامة أهل ولايته، ومن انس بالله استوحش مما يشغله عنه، فعند ذلك آنسه الله وأراده أن يحق بحقائق الأنس، فأخذه عز وجل وجاد له بمنه وكرمه، وجعله بين سادات الرجال طرازًا معلمًا، وبين القوم الكرام إذا غدا ذو ذكر مقدمًا، ونقلوا عنه العلماء أهل التحقيق روايات وتصديق، وذكرا له بالسند الصحيح أسرار وكرامات.

وهو أول من ذكره الإمام العالم الزاهد أبو القاسم ابن عبد الكريم ابن هوزان القشيري[13] في رسالته بتعداد أولياء الله تعالى، وقد ذكره شيخ الإسلام قاضي القضاة تاج الدين ابن سيدنا ومولانا تقي الدين

---

[13] الإِمَامُ الزَّاهِدُ القُدْوَةُ الأُسْتَاذُ أَبُو القَاسِمِ عَبْدُ الكَرِيْمِ بنُ هَوَازِن بنِ عَبْدِ المَلِكِ بنِ طَلْحَةَ القُشَيْرِيُّ الخُرَاسَانِيُّ النَّيْسَابُوْرِيُّ الشَّافِعِيُّ الصُّوْفِيُّ المُفَسِّرُ صَاحِبُ "الرِّسَالَةِ." وُلِدَ سَنَةَ خَمْسٍ وَسَبْعِيْنَ وَثَلاَثِ مائَة. وَتعَانَى الفُروسيَّة وَالعَمَل بِالسِّلاَح حَتَّى بَرَعَ فِي ذَلِكَ ثُمَّ تَعَلَّم الكِتَابَة وَالعَرَبِيَّة وَجَوَّد. وَكَانَ عَدِيم النَّظِيرِ فِي السّلوك وَالتَّذكير لطيفَ العبَارَة طَيِّبَ الأَخلاَقِ غوَّاصاً عَلَى المَعَانِي، تُوُفِّيَ الأُسْتَاذ أَبُو القَاسِمِ صَبِيْحَةَ يَوْمِ الأَحَد السَّادِس وَالعِشْرِيْنَ مِنْ ربيعٍ الآخر سَنَة خَمْسٍ وَسِتِّيْنَ وَأَرْبَعِ مائَة (انظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ج18، ص277).

السبكي[14] تغمده الله برحمته واسكنه فسيح جنته، قال: لما أن وقفت على أسراره، وما أوردوه من كراماته وأخباره، فأجبت أن أشرع في ذكر كراماته، قول أهل الحق من أهل السنة والجماعة، في كرامات الأولياء الصالحين، والعباد المقربين، مما اعتمد في ذلك عليه العلماء العارفين، فأقول:

كرامات الولي وظهورها على نقض العادة جائز، والفرق بين الكرامة والمعجزات أن المعجزات حالات الأنبياء، والكرامات حالات الأولياء، فالمعجزة مثل انشقاق القمر، وإجابة الشجر، ومنبع الماء، وكلام الثعبان والحجر، وتصوير الطير، وإحياء الموتى، والكرامة شبه إجابة الدعاء كما أخبر الله تعالى عن مريم: ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: 37]، ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾ [مريم: 25]، وكان في غير أوانه، وكذلك قصة أصحاب الكهف، وقصة آصف ابن برخيا[15] بعرش بلقيس، وكرامات عمر رضي الله عنه في سارية الجبل، وشرب السم بالحيرة، وأما ذكر معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء لا تحصى، وقد اختصرنا هنا خوف الإطالة.

ومما قد اشتهر عن إبراهيم ابن ادهم من كراماته، أن الله سبحانه وتعالى هدى ببركة إشارته من كان على دين النصرانية، ومما نقله عبد الكريم القشيري في كتابه المسمى بـ "التحبير في شرح أسماء الله اللطيف الخبير" عن حذيفة المرعشي[16] أنه قال: كنت صحبة إبراهيم ابن أدهم في سفره، فدخلنا الكوفة

---

[14] أَبُو نَصْرٍ تَاجُ الدِّيْنِ عَبْدُ الوَهَّابِ بْنُ عَلِيِّ بْنِ عَبْدِ الكَافِيِّ السُّبْكِيُّ، فقيه شافعي، ومؤرخ عربي وقاضي القضاة في دمشق، كان إماماً عالماً، بارعاً، فقيها، نحوياً، أصولياً، مولده سنة ثمان وعشرين وسبعمائة. كان ذكياً، صحيح الذهن وبرع في الفقه وغيره، وأفتى ودرس، وولي قضاء دمشق أربع مرات، وتولي خطابة الجامع الأموي بدمشق، توفي بالدهشة ظاهر دمشق في يوم الثلاثاء سابع ذي الحجة سنة إحدى وسبعين وسبعمائة، ودفن بسفح قاسيون عن أربع وأربعين سنة، رحمه الله تعالى (انظر: المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي لابن تغري بردي ج7، ص385).

[15] آصف بن برخيا هو أحد علماء بني إسرائيل ومن المقربين من الملك سليمان وكان يملك العلم الكبير ويعلم باسم الله الأعظم ويرى عدد من العلماء أنه من أحضر عرش ملكة سبأ إلى الملك سليمان بن داود بطرفة عين. ذكر البعض بأنه كاتب الملك وذكر آخرون أنه وزير الملك وأنه ابن أخته. ومع أنه لم يذكر بالاسم في القرآن إلا أن عددا من المفسرين والعلماء ذهبوا إلى أنه «الذي عنده علم من الكتاب» المذكور في سورة النمل الآية (40). (انظر: تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ج15، ص477).

[16] هو حذيفة بن قتادة المرعشي من أهل مرعش كان أحد العباد المذكورين، صحب سفيان الثوري وروى عنه. روى عنه يوسف بن أسباط وابن أبي الدرداء ونبهان بن المغلس، والفيض بن اسحاق، ومحمد بن أبي الورد، واشتغل بالعبادة عن الرواية. قال فيه الجنيد البغدادي سمعت السري السقطي يقول: كان أهل الورع في أوقاتهم أربعة: حذيفة المرعشي ويوسف بن أسباط، وابراهيم بن أدهم، وسليمان الخواص، فنظروا في الورع فلما ضاقت عليهم الأمور فزعوا الى التقلل (انظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ج8، ص151؛ بغية الطلب في تاريخ حلب لكمال الدين ابن العديم ج5، ص145).

فأوينا إلى مسجد خراب فقال يا صديق الجوع، فقلت ما يريد الشيخ أن أفعل، فقال: اتيني بدواة وورقة، فأتيته بهما، قال: فكتب فيها بسم الله الرحمن الرحيم، أنت المقصود والمشار إليه بكل معنى، إنا حامدانا شاكرانا ذاكرانا جائع، أنا قانع، أنا عاري، هي ستة وأنا الضمين لنصفها، فكن الضمين لنصفها يا باري، مدحي لغيرك لهيب نار خضتها، فأجر عبيدك من لهيب النار.

ثم دفع إلى الرقعة وقال: اخرج وادفعها إلى أول رجل تلقاه، قال: فخرجت فإذا أنا برجل شاب حسن الوجه، نظيف الثياب، راكبًا على بغلة، فناولته الرقعة فقرأها وبكى، ثم قال: وأين كاتبها، فقلت له: في المسجد الفلاني، فناولني صرة فيها ستمائة دينار، وقيل درهما، وقال: احملها إليه، فأخذتها منه ومضيت، فرأيت إنسانًا فسألته عن هذا الشاب، فقال لي: رجل نصراني، فتعجبت من ذلك، وحملت الصرة إلى إبراهيم، فقال لي: ضعها فإن صاحبها يجيء الساعة، فما لبثنا إلا وجاء الرجل وقبل يد إبراهيم، وقال له: نعم ما أرشدتني إليه، ثم أسلم على يديه وحسن اسلامه، فلما كانت إشارة الشيخ صحيحة حصل من بركتها ما حصل، فعليك يا أخي بصدق اليقين من رب العالمين.

ومما روي عنه أنه كان مارًا يومًا بقارعة الطريق فرأى رجلا سكران يتقيأ، فقال: بأي ذنب أصابته هذه البلية، ثم تقدم إليه ومسح فمه ويديه، فلما أفاق قيل له ان إبراهيم بن أدهم فعل بك كذا وكذا فاستحي ذلك الشاب وتاب إلى الله تعالى، فرأى إبراهيم فيما يرى النائم قائلا يقول: يا إبراهيم طهرت فمه من أجلنا، فطهرنا قلبه من أجلك.

ومما نقل من كراماته أنه دخل إلى مسجد خراب واعتكف فيه وأخلص العمل في ذلك المكان أربعين يومًا، لا يصحب أحدًا، ولا يكلم أحدًا، فلما كان بعد الأربعين صلى الصبح وخرج من ذلك المسجد قاصدًا السفر، فإذا هو برجل ضرير جالس على الطريق، فتعلق بأذيال إبراهيم، وقاله له: لوجه الله أعطني شيئًا، فإني رجل غريب أعمى كما تراني، وليس لي قدرة على عمل ولا صنعة، ولي سبع بنات ما

ناموا البارحة من شدة الجوع، وقد أصبحت على فاقة، وأنت أول من لقيت من عباد الله تعالى، فخذ بيدي، يأخذ الله بيدك، قال له إبراهيم: يا أيها العزيز أقسمت علي بوجه حبيبي وإني لا أملك إلا نفسي، فاقبلني مملوكًا تبيعه وتأخذ ثمني وتنفقه على بناتك وعيالك، فقال له العزيز: وأين لي بذلك؟ فقال له إبراهيم: أنا أبيع نفسي لك.

قال: فبينما هم في ذلك، وقد اجتاز بهما تاجر ومعه غلام من أكابر البلدة والأعيان، فقال لهم: ما شأنكم؟ وما حالكم؟ فقال إبراهيم: أيها الرجل التاجر إني مملوك لهذا الرجل الضرير، وقد أضر به الحال لأجل نفقة العيال، فهل لك أن تشتريني وتستخدمني في أي شغل أردت، فقال التاجر: وكم الثمن؟ فقال إبراهيم: دية الذمي أربعة آلاف درهم، فقال التاجر: اشتريت ورضيت، فقبض إبراهيم ثمنه بيده من التاجر وناوله إلى ذلك الرجل الضرير وقال له: اذهب إلى عائلتك.

وقيل في رواية أخرى أنه أتى به سوق الرقيق وباعه بثمانمائة درهم وقبضها ذلك الضرير وانصرف، ثم إن التاجر أخذ بيد إبراهيم، وقال له: ما اسمك يا مسكين؟ فقال: اسمي إبراهيم، فقال التاجر: يا إبراهيم إن لي بستانًا وفي طريق الماء صخرة، وقيل: جبل في وسط البستان، يحجب الماء عن البستان، وقد اكريت قطاعين، وهم يقطعون فيها منذ ثلاث سنين، وقد قطعوا نصفها فتكون أنت ناظر عليهم تستعجلهم على العمل حتى يقطعوا النصف الثاني في سنتين، لعل الله سبحانه وتعالى أن يجري ذلك الماء على يديك، فإذا وصل الماء إلى البستان، فأنت حر لوجه الله تعالى وأعطيك ما تريد، فقال له إبراهيم: نعم، على بركة الله تعالى.

ثم إن إبراهيم قال للتاجر: آتني بقفة ومجرفة ورغيف خبر من شعير، وقيل ملح، فأتاه التاجر بما طلب وادخله البستان، ورجع إلى شغله، قال: فأخذ إبراهيم الرغيف وذلك الملح ودخل البستان، وقصد أكله ثم قال: كيف تأكل خبز من لا عملت له شغل، ثم أخذ ذلك القفة والمجرفة وأتى إلى ذلك الفعالة

ليستعجلهم على العمل، وأتى إلى جانب تلك الصخرة، وقيل الجبل، فأخذ المجرفة بكفه وأملأ تلك القفة وأخذها على كتفه وحث تلك الفعالة على العمل.

وقيل إنه جلس ساعة يقرأ القرآن وهم يقطعون بين يديه ذلك الغلمان، وقيل إنه قام يصلي تحت كل شجرة ركعتين، حتى أتى وقت الظهر فقام وصلى الظهر واتكأ على الأرض، وقال للفعالة: لا تنبهوني إذا جاءكم الغداء، فإني اليوم صائم، فلا أحد يوقظني من النوم، فأخذ إبراهيم في النوم، فأمر الله سبحانه وتعالى ملكًا، وقيل جبرائيل عليه السلام، فقطع تلك الصخرة من ذلك المكان، ورمى بها إلى خارج البستان، فطلعت حية عظيمة كالجمل البختي من ذلك الجبل وهاجت، ففرت الفعالة منها وتفرقت وفاض الماء حتى وافا ذلك المكان.

وقيل إن تلك الصخرة كانت مسكن ذلك الثعبان، فقتلت إلى ذلك التاجر ثلاثمائة مملوكًا من عبيد وغلمان، فلما أن تلك الحية خرجت من مكانها، وتفرقت الفعالة من خوفها، وفاض الماء على البستان، فأقبلت تلك الحية إلى نحو إبراهيم وفي فمها قبضة ريحان، وقيل ياسمين، حتى أتت على رأس إبراهيم وهو نائم فمكثت تهش عن وجهه وهو مستغرق في نومه، لأنه قد مضى له أربعين يومًا لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، فلما أن دخل إلى البستان ألقى الله عليه النوم.

قال: ثم إن التاجر قام من الدكان وقصد إلى البستان، وهو يقول في خاطره: يا ترى كيف صار إلى ذلك الغلام الذي أخذناه مع تلك الحية، فلما أن دخل التاجر البستان، فلم يرى لتلك الصخرة أثرا، ولم يرى إلى ذلك الفعالة خبرا، وفاض الماء حتى ملئ البستان، فتعجب من ذلك الأمر غاية التعجب، وقال: ما أبرك هذا الغلام الجديد الذي حصل لنا به الفرج القريب، ثم التفت فرأي إبراهيم نائمًا ملقى على الأرض والحية عند رأسه تهش عن وجه بالباقة الريحان، فصاح ذلك التاجر من خوفه وسقط مغشيًا عليه فهربت تلك الحية.

واستيقظ إبراهيم مرعوبًا من تلك الصيحة، فرأي إبراهيم التاجر ملقى على الأرض، وليس للصخرة من أثر، ولا لذلك الفعالة من خبر، فأتى إبراهيم إلى ذلك التاجر وأخذ برأسه، وجعله على ركبته، وأخذ يمسح التراب عن وجهه، فأفاق التاجر، فرأى إبراهيم ورأسه على ركبته، فقال له: يا سيدي ما الذي أصابك وما الذي أنكرته مني؟ فقال له التاجر: لا تقل يا سيدي، بل أنت أستاذي وأنا عبدك، فقال له: ولم تقول لي هذا الكلام؟ فقال التاجر لإبراهيم: إني قد رأيت منك شيئين عجيبين، الصخرة التي ما كانت تزول في دهر طويل، والعجيبة الثانية الحية التي أهلكت ثلاثمائة عبد وهي قائمة على رأسك تهش عنك الذباب بباقة الريحان، فبحق من أعطاك هذه المنزلة من أنت وما اسمك، فقال عند ذلك إبراهيم: يا مولاي كان بيني وبينك شرط أنه إذا فرغ شغلك تعتقني، قال: نعم، قال له: يا سيدي أنت حر لوجه الله، وهذا البستان هبة مني إليك، وأنا وأولادي بين يديك، فعسى تجبر بخاطري وتسامحني وتجعل مقامك عندي، فقال له إبراهيم: اخلف الله عليك بالبركة، وليس لي حاجة بالدنيا، والإقامة في هذا المكان، وإن قصدي زيارة القدس الشريف والمجاورة في بيت الله الحرام وزيارة المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، ثم أن التاجر قبل يديه ورجليه، وطلب منه الدعاء، فدعا له وودعه.

وخرج إبراهيم ظاهر البلد وقد وافاه ذلك الأسد، فسلم على إبراهيم بلسان فصيح، وقال له :يا سيدي ما هذا الهجران، فقال له إبراهيم: لا تسأل عما كان، فركب الأسد على بركة الله تعالى يريد الشام، فانتهى به السير إلى البرية، حتى أتى إلى مدينة أنطاكية، وقيل مدينة ملطية، فدخل إلى مسجد ظاهر البلد وقت العشاء، فصلى إبراهيم الصلاة وأراد المبيت فيه، وكانت ليلة باردة شاتية فأتاه خادم المسجد، وقيل الإمام، وقال له: قم فاخرج من هذا المكان حتى أغلق الباب، فقال له إبراهيم: يا أخي إني رجل غريب وليس لي مكان آوي إليه، وهذه الليلة شاتية باردة، فاصبر علينا حتي يصبح الصباح، فقال له الخادم: أنت

اللص الذي يسرق حصير المساجد والقناديل، فقال له إبراهيم: ضمان الحصر والقناديل علي ولا يصير عليهم شيء، ودعني أبيت الليلة في هذا المكان، فقال: قم واخرج ولا تطول معي كلام.

قال صاحب الحديث: وكان أهل ذلك البلد يخافون الروم، فسكت إبراهيم ولم يرد له جوابًا، فقال له الخادم: ما أوقحك من رجل، قم واخرج وإلا جررتك برجلك وأخرجتك كرهًا، فقال إبراهيم: ما أخرج حتى تجرني برجلي، قال: فعمد الخادم وجعل يجره برجله، ورأسه يضرب الأرض، حتى أخرجه ظاهر المسجد وألقاه في الطين، وجعل يمرغ وجهه على الأرض، وأغلق الخادم باب ذلك المسجد ومضى، فبعث الله ملكًا وقيل جبرائيل، ومسح على وجهه وجسده، وقال الملك: يا إبراهيم كيف تريد تفعل مع هذا الذي فعل معك هذه الفعال، فقال إبراهيم: أريد الله سبحانه وتعالى يغفر له ويرحمه ويوسع عليه من الرزق الحلال، فقال الملك: سبحان الله العظيم، هو ضربك وأهانك وأنت تدعو له بالمغفرة، فقال إبراهيم: لولا أنه ضربني، ما جاءت الملائكة تسلم علي وتصافحني بأجنحتها، وما جاءني من جمعته إلى الخير.

وغاب الملك في الحال، فالتفت إبراهيم يمينًا وشمالًا يطلب مكانًا يأوي إليه، فرأى في بعض الأماكن ضوء نار بالقرب منه، فذهب نحوها، فإذا هو اتون حمام وعبد أسود، وقدامه شيء يوقد فيه، فدخل إبراهيم الموقد، وقال: السلام عليك يا عبد الله، فلم يرد عليه السلام، وهو يهمهم بشفتيه، فقال إبراهيم في نفسه: أخشى أن يكون مثل خادم ذلك المسجد في قلبه قساوة، وقيل أنه رد عليه السلام بهمهمة في شفتيه، قال: فتركه إبراهيم، وانصرف إلى دهليز داثرا بجنبه يصلي فيه، وإذا هو بالعبد وقد أتى بطبق وفيه رغيفين وسكر وزيتون وإبريق فيه ماء، فوضعهم بين يديه ورجع إلى عمله، ولم يكلمني فقلت في نفسي: الظاهر أن هذا العبد في قلبه الرحمة والشفقة، فأكلت وشربت وصرت أتركع وقتًا، وأتلوا القرآن وقتًا، والعبد يوقد طول الليل، ولسانه لا يفتر عن ذكر الله تعالى إلى أن طلع الفجر، فبطل ذلك الوقت والعمل الذي كان مشغولًا فيه، ونفض ثيابه، وأتى إلى عندي وردَّ عليَّ السلام وأخذ يتوضأ، وقام وصلى

معي الصبح فلما سلمنا من الصبح، قال: صبحك الله بالخير يا أيها الفقير، قد استأنسنا هذه الليلة بقراءتك ومؤانستك ولا تحسبني تركت منادمتك استخفافا بك، فقلت له: يا سبحان الله أنا اسلم عليك من أول الليل فلم لا ترد علي إلى هذا الوقت، فقال لي: يا عبد الله المعذرة لله ثم إليك، اعلم يا اخي أن لي أستاذًا وأنا مملوكه، وكل من يشتريني اشترط عليه شرطًا إما أن أخدمه بالليل أو بالنهار، فإن اختار خدمة النهار، كانت خدمة الليل لربي، وان اختار خدمة الليل كانت خدمة النهار لربي، وهذا سيدي قد اختار لي خدمة الليل أن أكون وقادًا في هذا الاتون الحمام، فخشيت يا سيدي أن أرد عليك السلام، فتسألني عن شيء آخر فاشتغل معك في الكلام، فاقصر في خدمتي، ولم أكن قد نصحت سيدي في شغلي فيطالبني بين يدي رب العالمين، وأنا الساعة قد فرغت من خدمة مولاي الصغير، وجاءت نوبة مولاي الكبير القادر على كل شيء، وأنا اقصد بعض المساجد، واجتهد في العبادة إلى مولاي إلى وقت العشاء، وأتي إلى شغلي كما ترى.

فقال له إبراهيم: إنك لعبد صالح، ولم لا تدع الله تعالى أن يعتقك من رق العبودية ويريحك من خدمة الخلق وتتوجه إلى الحق، وتتفرغ لخدمته بالليل والنهار، فقال له: يا سيدي حسرتي على ذلك، ولكني سألت الله حاجة منذ ثلاث سنين وما قضيت، وإن استحي أن أساله غيرها، فقال له إبراهيم بن أدهم: وما هي حاجتك الذي سألت الله فيها؟ قال له: يا هذا سمعت أن لله تعالى وليًا من أوليائه، عبدًا صالحًا يسمى إبراهيم بن أدهم، ترك ملك خرسان وخرج منه هاربًا إلى الله، وقد زهد في هذه الدنيا الفانية وطلب ملك الآخرة، وقد سألت الله تعالى أن يجمع شملي به قبل موتي، فإن من اجتمع بعبد صالح في عمره يومًا أو ليلة غفر الله له ذنوبه، وما تيسر لي الاجتماع به أبدًا، وأنا على هذا الحال، فقال له إبراهيم: كأنما جررت برجلي البارحة إلا من أجلك، فأبشر، فقد قضيت حاجتك، وأنا إبراهيم بن أدهم.

فلما سمع العبد هذا الكلام شكر الله ثم قال: سبحان جابر قلوب عباده المنكسرة، ثم أقبل على يدي إبراهيم ورجليه يقبلها، وقال يا سيدي: قبلت الأولى وأنا أرجوا ببركتك أن تقضي الأخرى، ولعلك يا سيدي أن تتصدق علي وتمشي معي إلى بيت أستاذي، لأنه كان كلما سمعني اشتهي من ربي رؤية إبراهيم فيقول لي: ومن تكون أنت حتى يأتيك السلطان إبراهيم، فأقول: إن الله قادر على ذلك، فيقول: إن جمع الله شملك به، وتنظره عيني، فأنت حر لوجه الله تعالى، فعن إذنك امضي إليه وأعرفه بك، فقال له إبراهيم: ولعل إمام المسجد ما طردني إلا لأجلك، وهيجني البارحة، قم إلى أستاذك وأخبره بحالك.

قال: فمضى العبد إلى دار أستاذه فرحًا مسرورًا بما قد أنعم الله عليه وقبل دعاه، فلما رآه سيده استبشر وقال: ما شأنك؟ قال: يا سيدي إن إبراهيم ابن أدهم قد أتى إلينا، وهو مقيم عندنا في الأتون، فلما سمع أستاذه منه هذه البشارة سُر بذلك وسارع إلى نحو إبراهيم وقبل يديه ورجليه، فقال له إبراهيم عند ذلك: إن لي إليك حاجة، قال: وما هي يا سيدي؟، قال: أن تعتق غلامك حتى يتفرغ لخدمة مولاه، قال: يا مولاي أفعل ذلك بشرط أن تسير معي إلى منزلي وتشرفني ولو ليلة واحدة، واعتق الغلام على يديك اكراما لوجهك، قال: فأجابه إبراهيم إلى ذلك ومضى معه إلى منزله، وأكرمه غاية الإكرام وأعتق الغلام لأجله وأتى بالشهود وكتب اعتاقه لقدوم إبراهيم ابن أدهم، وبات عندهم إلى الصباح.

وعلى هذه الحكاية قال عبد الواحد بن زيد[17]: اشتريت غلامًا على شرط أن لا يخدمني بالليل، فكنت إذا جن الليل اطلبه فلا أجده، وأرى الأبواب مقفلة، فلما أصبحنا أعطاني درهمًا صحيحًا منقوشًا عليه سورة الإخلاص، فقلت له: من أين لك هذا؟، فقال: يا سيدي لك علي كل يوم درهم مثل هذا على ألا تطالبني في عمل الليل، وكان يغيب كل ليلة بهذا الدرهم، فلما كان بعد أيام جاءني قوم، فقالوا لي: يا أبا سعيد بع لنا هذا الغلام فإنه نباش، قال: فغمني ذلك، فقلت لهم: ارجعوا فإني احفظه هذه الليلة، فلما

---

[17] هو عبد الواحد بن زيد الزَّاهِدُ القُدْوَةُ شَيْخُ العُبَّادِ أبي عُبَيْدَةَ البَصْرِيُّ. حَدَّثَ عَنِ: الحَسَنِ، وَعَطَاءِ بنِ أَبِي رَبَاحٍ، وعبد الله بن راشد، وعبادة ابن نُسَيٍّ، وَعِدَّةٍ. وَعَنْهُ: مُحَمَّدُ بنُ السَّمَّاكِ، وَوَكِيْعٌ، وَزَيْدُ بنُ الحُبَابِ، وَأبي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيُّ، وَمُسْلِمُ بنُ إِبْرَاهِيْمَ، وَآخَرُوْنَ. (انظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ج7، ص178).

كان بعد العتمة وهمَّ بالخروج، فأشار إلى الباب البراني، فانفتح، ثم أشار إليه فانغلق، ثم قصد الثاني ففعل مثل ذلك، ثم قصد الثالث ففعل مثل ذلك، وأنا انظر إليه، ثم خرج فخرجت خلفه، حتى خرج إلى أرض منسية، فنزع ما كان عليه من الثياب، ولبس مسحاً من الصوف، ثم صلى إلى طلوع الفجر، ثم رفع يديه وقال: هات أجرتي لسيدي الصغير، فوقع له درهمًا من الهوى، فأخذه وجعله في جيبه، قال: فتحيرت من حاله، ونمت بعد ذلك فلم أشعر.

ثم انتبهت فلم أراه، فقمت إلى عين ماء هناك فتوضأت وصليت ركعتين واستغفرت الله مما خطر في بالي ونويت أن اعتقه، ثم مشيت إلى الماء وما وصلت إلى موضع عامر، فانصرفت حزينًا ولم أكن أعرف تلك الأرض، وإذا أنا بفارس واقف على رأسي، فقال لي: يا عبد الواحد ما قعودك ههنا؟ فقلت: من كذا وكذا، قال لي: أتدري كم بينك وبين أهلك، قلت: لا، قال: مسيرة سنتين للمجد المسافر الراكب، فلا تبرح من هذا المكان، فإنه يأتيك الغلام، قال: فلما جن الليل، وإذا أنا بالغلام ومعه طبق وعليه من كل الطعام، فقال لي: كل يا سيدي ولا تعد إلى مثلها مرة أخرى، قال: فأكلت، وقام يصلي إلى الفجر، ثم أخذ بيدي وهو يكلمني بكلام لا أفهمه، وخطا خطوتين، وقال: أليس انك يا سيدي نويت أن تعتقني، قلت: نعم، قال: فاعتقني وأنت مأجور، وأخذ حجرًا وأعطاني إياها، فاعتقته وإذا بالحجر وقد صارت ذهبًا، فرجعت إلى بيتي متحيرًا على مفارقته، فأقبل القوم عندي، وقالوا: ما فعلت بالنباش؟، فقلت لهم: ذاك نباش النور لا نباش القبور، قالوا: كيف ذلك؟، فأخبرتهم بحاله، فبكوا وقالوا: تُبنا إلى الله، ورجعوا متحيرين.

وقلت في ذلك:

أوقفني حبك فمن يزيد * في موقف البيع وذل العبيد

قد حضر البائع واشترى * مولاي عبدك موقوف فما تريد

وقال بعضهم:

ما للعباد إذا ضاقت مذاهبهم * وأعوذ الصبر غير الله مولانا

من كاشف الضر عن أهل البلاء إذا * تحير الطب غير الله مولانا

من يقبل التوبة ممن جاء معتذرا * بعد الذي كان غير الله مولانا

ولنرجع إلى ما كنا بصدده، قال مصنفه رحمه الله تعالى: مما وجدنا في كتاب درويش حسن الرومي، هو أنه لما حصلت له العناية الإلهية والمواهب الربانية خرج من مدينة أنطاكية، وقصد في سفره البرية، ولا يخالط أحدًا من البشر، فلما أن فارق المدينة وغاب عن البلد فأتى إليه ذلك الأسد، فركبه ولم يصحب أحدًا فسار به ونية إبراهيم مدينة الشام، فساقه رب العباد إلى أن وصل إلى مدينة بغداد، فقال في نفسه: بلغت المراد، وكان في ذلك الوقت في ذلك البلد شيخ عزيز، صاحب كشف وتمييز، فأظهره الله علي سريرته وصول إبراهيم بن أدهم، وكان عند ذلك الشيخ مريد معتبر، فأمره الشيخ بأن يقف على باب المدينة وقت السحر، وأوصاه بأن أول رجل يلقاه دخل باب المدينة، أن يضربه على عنقه ثلاث ضربات ولا يزيد، فخرج ذلك المريد ووقف خارج الباب، وإذا بإبراهيم استبق الباب، فوافى إليه ذلك المريد، وصفعه على عنقه ثلاث مرات لا يزيد، فالتفت إليه إبراهيم، وقال له: يا درويش هذا فعل أهل بلدكم في الغرباء، فلم يثني عليه ومضى ذلك المريد، ولم يتلفت إليه، حتى وصل عند الشيخ وأخبره بما وقع في حق إبراهيم وما صدر، قال لمن عنده من الفقراء والنقباء والمريدين بأن يستقبلوا إبراهيم، فساروا ولاقوه في الوقت والحين، فلما أن وصل إبراهيم إلى خارج الزاوية، بادر الشيخ إلى إبراهيم وتلقاه وضمه إلى صدره وقبل ما بين عينيه، فقال ذلك الشيخ: يا إبراهيم الفقر لباس من نار، أما ترجع إلى الملك والتخت وتريح نفسك من هذا التعب، فقال إبراهيم: من ترك شيئًا لم يكن له فيه الرجوع، وقال هذه الأبيات:

لا زلت أولع في الهوى متعرضًا * حتى بُليتُ بحلوه وبمره

وشربت كأس صروفه متجرعًا * وذللت فيه لعبده ولحره

من لم يذق حلو الغرام ومره * لم يدر سهل طريقه من وعره

نذر الزمان بأن يفرق بيننا * والآن قد وافا الزمان بنذره

حكم الإله فلا مرد لحكمه * من ذا يعاند حاكمًا في حكمه

فقال إبراهيم إلى ذلك الشيخ: دع عنك هذا الكلام وإن كان لك حاجة أو خدمة حتى نسارع بها على الأقدام، فعندها قصد الشيخ مع إبراهيم الامتحان، وقال له: خذ هذا الكشكول واطلب شيئًا لهذه الفقراء على بركة الله الرحمن، فأخذ إبراهيم ذلك الإناء وسار يطوف به الأزقة والأمكنة، فلم يحصل له شيء من الأطعمة، وقد قطع الإياس من الناس، فأراد الرجعة وقد وقع في كشكوله تمرة لا غيره، وخاطبه: يا فقير، الحر يقنع بالقليل، وأخذ إبراهيم تلك التمرة وكف السؤال ورجع إلى الشيخ في الحال، فقال إبراهيم: يا أستاذ قد أنعموا علينا بهذه التمرة رجال بغداد، فقال الشيخ: يا إبراهيم أما تعلم أن أخينا الخضر عليه السلام قد أهدى إليك هذه التمرة لأن فيها حكمة عديدة، فأمر الشيخ بإحضار أربعين إناء واملاها من الماء ووضعوا تلك التمرة في الطاسات، ودرات منها على سائر القوم الكاسات، فأروت ذلك الجمع الكثير والجم الفقير، ولم ينقص منها إلى قليل، وقد علم ذلك الشيخ وسائر الفقراء إنما هي ببركة إبراهيم.

فعندها قال الشيخ: يا إبراهيم لا يطيب على خاطرنا بأن تكون في خدمة هؤلاء الفقراء، وإنما تصلح شيخنا ومرشدًا في هذا العصر، فقال: زر شيخ السادات الزواهر الإمام محمد الباقر، فلما أن سمع إبراهيم هذا الكلام، قام على الأقدام، وعزم على التوجه نحو الإمام، فجهز الشيخ صحبته المريدين في

الوقت والحين، إلى حضرة السيد الجليل، فعلم الإمام بقدوم إبراهيم فأمر كل من كان عنده إلى ملاقاة إبراهيم.

فلما أن وصل إبراهيم إلى حضرة الإمام، تلقاه بالإعزاز والإكرام، وخاطبه: مرحبًا بك يا سلطان بلخ وخرسان والسبع أقاليم، وكيف تركت تلك الملك العظيم، والملابس الفاخرة، والديباج والحرير، ورضيت بالجلوس على الحصير بعد التخت والسرير، وتركت الطيلسان، وقنعت بأكل خبز الشعير، وخرجت عن الأولاد والقليل والكثير، فعلم إبراهيم رضي الله عنه أنها امتحانه له من حضرة الإمام، فأجابه: يا امام أما علمت ما قال جدك سيد المرسلين وإمام المتقين مخبراً عن الملك العلام في محكم القرآن ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ * وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 25– 26]، والدنيا ليست بدار قرار، كما قال بعضهم في ذلك شعرا فقال:

طلق الدنيا طلاقًا بالدوام * والزم التقوى وحاذر تحترم

ليس في الدنيا نعيم دائم * لا ولا ثم سرور مستدم

عاش من قد فر منها هاربًا * ودنى من ربه بارئ النسم

هو مولانا جلَّ عن كيف وأين وعلا * عن حادثات الدهر أيضًا والعدم

وتعالى عن شبيهٍ ونظيرٍ * وحلولٍ وحدوثٍ وَرِقَم

يعلم السر وأخفى ربنا * ودبيب النمل يبصر في الظلم

عالم متكلم سبحانه * بكلام ليس يشبه للكلم

قادر مقتدر وهو قدير * وقديم ومعيد للرمم

ويرى الخير والشر معاً * فتعالى ليس يرضى للأمم

فافهم القول ودع * عنك هذا كله عما صرم

أرسل الهادي إلينا ناصحًا * فأتانا بعلوم وحكم

فضله فاق البرايا كلها * فلذا امنا به خير الأمم

سبحت في كفه صم الحصا * من هجير الحر ظللته الغمام

حين تنام العين منه يا فتى * قلبه حقا يقينا لم ينم

يا رسول الله يا خير الوري * يا شفيع الخلق يا خير الأمم

أنت ذخري وملاذي سيدي * ومن الله عليك ألف سلم

فأجاب الإمام بهذه الأبيات:

مرحبا بابن أدهم مرحبا * فلك الاقدام أيضا والقدم

أنت للزهاد سلطانا كما * صرت في العبّاد فردًا كالعلم

مرحبًا بمن أتانا راغبًا * من خراسان وبلخ والعجم

سر بعز لا تخف من لائم * أنت مأمون فلا تخش الملام

يا أبا إسحاق أنت حبيب لنا * فنعم الحبيب أنت بلا ملام

معشر الزهاد طيبوا واغنموا * لا تخافوا أنتم أهل النعم

بابن أدهم اقتدوا في زهدكم * عنه زهدكم خدوا فهو الإمام

ابن أدهم نال فضلًا وعلى * عليه من مولاه التحية والسلام

فلما أن تحقق الإمام الباقر من صدق نيته وزهده في هذا الملك الفاني، وتوجهه إلى جناب ربه فقربه إليه وأحسن إليه، وكان عند الإمام رضي الله عنه من الرجال الخواص ست إبراهيمات، الواحد إبراهيم الرومي، وإبراهيم الحطاب، وإبراهيم الخواص، وإبراهيم اللاري، وإبراهيم أبو جوكلان، وإبراهيم ابن بشار، وكلهم من السادات الأخيار، قال الإمام رضي الله عنه: ما يكون اسم هذا المريد؟ قالوا: يكون اسمه

إبراهيم الجديد، فقال الإمام: يا ابن ادهم كيف ترضي لنفسك هذا الهّم، فقال له: دع عنك هذا الخطاب، واجعلني خادمًا للفقراء، انقل لهم الأحطاب.

فعندها قام إبراهيم بما اختاره لنفسه ثلاث سنين، وفي رواية اثني عشر سنة، ينقل على عاتقه الحطب من الجبال بالحبال، حتى أثر الحبل في عنقه، وصارت الديدان تقرض من لحمه، فصبر على ذلك الدود كصبر نبي الله أيوب، ولم يزل صابرًا، وعلى ما خصه الله تعالى به شاكرًا، ولم يشتكي ما ناله إلى أحد، فهذا حال أولياء الله تعالى، قد ذهب عنهم الخوف في الدنيا والآخرة.

وقلت لله در القائل حسب حاله:

فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه * وأرواحهم في الحجب نحو العلا تسري

ثم إنه جلس ذات يوم في الشمس لينظر جراحاته وما قد ناله، فتساقطت الديدان إلى الأرض من جسده، فأخذهم ووضعهم على بدنه، وإذا الإمام مارًا عليه من خلفه ولم يشعر به، فقال: السلام عليك يا إبراهيم، ما قعادك في المكان وما هذه الديدان؟ فقال: إن الله تعالى جعل قوتهم من جسدي، افعل بهم كل وقت كما ترى، فعند ذلك بكى الإمام بكاء شديد ما عليه مزيد، وقال: يا إبراهيم ما هذا التعب والعناء، وما اهانتك إلا من أجلنا، ثم إن الإمام أخذ تمرة بيده المباركة ولاكها بفمه ووضعها على جسده، فتساقطت الديدان من بدنه، وبرئ من ساعته.

ثم أخذه بيده إلى حجرته واجلسه إلى جانبه وأخذ يستعطف خاطره ولا يؤاخذه بما قصر في حقه، وأن يجعله في حل مما كلفه به، وما ناله من المشقة في خدمته، فقال إبراهيم: يا سيدي أنت في حل من شغلي وخدمتي لك، فقال له الإمام: يا إبراهيم لم يبق لنا شغل في هذا المكان، وقد عزمنا على زيارة قبر جدنا المصطفى عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، وعلى الطواف ببيت الله الحرام، فهذا بقي شغلنا والسلام.

وكان في ذلك العصر الإمام رضي الله عنه هو الخليفة والسلطان، فأعلم الجند والغلمان، وأمر بتجهيز الأحمال والجمال وأعلمهم بالرحيل بعد ثلاثة أيام، فأمر الإمام إلى ذلك الست إبراهيمات بأن يسيروا إلى إبراهيم ويشاوروه في المسير وكيف يشير، فجاءوا ذلك السادات الأخيار إلى عند إبراهيم وقالوا له: إن الإمام أرسلنا إليك وقد عول أمر السير عليك، وبعد ثلاثة أيام يكون السفر وقت السحر، فقال لهم إبراهيم: يا إخوان الجند والعساكر والأثقال يسلكوا الطريق مع الغلمان، ونحن نحمل شيخنا على أظهرنا ونسير به على بركة الرحمن.

فلما سمعوا من إبراهيم هذا الكلام، أتوا إلى الإمام، فقال الإمام: ما شأنكم وما الذي أشار به عليكم؟ فقالوا له: يا سيدنا اختل عقله وأعرضوا عليه ذلك الخطاب، فقال لهم: قد نطق بالصواب، أما علمتم يا مساكين كيف خروجه عن ملكه وولده، وترك سريره وتخته، وارتحاله عن وطنه ومهاجرته، لأجل جناب ربه، وتفرغه عن الكثير والقليل، وأنتم يا مساكين كل منكم لم يكن يملك القطمير فقوموا بالذي يشير به فالاعتماد عليه.

فتوجه الإمام وقدامه الست إبراهيمات حتى وصلوا إلى قرب المكان، فعلم إبراهيم بوصول الإمام إليه، فسارع وقبل يديه ورجليه، فأخذ الإمام يقبل رأسه وعينه، واعرض على إبراهيم الكلام، فقال لهم إبراهيم: توكلوا على الملك العليم العلام، وأمر الجند والخدام بأن يتوجهوا في الأحمال، ونحن نرجو من الله التوفيق.

فأمر الإمام العسكر والخيل والبغال والجمال بالمسير، وبقى الإمام وابن أدهم والست إبراهيمات في ذلك المكان، فقام إبراهيم بن أدهم وتقدم وقال للإمام: يا سيدي اركب على ظهري على بركة الله اللطيف، وأنتم يا سادة الكرام تمسكوا واعتصموا بحبل الله الكريم المنان على بركة الله تعالى، قال: فركب الإمام على ظهر إبراهيم وتمسكوا بيده اليمين ذلك الست أخيار وخطا بهم في الهوى خطوتين في أقل من طرفة عين،

وقال لهم: افتحوا عيونكم أيها السادة الكرام، وشاهدوا الركن والمقام، ففتحوا عيونهم وشاهدوا الركن والمقام، ونزل الإمام محمد الباقر رضي الله عنه عن ظهر بن أدهم وقبل ما بين عينيه، وأقبلت الست إبراهيمات يقبلوا يديه ورجليه، فدعا لهم وله الإمام بالتوفيق وأن الله يسلك به إلى أحسن طريق.

فبعد مدة أيام وصل عسكر الإمام مع الأحمال والجمال فحجوا وطافوا واعتمروا وقصروا وقضوا ما عليهم من المناسك وشمروا وزاروا قبر سيد الكونين والثقلين وابن الذبيحين وجد الحسنين الأحسنين رضي الله تعالى عنهما وعن بقية أصحابه الكرام أجمعين ولمن أسري به ليلة الإثنين وقربه مولاه إلى قاب قوسين محمد ﷺ.

فلما قضوا حجهم وقصدوا الرجعة إلى مواطنهم وطلبوا ذلك الست رجال من الإمام بأن يكونوا مع السلطان إبراهيم في خدمته لما شاهدوه من تلك الكرامات، فأذن لهم الإمام بالإقامة عند إبراهيم بن أدهم، وتوجه الإمام محمد الباقر إلى مقره، واستقر إبراهيم والست إبراهيمات الأخيار في مكة المشرفة يعبدون الله آناء الليل وأطراف النهار، ويأتي كل يوم ابن أدهم بحزمة حطب ويبيعها بدرهمين يتصدق بدرهم وينفق الآخر في قوته ولم يتناول من أحد شيئًا، وهذا ما انتهى إلينا من كلام حسن الرومي.

وقلت هنا هذه الأبيات:

أضحى ابن أدهم راغبًا ومحبا * فنال محبة ودنا قربا

وفر إليه يرجوا منه وصلا * وملكا قد على أيضا وصحبا

وهام بحبه وسمى إليه * فخاطبه لسان الحال رحبا

وصار إمام أهل الود حقا * للأحباب أيضًا صار قطبا

فما مثل ابن أدهم في تقاه * فحسبك منه حسا ثم حسبا

تفرد بالزهادة من دونه * وحاز لهم للسبق قصبا

تبارك من براه ومن حباه * ومن بالصدق قد أعطاه قلبا

فقلت لله دره رضي الله عنه ما أشرح كلامه على القلوب، وما أنفعه في مصادقة المطلوب، حيث مدحهم الله تعالى في كتابه، وأثنى عليهم في خطابه، فقال تعالى وهو أصدق القائلين: ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: 37].

ومما نقل عنه رضي الله عنه في تواضعه وأدبه وتعظيم الله تعالى في خلواته وجلواته، أنه قال: مددت يومًا رجلي في الخلوة مرة، فسمعت قائلا يقول: يا إبراهيم من جالس الملوك يتأدب بآدابهم، فما مددتها بعد ذلك أبدًا.

فانظر أيها الأخ إلى آداب المحبين مع الحبيب ما ألطفه وأهناه وأمراه على القلوب وأشهاه فإن الله تبارك وتعالى أدب أولياءه بما أدب به أنبياءه، حيث قال ﷺ: "أدبني رَبِّي فَأَحْسن تأديبي"[18]، فنسأل الله تعالى التوفيق إلى حسن الطريق.

ومما نقل عنه لما ذهب نحو الشام وقصد زيارة القدس الشريف وإبراهيم الخليل، فزار ذلك المقام وسار نحو بيت الله الحرام، قال حجة الإسلام الغزالي: لما أراد ابن أدهم أن يدخل البادية وأشجانه عليه بادية، انقطع عن الرفيق والطريق سبعة أيام لم يتناول شربة ماء ولا طعام، فغار منه الشيطان وتمثل له في صورة شيخ بيده ركوة ماء وعكاز كأنه من عرب الحجاز، وقال له: يا إبراهيم إن هذه بادية وبرية مهلكة وليس معك زاد ولا رفيق، فأقسم إبراهيم على نفسه بأن يدخلها على تجريده، وألا يقطعها حتى يصلي تحت كل ميل من أميالها ألف ركعة، فأقام في البادية بما عزم عليه اثني عشر سنة حتى وافى إليه الرشيد، لأنه كان

---

[18] انظر: الجامع الصغير وزيادته للجلال السيوطي ص262؛ الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع لابن حجر العسقلاني ص97؛ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي ج11، ص406.

في بعض تلك السنين، فرآه تحت ميل يصلي، فقيل له: هذا إبراهيم بن أدهم، فأتاه الرشيد، وقال له: كيف حال تجردك يا أبا إسحاق؟ فقال له:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا * فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

فطوبى لعبد آثر الله ربه * وجاد بدنياه لما يتوقع

وقلت في هذا المعنى:

ما لنفسي تحيد عن طاعة الله ما لها * ما لها تألف الذنوب مالها

هي نفس مسيئة والمعاصي فعالها * كلما قلت أقبلت واستقامت بدالها

فَصْلٌ فِي أَخْبَارِهِ لَمَا أَنْ تَرَكَ المُلكَ والسَّرِيرَ وزَهدَ فِي القَلِيلِ وَالكَثِيرِ

لما أن ترك إبراهيم الملك والسرير، وزهد في القليل والكثير، ترك زوجته حاملة وتوجه إلى جناب ربه، فولدت له مولود وسمته محمود، وقيل إسحاق، وقيل أدهم، فلما أن كبر ونشأ، قال لوالدته: يا أماه أما كان لي أب أنتسب إليه ويستبشر بقدومي عليه؟ فقالت له أمه: والله يا ولدي لقد كان لك أب وأي أب، فقال لها: وأين ذهب؟ قالت له: في طلب ربه وزهد في هذه الدار ورغب في دار القرار، فقال لها: يا أماه أسألك بالله العظيم وبطلعة نبيه الكريم ألا تشغليني بهذا الملك ودعيني أطلب ما طلب أبي، فقالت له: يا ولدي بالله عليك لا تحرمني لذيذ عناقك، ولا تجرعني كأس فراقك، قال: فسكت عنها مدة من الزمان، وأقام معها إلى أن قضت نحبها وصارت إلى ربها وماتت وعن عينه غابت، فحصل له ما حصل لأبيه من الوله والشوق والغرام والزفرات والهيام فأنشأ يقول:

إذا جّدَ بي وجدي وزاد غرامي * فيقلقني شوقي لهم وهيامي

أسائل من ألقى ولست بلا يم * ترى أي أرض خيموا وأقام

هم حللوا التفريق وهو حرام * وعلى الدار بعد الراحلين سلام

ثم ذهب حافيا، وعن أعين الناس خافيا، يبيت في الزوايا والمساجد، وهو لربه راكع وساجد، يلتقط ما تساقط من المزابل من اللباب، ولا يسأل اللقمة من باب إلى باب، إلى أن أتى مكة المشرفة، فطاف بها وأجرى على خده بالبكاء دموعا حزنًا على فراق والده الذي لم يقع له على خبر، ولا اطَّلع له على أثر، فجلس متفكرًا من حر ناره وبعاده وأنشد يقول من جده ووجده:

ذكر الغريب دياره فارتاحا * فبكى وقد شط المزار وناحا

وكأنه لما تشتت شمله * قبضت يد الأقدار منه جناحا

قد كان مصباحا لأهل وداده * لا يعرفون بقربه الاتراحا

رحلوا وقد خلت الربوع وغلقوا * باب السرور وضيعوا المفتاحا

اخلى البعاد ديارهم من بعدهم * وطفا التفريق ذلك المصباحا

قال: فبينما هو متفكرٌ في غربته، وعدم وجود صحبته، وإذا بأبيه إبراهيم يطوف بالبيت حول الكعبة وحوله جماعة من الفقراء، وهم يقولون: يا سيدنا، أوصنا بما ينفعنا، فقال لهم: إياكم النظر إلى المردان فإن فيهم شهوة من شهوات العذارى، واتقوا الله ولا تتبعوا النظرة، النظرة تودي صاحبها إلى الندامة والحسرة.

واتفق في تلك الساعة أن هذا الولد أتى ومعه عشرون مملوكًا فدخل يطوف حول الكعبة ودموعه جارية على خده، إذ وقعت عين إبراهيم على ولده، فتحرك منه نار الكبد، فجعل إبراهيم يطيل النظر فيه، فتعجب بعض المريدين من إبراهيم وطول النظر إلى هذا الشاب الجميل في هذا الحين، ففطن بهم إبراهيم وقال في نفسه: لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، وخطر ببال ذلك الحاضرين أنها غفلة وقعت من إبراهيم، وقال: قد نهانا عن المردان وهو ينظر إليهم.

فبينما هم متفكرين في هذه الأسرار إذ التفت إبراهيم إلى ابن بشار وقال له: أزل عنك هذا المقت، إياك والدخول في النار، أما سمعت كلام الملك القهار ﴿إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾ [الحجرات: 12]، قال ابن بشار: يا مولاي أستغفر الله مما خطر ببالي، ولعلك أن تصفح وتعفو عن زلتي، فعند ذلك قال لهم إبراهيم: يا إخوان لعلكم أسئتم لي سوء الظن بالنظر إلى هذا الغلام، قالوا: كان ذلك منا يا سيدنا، فقال إبراهيم بقلب سليم: يا ابن بشار اذهب إلى هذا الغلام واسأله من أين أتى؟ ومن أي البلاد؟ وابن من هو؟ وأصدق لنا في المقال، فقام ابن بشار وأتى إلى الغلام. قال ابن بشار: ولما أن قربت من ذلك الشاب رأيته ينشد ويقول:

أما آن أن يقضي لنا بالتواصل * وتنظر عيني من أحب مواصل

ويرجع دهرا قد تقضى بقربهم * ويظهر حزنا قد كوى للمفاصل

أقول إذا فكرت في زمن مضى * وهبت نسيمات الصبا والشمائل

يعز علينا أن يسلم بعضنا * على بعض بالكتب أو بالرسائل

ولكن تصاريف الزمان عجيبة * فما فاز بالدنيا عليك بطائل

قال ابن بشار: لما أتيت إلى ذلك الغلام ورأيته ورآني فبكى ذلك الشاب بكاء شديدا إلى أن غشي عليه، فتركه في غشوته بعدما استخبرت عنه عشيرته، وقد تحيرت في مكابدته وصبابته، فلما أفاق تقدمت إليه وسلمت عليه فرد علي السلام، وخصني بالتحية والإكرام، وقال لي: يا هذا أرى أعلام القبول عليك لائحة، ونسيمات القرب منك فائحة، وقلبي الحزين المحترق بنار الالتهاب، يخبرني بأنك رسول من الأحباب.

قال ابن بشار: فأتيت إلى أبيه وقبلت يديه ورجليه، فقال لي: يا ابن بشار ما قال لك الغلام وما به أشار؟ قلت: يا سيدي أما تخاف أن يأخذ الله منك حق هذا الغلام، فقال: يا ابن بشار عليك بالاقتصار، شيئا تركناه لله تعالى لا نعود إليه أبدا، فقال إبراهيم: يا ابن بشار إن هذا ولدي وقطعة من كبدي، تركت أمه حاملة به، وفي رواية: يرضع من منذ عشرين سنة، فلما رأيته عرفته بباطن سري بعد أن استكمل عشرين سنة، وقد جاء يتصدق على الفقراء والمساكين، وأسأل الله أن يجتمع بأبيه في الدنيا قبل الآخرة.

فقال له الحاضرون: بالله عليك يا سيدنا وبجاه طلعة النبي الكريم محمد سيد الأولين والأخرين، الا ما قمت بللت شوق هذا الشاب الكئيب الحزين الغريب، وعن إذنك نأتي إليه ونعلمه بك وينجلي كربه وكربك، فقال لهم: يا إخواني إني مفتكر في شأن حالي وساعتي، أما لسان الشريعة فيقول: صل ولدك، وأما لسان الحقيقة فيقول: من ترك لله شيئا فلا يرجع فيه أبدا، ثم أنشد يقول:

هربت إليك مولى العالمين * واخليت الخلائق أجمعين

وجئت إليك قاصد يا إلهي * فأنت السُؤل والحصن الحصين

اتحت بباب عفوك يا آلهى * لترحمني بعفوك يا معين

قال: فنهض إبراهيم إليه وهو منكر بالقدوم عليه، فلما رآه الشاب مقبلا عليه، صاح وناح وبسره باح وتوجع، وأنشد لسان حاله قائلا:

لو وقف الركب بواد الأراك * سألتهم عنك ومن لي بذاك

وكنت أستصحبهم ولو ساعة * لأن عيني تشتهي أن تراك

يا مالك القلب إلى كم وكم * تجفوا وقد قرح قلبي جفاك

والله ما خنت عهود الهوى * يومًا ولا اخترت حبيبًا سواك

قال: ثم تقدم وسلم عليه، فرد الغلام عليه السلام، فقال له إبراهيم: يا فتى من أي البلاد أنت؟ ومن أي البلاد أتيت؟ قال: من بلاد العجم، وفي مدينة بلخ نشأت، فقال ابن أدهم: من أنت من مدينة بلخ؟ فقال: لا أدري إلا أن أمي أخبرتني وقالت لي: كان لك والد اسمه إبراهيم بن أدهم، وكان سلطانًا على بلخ وخرسان العجم، فلما سمعت باسمه ووقفت على تركه الملك وزهده، خرجت في طلبه راجيًا من الله أن يجمع شملي به، وقد تناثرت دموعه على خديه.

فعند ذلك طاشت عقولنا واحترقت أكبادنا مما شاهدناه من ذلك الشاب واحتراقه على لقاء والده، فلم يكن له بعد ذلك قرار، حتى أقبل الوالد على الولد، وقد طفيت منهما حرارة الكبد، فأخذه إبراهيم وهو منكر بالقدوم عليه، وأتى به إلى الخلوة وهو مستغرق مما شاهد ورأى، فلما استقر بهم الجلوس رفع إبراهيم رأسه إلى السماء ورمق بعينيه وبسط بالدعاء كفيه وقال: الهي إنك سيدي ومولاي وهذا ولدي

وقطعة من كبدي وقد جاء في طلبي وأنا لا أستطيع أن أتفرغ إليه عن شغلي بك، اللهم لا تشغلني بغيرك، وانت أعلم بمصالح عبادك، ولا يسع فؤادي حب غيرك، اللهم اقبضه إليك.

قال ابن بشار: فلما لبث الغلام غير ثلاثة أيام، وقيل سبعة أيام، وقيل في ساعته، حتى سقى كأس الحمام، وقضى نحبه، ولحق بربه، فقام وغسله إبراهيم بيده وكفنه بيده في قطعة كساء خشنة رثة، كلما ربط من عند رأسه انحلت من عند رجليه، ودفنه في باب شبيكه، وقبره إلى الآن مشهور رحمة الله عليه، وإبراهيم يقول: يا قرة العين ولدي يجمع الله بيني وبينك في درا كرامته، وواراه التراب تحت أطباق الثرى بعد أن صلى عليه، بجماعة من الفقراء.

قال: فسمع مناديا ينادي يسمع صوته ولا يرى جسمه وشخصه: يا من ترك الملك والثياب الفاخرة، أبشر فقد حصلت لك الدنيا والآخرة، ثم طاف بعد ذلك طواف الوداع وقصد أصحابه للاجتماع.

ومما نقل عنه من إجابة دعائه واستماع الأسد إلى اشاراته، قال بعضهم: كنا مع إبراهيم في بعض أسفاره، وإذا بالناس مجتمعين إليه فأتوا إليه، وقالوا له: يا إبراهيم إن الأسد وقف على طريقنا وقد انجفلت القافلة منه، فأتى إبراهيم إلى الأسد وناداه: يا أبا الحارث إن كنت أمرت فينا بشيء فامضي إلى ما أمرت به، وإن لم تؤمر فتنح عن الطريق، فأدبر الأسد وهو يهمهم ومضت القافلة في طريقها، فقال عند ذلك إبراهيم: وما على أحدكم إذا أصبح وأمسى أن يقول: اللهم احرسنا بعينك التي لا تنام، واكفنا بركنك الذي لا يرام، وارحمنا بقدرتك علينا أنت ثقتنا ورجاءنا.

وعن بعضهم مما كان إبراهيم عليه من الزهد في هذه الدنيا، ما نقله عنه الصدر المبجل الشيخ أبو مطيع[19] في كتابه المسمى بـ "اللؤلؤيات" عن بعض النساك قال: أتيت إبراهيم بن أدهم فوجدته قد صلى العشاء، فجعلت أرقبه خلف نفسه في عباءة، ثم رمى بجنبه إلى الأرض، فلم ينقلب من جنب إلى جنب الليل كله، حتى طلع الفجر، فأذن المؤذن فوثب قائمًا إلى الصلاة ولم يحدث وضوء، فقلت له: يرحمك الله قد نمت مضجعًا، فقال: كنت الليل كله جائلًا في رياض الجنة أحياناً، وفي أودية النار أحياناً فهل تنام في ذلك عيناي.

وقال أبو مطيع أيضا في كتابه المذكور: انه قد كانت عليه جبة من صوف قد ابيضت من القمل، فقيل له: منذ كم لبست هذه الجبة؟ فقال: منذ تسع سنين. وقيل له أيضا: لما لا تتخضب، فقال: إن الخطاب زينة، ونحن في مأتم.

وقيل إنه كان يحرس بستانًا فدخل إليه جندي وطلب منه شيء من الفاكهة فلم يعطه شيئا، فجعل يضرب رأسه ويقول: أضرب رأس طالما عصى الله تعالى، فلما عرفه الجندي جعل يعتذر إليه بعظيم الاعتذار، فقال له إبراهيم: الرأس الذي يحتاج إلى الاعتذار تركناه في بلخ.

قلت: قد كان ذلك وأمثاله عند إبراهيم معدودًا من النعم الذي يجب الشكر في مقابلتها، الآن في ذلك اختيار النفس على الرضى بما قدره الله تعالى وقضاه، وكان ذلك عنده أطيب من الماء الزلال على كبد الظمآن، وكان فيه راحة عظيمة، حتى قال رحمه الله تعالى: لو علم الملوك ما نحن عليه من الراحة، لقاتلونا بالسيوف عليه، وقال: إن أولياء الله ملوك الزمان، ملكوا النفوس، وأدبوها في طاعة الملك القدوس.

---

[19] هو مكحول بن الفضل الحَافِظُ الرَّحَّالُ الفَقِيْه، أبي مُطِيع النَّسَفِي، صَاحِب كِتَاب "اللُّؤلئيَاتِ" فِي الزُّهْد وَالآدَاب. رَوَى عَنْ: دَاوُدَ الظَّاهِرِيِّ، وَأَبِي عِيْسَى التِّرْمِذِيِّ، وَعَبْدُ الله بنُ أَحْمَدَ بنِ حَنْبَلٍ، وَمُحَمَّدُ بنُ أيوب بن الضُّرَيْس، وَمُطَيَّن، وَخَلْقٍ كَثِيْرٍ. رَوَى عَنْهُ: أَبي بَكْرٍ أَحْمَدُ بنُ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ، شَيْخُ لجَعْفَر المُسْتَغْفِرِيِّ. ذكَرَه المُسْتَغْفِرِيُّ فِي "تَارِيْخ نسف"، وَذكَرَ أَنَّ اسْمَه مُحَمَّدُ بنُ الفَضْلِ، وَمَكْحُوْلٌ لَقَبه، وَأَنَّهُ تُوُفِّيَ فِي صَفَرٍ سَنَة ثَمَانٍ عشرة وَثَلاَثمِائَةٍ (انظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ج15، ص33).

ومما نقل عنه أيضًا رضي الله تعالى عنه وأرضاه ونفعنا به في الدنيا والآخرة، أنه قال: كنا مع إبراهيم بن أدهم على ساحل البحر، فانتهينا إلى غوطة فيها حطب كثير يابس، فقلت له: يا إبراهيم لو أقمنا الليلة هنا وأوقدنا نارًا من هذا الحطب، فقال: افعلوا، فأوقدنا نارًا وكان معنا خبزًا كثيرًا فأكلنا، فقال واحد منا: لو كان لنا لحمًا نشويه على هذه النار، فقال إبراهيم رضي الله عنه: إن الله تعالى قادر على أن يطعمكموه.

قال: فبينما نحن كذلك نتحدث إذ بأسد يطرد غزالًا، فلما قرب منا وقع واندق عنقه، فقال إبراهيم لنا: دونكم فاذبحوه فقد أطعمكم الله، فبادرنا وذبحناه وقطعنا منه وشوينا من لحمه وأكلنا، والأسد واقف ينظر إلينا، وهذه من بعد كراماته رضي الله عنه وأرضاه، وجعل الجنة متقلبه ومثواه.

فَصْلٌ فِيمَا نُقِلَ عَنْهُ مِنْ حُسْنِ إِيثَارِهِ وَمُوَاسَاتِهِ

عن إبراهيم ابن بشار، أنه قال: كنت مع إبراهيم ابن أدهم رضي الله تعالى عنه في بعض أسفاره وليس معنا شيء نفطر عليه وليس لنا حيلة في شيء، فرآني مغتمًا، فقال لي: يا ابن بشار ماذا أنعم الله على الفقراء والمساكين من النعم والراحة في الدنيا والآخرة، ولا يسألهم الله عن زكاة ولا عن حج ولا عن صدقة ولا عن صلة رحم ولا عن مواساة، وإنما يسأل هؤلاء المساكين، يعني الأغنياء.

ثم قال: يا ابن بشار الأغنياء في الدنيا فقراء في الآخرة، لا تغتم ولا تحزن فرزق الله مضمون سيأتيك، نحن والله الملوك الأغنياء، فعجَّل لنا الراحة في الدنيا والآخرة، ولا نبالي على أي حال أصبحنا وأمسينا إذا أطعنا الله تعالى في السر والعلانية.

ثم قام إلى صلاته، وقمت أنا إلى صلاتي، فما لبثنا إلا ساعة وإذا نحن برجل قد جاءنا ومعه ثمانية أرغفة خبز وتمر كثير، فوضع ذلك بين أيدينا وقال: كلوا يرحمكم الله تعالى، وأنصرف، فسلم إبراهيم من صلاته، وقال لي: كل يا مغموم يا حزين، فمر بنا سائل، وقال: أطعموني شيئًا لوجه الله تعالى، فأعطاه إبراهيم ثلاثة أرغفة، وأعطاني ثلاثة وتمرًا، وأكل هو رغيفين، وقال: المواساة من أخلاق المؤمنين، وقلت في ذلك:

أحسن إذا أحسن الزمان * وصح منه لك الضمان

بادر بإحسانك الليالي * فليس من غرورها أمان

وقلت أيضًا:

أحسن من كل حسن * في كل وقت وزمن

صنعة معروفة * خالية من المنن

ومما نقل عنه بعضهم في محبة الله تعالى، قال الإمام اليافعي[20] رحمه الله في كتابه: قال إبراهيم: رأيت جبرائيل عليه السلام في المنام، وبيده قرطاسًا، فقلت له: ما تصنع به؟ فقال: أكتب أسماء المحبين، فقلت: اكتب تحتهم محب المحبين إبراهيم، فنودي يا جبريل اكتبه أولهم.

ومما نقل عنه في كلامه رضي الله عنه في التوبة، قال: إن أدمت النظر في مرآة التوبة، بان لك قبح المعصية، وقال في ذلك المعنى:

ذنوبي أخرستني عن جوابي * فما عذري غدا يوم الحساب

إذا نوديت قم للعرض واقرأ * وقد لاح الخطايا في الكتاب

فكم شبٌّ ينادي واشبابي * وكم شيخ ينوح على الشباب

وكم وجهٌ مليحٌ صار فحمًا * من التعذيب يا نوع العذاب

طعام من ضريع ليس يغني * شراب من حميم أم سراب

سرابيلٌ من القطران تكسي * فيبلى الجسم من كرب العذاب

فيا حنان يا منان عفوا * وجُدْ بالعتق من سوء الحساب

---

[20] هو عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان بن فلاح اليافعي الشافعي اليمني ثم المكي عفيف الدين أبو السعادات وأبو عبد الرحمن ولد قبل السبعمائة بسنتين أو ثلاث، مؤرخ، باحث، متصوف، من شافعية اليمن. نسبته إلى يافع من حمير. ومولده ومنشأه في عدن. حج سنة 712 هـ وعاد إلى اليمن وحبب الله إليه الخلوة والانقطاع والسياحة في الجبال وصحبة الفقراء والصوفية. وكان كثير العبادة والورع، منقطع القرين في الزهد، وافر الصلاح والعزلة، شديد الإيثار للفقراء، وكان عارفاً بالفقه والأصول وعلوم العربية، والفرائض والحساب، وغيرها من فنون العلم، وقد أثنى عليه كثير من العلماء والأدباء، منهم: الإمام بدر الدين حسن بن حبيب أديب حلب، وجمال الدين الإسنوي في «طبقاته» وغيرهما. حتى وافته المنية وتوفي في مكة المكرمة سنة 768 للهجرة. (انظر: الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر العسقلاني 3/ 18).

فَصْلٌ فِي ذِكْرِ الْكَرَامَاتِ الَّتِي أَظْهَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى عَلَى يَدَيْهِ

قال الشيخ الإمام العالم والعلامة قاضي القضاة تاج الدين السبكي تغمده الله تعالى برحمته ورضوانه وأسكنه فسيح جنانه في كتابه المسمى بـــ "الطبقات" عند كلامه عن مقامات الأولياء: إن إبراهيم بن أدهم جلس يومًا في طريق بيت المقدس تحت شجرة رمان، فقالت له الشجرة: أكرمني بأن تتناول مني شيئًا، فسميت من ذلك الوقت رمانة العابدين.

ومما جاء عنه في منع نفسه عن الشهوات في الدنيا ومجاهدته بها الامتثال لأمر الله المجيد، وهرب مما تواعده يوم الوعيد لمن اتبع الشهوات، قال تعالى: ﴿فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم: 59]، قال المفسرون: الغي واد في جهنم[21].

قال الإمام العالم العلامة عبد الله بن أسعد في كتابه المسمى بـــ "روض الرياحين في حكايات الصالحين" عن سفيان بن إبراهيم[22] قال: لقيت ابن أدهم بمكة المشرفة في سوق الليل عند مولد النبي ﷺ وهو يبكي في ناحية من الطريق، فسلمت عليه فرد علي السلام، فأقمت عنده وصليت عنده، وقلت له: ما هذا البكاء يا أبا إسحاق، قال: خير، فعاودته ثانيًا وثالثا، فلما أطلت عليه السؤال، قال لي: يا أبا سفيان إن أطلعتك على هذا السر تبوح به أم تستره علي، وذكر حكاية طعام أهل العجم وهي مما نقل عنه.

قال: كنت مرة يوما بالبادية ومعي بعض جماعة من الفقراء، فدخل في أنفي رائحة طعام مطبوخ، فمالت نفسي إليه كل الميل، وقالت: لا بد أن تطعمني منه في هذا الوقت، فالتفت يمينًا وشمالًا فلم أنظر شيئًا، فملت إلى خلفي فلم أر شيئًا، فأبصرت أمامي فلم أجد شيئًا، فقلت لها: يا نفس ما هذا الالتفات

---

[21] انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ج5، ص241؛ الدر المنثور في التفسير بالمأثور للجلال السيوطي ج5، ص527.

[22] هو ابن مزيد الأزدي الجريري: مولى، كوفي، من أصحاب الإمام الصادق عليه السلام، رجال الشيخ. روى كتاب عبد المؤمن بن القاسم، وروى عنه محمد بن يحيى الخزاز، ذكره النجاشي في ترجمة عبد المؤمن. وروى عن الحارث بن الحصيرة الأسدي عن أبي جعفر عليه السلام، وروى عنه ابن فضال. (انظر: الكافي لمحمد بن يعقوب الكليني ج4، ص212).

والإبرام وأنت تعلمي أنه ليس في هذا المكان ما تطلبيه، وليس في هذه البرية مكانا تأوي إليه، ولكن إذا وصلنا إلى العمران أجعل بيني وبينك شرطا، أنه إذا حصل لي ما أردتي، اتركيني أصلي ركعتين لله تعالى وأقرأ سورة الإخلاص ألفين مرة، فلما رأوه الدراويش يخاطب نفسه، أخذهم الوسواس وتحدث بعضهم ببعض بالقياس، وقالوا: لا بد أن شيخنا رأى شيئًا منًا، فعلم الشيخ ما خطر ببالهم فلم يرد جوابا.

فسار قدامهم حتى وافا إلى مدينة عامرة فجاء إلى ظل حائط، ووضع تحته قطعة جلد من الغنم، ورفع عن وجهه، وقال: يا إخواني إن نفسي اليوم طلبت مني خوان كنت أميل إليه، وهو طعام أهل العجم وأريد منكم أن تحضروه إلينا بالعجل، فقال بعضهم لبعض: ما هذا العجب، كيف طلب شيخنا هذا الطعام وما السبب، فأسرع ذلك الدراويش في الوقت والحين وأتوه بالعسل والخل واللحم والطحين، وأصلحوا ذلك الطعام كما في المراد، وأتوا به إلى إبراهيم، ووضعوه بين يديه، فأخذ بيده معلقة وقصد أن يضع في فمه ذلك المرقة، فردها إلى القصعة، وطلبت النفس شهوتها ولم يطاوعها، إلى أن تردد في الطعام أربعين مرة ويردها، وكان قد أنساه الشيطان ما تعاهد به النفس من الصلاة وقراءة الإخلاص، إلا وقد جاء الخطاب: نسيت العهد الذي عاهدت عليه من الصلاة وتلاوة الإخلاص، فألقى من يديه المعلقة، وترك الطعام، وقام وأخذ في الصلاة حتى فرغ من صلاته وأتى على قراءة الإخلاص، وحط رأسه في خرقته والفقراء تنظر إلى فعلته، فغلبت عليه عيناه بالمنام، فرأى سيدنا محمد عليه أفضل الصلاة وأتم والسلام، فقال له: يا إبراهيم أنت لك في المجاهدة أربعين سنة، واليوم أردت كسر النفس وإطاعتها، وغلبت عليك شهوتها، ولو تابعتها لسقط عنك جميع ما صنعته من المجاهدة والعبادة، وصرت مغرورًا اليوم ومحرومًا، لو لا تداركتك العناية من الحق تعالى، وقد لطف بك، وعوضك خيرًا مما طلبت من طعام الجنان من صنعة الرحمن.

فاستيقظ من منامه فرحًا، فرأى شخصًا قائمًا وبيده طبقًا مغطى، وفي ذلك الطبق أنواعًا من طعام الجنة، فخاطبه ذلك الشخص بلين الكلام، وقال له: يا إبراهيم إن الملك يقرئك السلام، وقد وأرسل لك هذا الطعام عوضًا عن ذلك الطعام الذي تركته، فقال إبراهيم: يا هذا، من أين عرف السلطان أني لم أكل طعامًا؟! ومن هو أنا حتى يعرفني السلطان ويرسل لي هذا الطعام؟! فقال الرجل: يا إبراهيم لولا يعرفك السلطان لم يرسل لك هذا الطعام، قم وانهض وكل منه على بركة الرحمن.

فأخذ إبراهيم ذلك الطبق من ذلك الرجل وتناوله، فعلم الإشارة، فأكل من ذلك الطعام كفايته، وشكر مولاه على ما أولاه من إنعامه وإحسانه، فلم ير أطيب منه ولا أحسن من ذلك الطعام، وأعطى الطبق إلى ذلك الشخص، فأخذ الطبق وغاب في الحضور والعيان وهذا ما انتهى إلينا من قصة الطعام على التمام والكمال الذي وصفه حسن الرومي.

ومما نقل عنه رضي الله عنه أنه كان يومًا في الطواف حول البيت الحرام، إذ رأى جماعة وقدامهم طعام، فدعوه إليه، فأتى نحوهم وسلم فردوا عليه السلام وأشاروا إليه أن اجلس وجابر الإخوان، وكانت تلك الرجال من الأبدال، فجلس مع تلك الإخوان ومع هذا يراود نفسه على الطعام، فقدموا تلك المائدة بين يديه وأبرموا عليه، فلما الحوا عليه بالكلام أخذ من ذلك الطعام فوضعه في فمه، فلما استقر ذلك الطعام في بطنه لم يقدر يملك أمعاءه وأخرج ذلك الطعام إلى فمه، وأخذته الحيرة والحياء والخجل وكان معه جلد من الغنم، فأخذ ذلك الاسترجاع من فيه ولفه في ذلك الجلد وتركه في مكانه وخرج خجلًا من إخوانه.

وكان الحق سبحانه وتعالى أخفى حاله، وأشغل الجماعة عن أفعاله، فلما قام إبراهيم وترك ذلك الجلد وهام وتوجه إلى الجبال، نظر تلك الرجال إلى الجلد ملقى مكان إبراهيم، فتركوه في المكان الذي تركه فيه إبراهيم، فأتى خادم المكان، فقالوا له ذلك الرجال: انه قد أتانا اليوم درويش قد دعوناه إلى الأكل معنا فحصل عليه تشويش فقام بيننا وترك ذلك الجلد عندنا، ولكن بالله عليك تأخذه وتحطه عندك حتى يأتي

صاحبه وسلمه إليه، فرفع ذلك الجلد الخادم فتساقطت منه قطع المسك والعنبر والكافور الذي لم يوجد له في الدنيا مثيل، فلما رأوا هذا العجب، قالوا: ما السبب ترك هذا ومضى وما طلبها، فأخذوا من ذلك الروائح الذي لم يوجد مثلها، وتركو عند الخادم بقيتها، فلما أن إبراهيم خرج من ذلك المكان ساح في جبال مكة شرفها الله تعالى، وكان في كل أربعين يوما يفطر على قلب لوز وهو يدعو ويتضرع إلى الله تعالى ويطلب العفو والغفران مما حصل له من الخجل بين الإخوان.

فبينما هو في هذا الافتكار، أتاه الخطاب: قم يا إبراهيم وادخل إلى مكة المشرفة فقد رفع الحجاب، فقام من الوقت والساعة ودخل الحرم فرأى الجماعة جالسين، فلما رأوه عرفوه فسلموا، وقالوا له: يا درويش، قد تركت عندنا جلدًا فيه من أنواع المسك والعنبر والكافور النفيس، وقد أخذنا منه بعض شيء خصصنا به أهلنا وأولادنا والبقية عند الخادم، وهو عندنا، فمن إحسانك تحللنا فيما تصرفنا فيه، فلما رأى إبراهيم ذلك المسك والعنبر شكر مولاه على ما أولاه، وقال لهم: يا إخواني أنتم في حلٍ مما كان في الجلد، وهذه البقية تكون هبة مني إليكم، فعندها شكروه ذلك الأصحاب، وقالوا له: لا بد أن تجبر خاطرنا وتحضر عندنا وتتناول شيئا من تلك الأطعمة الملونة، فلم يتناول شيء من ذلك الألوان، فقالوا له: يا درويش لما لا تأكل من زادنا وتجبر خاطرنا، إن كان حصل لك تشويش من هذا الذي أخذناه منك، ما هذه طريقة الدراويش السالكين، ولا هي سيمة الرجال الصالحين، أنت ممن رأيت هذه الطريقة من مشايخك الذي أرشدوك وإلى هذه الأفعال أهدوك.

فلما لحوا عليه في الكلام جلس على ركبتيه وهام، وقال لهم: يا إخواني إذا حضرت الأطعمة والمآكل الملونة كيف تأكلونها؟ فقالوا له: يا مسكين أنت من بعض المجانين، إذا حضر الطعام نأكل منه الكفاية، وإذا خلص نسعى في تحصيل غيره إلى الغاية، فقال لهم إبراهيم: هذه سيمة كلاب بلخ، إذا وجدوا جيفة مالوا إليها وأكلوا منها حتى فرغت وقصدوا إلى تحصيل غيرها، فلما سمعوا منه هذا الجواب تعجبوا منه

غاية الإعجاب من هذا الخطاب، فقال بعضهم: يا درويش نحن اعتقدنا منك الزهد والصلاح، وأنت تجعلنا من جملة كلاب بلخ، نحن بقي لنا عليك حق الطريق نترافع معك عند أهل التحقيق.

وكان بين ذلك الرجال شيخ عزيز صاحب فراسة وتمييز، فقال له: يا شيخ إذا حضر الطعام كيف يتناوله الإنسان، فقال إبراهيم: إذا حضر الزاد يأكل منه ويطعم الجائع والفقراء والأرامل والأيتام ويشكر الله على الإحسان والإنعام، وإذا لم يجد شيئا يصبر ويحتسب لوجه الله تعالى ويقتدي بسنة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، لأنه كان يطوي الليل والنهار ويربط على بطنه الشريف الأحجار ولا يلتذ من الدنيا إلا بالشيء اليسير، ولم يشبع من الخبز الشعير، وينام على خشن الحصير، ولم يجلس على التخت والسرير.

فلما سمعوا من إبراهيم هذا الكلام، هاج بهم الشوق والغرام، وقالوا: بالله عليك يا سيدنا من أنت من مدينة بلخ، ولحوا عليه بالكلام، وأقسموا عليه بالملك العلام، فعند ذلك قال لهم: أنا العبد الذليل العاصي على مولاه، الخائف منه يوم يؤخذ بالنواصي، أنا الذي أكلت الطيبات، وتنعمت بالكواعب الناعمات، أنا الذي كنت ألبس التاج والحرير والديباج وأجلس على السرير، أنا الذي تركت هذه الدنيا الفانية واخترت الدار الباقية وتركت الملك والسلطان، أنا إبراهيم بن أدهم يا إخوان، خرجت في رضى الرحمن، وجئت إلى زيارة المرسل إلى الإنس والجان.

فلما سمعوا منه هذا الكلام، قاموا الجميع على الأقدام، وأكرموه غاية الإكرام، وطلبوا منه العفو والغفران مما صدر في حقه، وكان بين ذلك الاخوان رجل عزيز من جملة الأعيان، فلما علم أنه إبراهيم قام له على الأقدام، وقال له: يا سيدي إن النبي الكريم كان جالسًا في المسجد وحوله الأصحاب، فقال: إنه يجيء رجل من ذريتنا، نسبه متصل بنا، يكون اسمه إبراهيم بن أدهم، فهو عند الله عزيز مكرم، ويترك الملك والتاج الأفخم، فإذا اجتمعتم به فأقرأوه مني السلام، وهذه سبع طاقات غزل مفتول من صوف

قربان كبش إسماعيل عليه السلام، فإذا جاء فأعطوه هذا الصوف، وهو أمانة عندنا، وقد انتقلت إلى إثنين وسبعين رجلا من إخواننا لتكون له ولخلفائه من بعده كسوة إلى يوم القيامة.

فلما سمع إبراهيم هذا الخطاب، غاب عقله عن الصواب، فأسرع ذلك الإنسان وأتى بذلك الغزل المفتول، الذي أوصى به الرسول، فأخذه إبراهيم وقبله ووضعه على خديه وعظمه وشكر الله سبحانه وتعالى على ما خصَّه وأولاه من الكرامات، فأخذ ذلك الغزل المفتول المدخر من صوف قربان اسماعيل عليه السلام وهذا ما وجدناه في الكتاب التركي فنقلناه على التمام والكمال، وهذه قصة الغزل.

ومما حكي عنه أنه لما أخذ هذا المغزول من الصوف، شرع في الخرقة والكمر والتاج، وجعل يعمله بيده، ووضع كل طعنة بالإبرة تشبيها للديدان والقمل الذي أصاب بدنه ليكون إشارة لخلفائه وسائر دراويشه من بعد، ويقتفوا آثاره ويتابعوه في طريقته وزهده، ولا يخالطوا السلطان ولا أصحاب البدع والعدوان، ولا يكونوا من المتكبرين، بل يسلكوا في طريقهم مسلك الفقراء والصالحين، ليكونوا غدًا عند الله ورسوله من المقربين، ويحشروا مع شيخهم في الجنان منعمين، وإلى وجه مولاهم الكريم ناظرين ومشاهدين، فهذه وصية إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه وجدناها في الكتاب التركي عن الدرويش الرومي.

فأنت يا أيها الأخ الصادق، والدرويش المحب السالك، تيقظ من غفلتك واتبع طريقة شيخك إبراهيم بن أدهم، وأحسن لمن أسا عليك، قبل يديه واصفح عن زلته، ولا تكن أنت المسيء إليه، ولا تكن من الغمازين واللمازين والنمامين ولا من الفاجرين، تنجوا غدًا من العذاب الأليم، وإن كنت يا أخي ظاهرك درويش وباطنك بالغل والحقد والتشويش، فليس أنت من جملة الدراويش، بل أنت من جملة جند إبليس، وتخرج من الطريقة الأدهمية، وتكون ممن خالف الشريعة المحمدية، ويبقى إبراهيم ابن أدهم

خصمك ويطالبك بين يدي مولاك، وهذه من بعض نصائحه ووصاياه ووعظه موجودة في الكتاب الذي وضعه درويش حسن الرومي واختصرناها هنا خوف التطويل.

ومما نقل عنه ما حكاه أبو حامد الغزالي رحمه الله تعالى في كتابه "منهاج العابدين" أن إبراهيم بن أدهم كان يجتمع مع الرجال في جبل لبنان، فقال: إنهم كانوا يوصونني إذا رجعت إلى أبناء الدنيا أن تعظهم بأربع خصال: من كثر أكله لا يجد لذة للعبادة، ومن كثر نومه لا يجد في عمره بركة، ومن طلب رضا الناس فلا ينظر رضا ربه، ومن كثر كلامه بفضول وغيبة ونميمة، فلا يخرج من الدنيا على دين الإسلام أو فطرة الإسلام.

قال سهيل رحمه الله تعالى: اجتماع الخير كله في هذه الأربع خصال، وبها صارت الأبدال أبدال لأخماص البطون صمت الألسن معتزلين عن الخلق سهرانين الليالي.

وقال أيضا: فعليك يا أيها الأخ الصادق باقتفاء آثارهم الحسنة، والاستدامة على ما كانوا عليه من السنن، وفارق الدنيا وبث طلاقها على الأبد، وهدي بحسن الأدب نفسك، وزين أخلاقها، وأرغب فيما عند الله تعالى من العيشة الراضية، فقد فاز مشتاقها، وانظر إلى هذه الدار الفانية بعين التحقيق، تجدها بئس الرفيق، وتعلم أنها بلا علام كأضغاث أحلام، ولقد أحسن من قال:

طلق الدنيا وفيق * إنها بئس الرفيق

إنما الدنيا سفينة * كل من فيها غريق

وقال أحسن من قال: سألت عن الدنيا الدنية، قيل لي هي الدار فيها الدائرات تدور، إذا ضحكت أبكت، وإن أحسنت أساءت، وإن عدلت يومًا فسوف تجور، فهذه أحوال الدنيا الدنية، والصاحبة الردية، فإنها بلا محال، كظل زال، أو شيخ خيال، تتقلب بأبنائها تقلب السليم، وتنقل النعم بينهم تنقل الغي القديم، وتدور عليهم دوران الرحى، ولذلك قطع أحباب الله منها الرجا، ولقد أحسن من قال:

هي الدنيا أقل من القليل * وعاشقها أذل من الذليل

تصم بسحرها قومًا فتعمي * فهم متحيرون بلا دليل

فاعتبر أيها المسكين الأخ الصادق يرحمك الله بمن سلف من الأمم الماضية، والقرون الخالية، أين الملوك وأبناء الملوك؟! وأين الغني والصعلوك؟! أين بنو أميه وأين وجوههم المضية؟! أين بنو العباس؟! أين أولوا الشدة والبأس؟! أين العباد والزهاد؟! أين من طلق الدنيا خوفًا من رب العباد؟! أين من مضى وتقدم؟! أين جبلة بن الأيهم[23]؟! أين إبراهيم بن أدهم؟! أين الزمن الصابر؟! فكما كنت كانوا وستبين مثلما بانوا، فاحذر الدنيا أيها الفقير، والله إن نوالها يسير، وعمرها قصير، ودركها خطير، فبالله عليك هل سمعت عما مضى غير الخبر، وهل ترى بعينك غير الأثر، وفي مثل ذلك تنبيه لمن تبصر واعتبر.

قال وهب ابن منبه: وجد على قصر سيف بن ذي يزن[24] بأرض صنعاء اليمن وكان ملكًا جليلًا مشهور بالمناقب، مكتوبًا عليه بالقلم السندي، فترجمه عنه بالعربية فإذا هي أبيات جليلة وموعظة عظيمة، وهي هذه الأبيات:

باتوا على قلل الجبال تحرسهم * غلب الرجال فلم تنفعهم القلل

واستنزلوا من أعالي عزّ منزلهم * فأسكنوا حفرا يا بئس ما نزلوا

ناداهم صارخًا من بعد ما دفنوا * أين الأسرة والتيجان والكلل

---

[23] هو جِبْلَةُ بْنُ الأَيْهَمِ بْنُ جِبْلَةِ بْنُ الحَارِثِ بْنُ أَبِيْ شَمَّر، وَاسْمُهُ الْمُنْذِرُ بْنُ الحَارِث. هو آخر ملوك الغساسنة في الشام. حكم ما بين عامي 632 و638 ميلادية. وكان بذلك الملك السادس والثلاثين في سلالة الغساسنة الذين كانوا متحالفين مع الروم قبل الإسلام، وهم من العرب النصارى، اتفقت روايات أهل الأخبار في موضوع دخول جبلة في الإسلام في عهد عمر بن الخطاب ثم ارتداده إلاّ رواية واحدة ذهبت إلى أنه لم يسلم. وذكر أكثر هذه الأخبار الشيخ أبو الفرج بن الجوزي في «المنتظم»، وأرخ وفاته السنة 53 هـ. وقد ترجمه الحافظ ابن عساكر، ثم قال في آخرها: بلغني أن جبلة توفي في خلافة معاوية بأرض الروم، بعد سنة أربعين من الهجرة. (انظر: تاريخ دمشق لابن عساكر ج72، ص28).

[24] هو سيف بن ذي يزن بن ذي أصبح بن مالك بن زيد بن سهل بن عمرو الحميري: من ملوك العرب اليمانيين، ودهاتهم. قيل اسمه معد يكرب. ولد ونشأ بصنعاء، جرت أسطرته بعد تحرير اليمن من الغزو الحبشي فشاع ذكره في الأدب الإسلامي. حكم سيف بن ذي يزن من قصر غمدان في صنعاء، والذي كان من أشهر وآخر الملوك الذين سكنوه. يعود لابن ذي يزن الفضل في طرد الأحباش من اليمن بعد أن ظلوا يحكمونه منذ عهد ذي نواس حوالي أوائل القرن السادس (انظر: الأعلام لخير الدين الزركلي ج3، ص149).

أين الوجوه الذي كانت محجبة * من دونها تضرب الأستار والخيل

فأفصح الترب عنهم حين ساءلهم * تلك الوجوه التي للدود تقتتل

قد طال ما أكلوا يومًا وما شربوا * فأصبحوا بعد ذاك الأكل قد أُكلوا

وقد نقلت هذه الأبيات من "قمع النفوس ورقية المأيوس" للشيخ تقي الدين الحلبي[25] وهو كتاب عظيم الشأن عمدة عند العلماء الأعلام والأعيان كثير النفع فيه للنفس قمع.

فانظر أيها المتأمل في هذا الكتاب والناظر إليه وفقك الله تعالى إلى طريق الصواب، بأنك إذا قطعت العلائق من الخلائق، وتعلقت بالواحد الخالق، صرت إلى السعادة الأبدية، في جوار رب البرية، مع رفقة كرامٍ في دار السلام، هي دار وأي دار، دار العز والقرار، والخلد بلا بوار، أنهارها جارية، وقطوفها دانية، حصاؤها اللؤلؤ والمرجان، وخدمها الحور والولدان، فيها خيرات حسان، وترابها المسك والزعفران، وسقفها عرش الرحمن، فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

قال تعالي في كتابه العزيز: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾[السجدة: 17]، ﴿لِمِثْلِ هَٰذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ﴾[الصافات: 61]، ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[المطففين: 26]، ﴿أَذَٰلِكَ خَيْرٌ نُّزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ﴾ [الصافات: 62]، دار الحر والسموم، دار الأحزان والهموم، دار لا ينفك أسيرها، ولا يخمد سعيرها، دار لباس أهلها الحديد، وشرابهم الصديد، ولا يرحمون إن بكوا، ولا ينصرون إن شكوا، ولا يرحمون وإن جاعوا، أتوا بطعام يقال له الضريع، وإذا عطشوا أتوا بشراب فظيع، فهم في كرب لا يحول، وعذاب لا يزول، أجارنا الله تعالى منها وجنبنا مما يقربنا إليها، ووفقنا إلى عمل يباعدنا

---

[25] هو تقي الدين بن محمد شمس الدين بن محمد بن محمد محب الدين الحصني الحسيني الشافعي، فقيه شافعي، عارف بالحديث والتفسير. ولد بالحصن (من قرى حوران) سنة ١٠٥٣هجرية ونشأ وتعلم بدمشق، وتوفي بها سنة ١١٢٩هجرية، قال المرادي :رأيت له مجاميع بخطه تدل على فضله، وإتقانه، ومعرفته بالأنساب، والتاريخ. (انظر: الأعلام لخير الدين الزركلي ج2، ص86).

عنها، بجاه سيد الأولين والآخرين وحبيب رب العالمين وشفيع العصاة والمذنبين عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين.

ولنرجع إلى ما كنا بصدده من سيرة السيد الجليل ذي الثناء الجميل سلطان الزهاد والعباد، الذي طلق الدنيا ورماها بالبعاد، وفارق الملك والأهل والأولاد، ورافق السادة العباد، وبها قد انفرد وقد كان أهلا للشريعة في زمانه، وعنوان ذوي الطريقة في أوانه، اعترف له بالفضل أهل العلم والبراعة.

ونقل عنه الشيخ الإمام العالم العلامة البغوي في تفسيره معالم التنزيل عند قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى: 10] قال إبراهيم: "نَعَمَ الْقَوْمُ السُّؤَّالُ يَحْمِلُونَ زَادَنَا إِلَى الْأَخِرَةَ يَجِيءُ إِلَى بَابِ أَحَدِكُمْ فَيَقُولُ: هَلْ تُوَجِّهُونَ بِشَيْءٍ" [26].

وقد كان يهابه أكابر العلماء في ذلك الوقت منهم الأوزاعي صاحب المذهب بدمشق، قال أبو مطيع في كتابه: مرَّ إبراهيم على حلقة الأوزاعي وحوله رجال وزحام، فقال له: يا أبا عمر على هذا قعدت الناس كأنك معلم وحولك صبيان، لو كان هؤلاء على حلقة أبي هريرة لعجز عنهم، فقام الأوزاعي وترك مجلسه.

قلت: في كلامه هذا إشارة وإرشاد عظيم، لأن ذلك فيه الشهرة ونظرة النفس والإعجاب بها، والانقياد إلى حظوظها، وحب الجاه والرفعة، وكان السلف الصالح يكرهون الفتيا والجلوس للناس وحب الرفعة والجاه والاشتهار في العلم خوف الوقوع في الرياء الذي أصغره شرك بالله تعالى.

---

[26] معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ج8، ص458.

وقد قال ابن مسعود رضي الله عنه: «مَنْ أَفْتَى النَّاسَ فِي كُلِّ مَا يَسْأَلُونَهُ فَهُوَ مَجْنُونٌ»[27]، وهذا وأمثاله مأخوذ من قوله عليه أفضل الصلاة وأتم السلام: «أَجْرَؤُكُمْ عَلَى الْفُتْيَا، أَجْرَؤُكُمْ عَلَى النَّارِ»[28]، ولقد أحسن من قال: "العمل لأجل الناس شرك، والأحلى أن يعافيك الله منها"[29].

وقال أبو مطيع: دخل عيسى ابن يونس[30] مكة المشرفة وأحاط به الناس في المسجد الحرام، فمر به الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى، فرأى كثرة الازدحام، فسلم عليه وعيسى لا يسمع، حتى فرغ، فلما نظر إليه قال له: يا أبا إسحاق احذر أن يغيروا قلبك، فافهم، ما أحاطوا برجل إلا غيروا قلبه، وداخله العجب والتكبر والإعجاب بعلمه، إلا أن يداركه الله بلطفه وعنايته، ويكون ذلك خالصًا لوجهه، فنسأل الله تعالى أن يخلص أعمالنا من الرياء، وقلوبنا من النفاق، وأبصارنا من الخيانة، فإنه سبحانه وتعالى يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور.

قال: ودخل الإمام علي رضي الله عنه مسجد الكوفة فرأى قصاصًا يقص على الناس، فقال: من هذا؟ فقالوا: رجل محدث، قال علي رضي الله عنه: هذا رجل يقول اعرفوني أنا فلان ابن فلان[31].

وقد روي أن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى قراء القرآن يمشون خلف أُبَيّ بن كعب، فقال: علي بالدرة، فقيل له: وما تصنع بها، فقال: أدبك أما علمت أن هذه المشية مذلة للتابع ومنقصة للمتبوع[32].

---

[27] جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ج2، ص124.

[28] مسند الدارمي، باب الفتيا وما فيه من الشدة، حديث رقم 159، ج1، ص258.

[29] نقله ابن كثير في البداية والنهاية عن الفضيل بن عياض، قَالَ ابن كثير: قال الفضيل: "الْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ شِرْكٌ، وَتَرْكُ الْعَمَلِ لِأَجْلِ النَّاسِ رِيَاءٌ، وَالْإِخْلَاصُ أَنْ يُعَافِيَكَ اللهُ مِنْهُمَا"، البداية والنهاية لابن كثير ج13، ص561.

[30] هو عيسى بن يونس بن أبي إسحاق عمرو بن عبد الله، الإِمَامُ، القُدْوَةُ، الحَافِظُ، الحُجَّةُ، أبي عَمْرٍو، وَأبي مُحَمَّدٍ الهَمْدَانِيُّ، السَّبِيْعِيُّ، الكُوْفِيُّ، المُرَابِطُ بِثَغْرِ الحَدَثِ، أَخُو الحَافِظِ إِسْرَائِيْلَ. كَانَ وَاسِعَ العِلْمِ، كَثِيْرَ الرِّحلَةِ، وَافِرَ الجَلاَلَةِ. مَاتَ سَنَةَ سَبْعٍ وَثَمَانِيْنَ. وَقَالَ المَدَائِنِيُّ، وَمُحَمَّدُ بنُ المُثَنَّى، وَالدَّانِيُّ، وَمُحَمَّدُ بنُ مُصَفَّى: سَنَةَ ثَمَانٍ وَثَمَانِيْنَ (انظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ج8، ص489).

[31] كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال للمتقي الهندي ج10، ص281.

[32] انظر: الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي ج1، ص395.

ولنرجع إلى سيرة إبراهيم، ومما نقل عنه من السخاء والعفة والتوكل على مولاه في جميع حالاته، قال بعضهم: كنت مع إبراهيم بن أدهم في سفري فنزلنا في مسجد خراب وقد أصابنا الجوع، فأخرج إبراهيم كتابًا، وقيل مصحفا كان يصحبه معه، فقال لي: قم وراهن هذا وآتينا بشيء نأكله فقد مسنا الجوع، قال: فخرجت قليلًا فلقيني غلام وبين يديه بغلة عليها حمل، وهو يقول لرفيقه: إن الذي أطلبه رجل أشقر، قال: ما اسمه؟ قال: اسمه إبراهيم بن أدهم، فالتفت إليهم، فقلت: ما تريدون منه؟ قال ذلك الغلام: أنا غلام أبيه وهذه البغلة وما عليها من الحمل له، قال: فدليته عليه، فلما شاهده الغلام بكى وانكب عليه وعلى رأسه ويديه ورجليه فقبلها، فقال له إبراهيم: من أنت يا أيها الشاب؟ فقال له: غلام أبيك ومعي أربعون ألف دينار ميراثًا من أبيك وهي لك عندي، فقال له إبراهيم: إن كنت صادقًا في قولك فأنت حر لوجه الله تعالى وجميع ما معك خذه هبة لك خذها وانصرف عني، فلما خرج الغلام قال إبراهيم: يا رب كلمتك في رغيف خبز فصببت علي الدنيا صبًّا، فوحقك لو أمتني من الجوع بعدها فلا أعترض لطلب شيء.

ومما نقل عنه رضي الله عنه أنه كان يومًا في الطريق فأجهده العطش، وكان معه بعض دراويش، فأتوا إلى بئر وكان معهم دلو، فأرسلوا الدلو في البئر يستسقون منه، فلما طالعوا الدلو فإذا هو ملأن جواهرًا، فأراقوه على الأرض، ثم أرسلوه ثانيًا فطلع ملآن درًا، ثم أرسلوه ثالثًا فطلع ملآن زمردًا، فقال لرفاقه: اطرحوا الجميع إلى البئر لا يتأذى أحد من المسلمين بسبب هذه الجيفة، وآلى على نفسه أنه لا يعود يستسقى من بئر أبدًا.

ومما ذكر عنه رضي الله عنه أنه ما شرب من ماء زمزم خوفًا أنه لا يقع في حق مال الوقف من أمر الحبل والدلو، فمن أجل ذلك كان يصحب معه حبل ودلو، فلما كان في بعض أسفاره مر على نهر ماء فرأى رجلا يشرب الماء بكفه فألقى الحبل والدلو من ذلك الوقت. وقيل: كان معه قدحًا يأخذ به الماء إلى وضوئه

وشربه فتركه من يده. فانظر أيها الأخ الصادق كيف أرشده الله لأحسن الإشارة وحسن الأدب مع الله وسلوك طريق الزهد بالسكون وترك الاحتيال.

ومما نقل عنه رحمه الله أنه كان يصحب معه ذلك القدح لأجل الماء، ومشط يُسرح به لحيته، وإبرة يرقع بها خرقته، فرأى رجلًا يُسرح لحيته بأصابعه، فألقى المشط من يده، وقال: هذا أزهد مني، فأراد أن يلقي الإبرة من يده، فأتاه الخضر عليه السلام، وقال له: لا تلقي الإبرة من يدك لأجل أن ترقع خرقتك وينتفع بها من تبعك بعدك.

ومن إرشاده نفعنا الله به، أن أعطاه الله تعالى حسن التواضع والسكينة في جميع أحواله ظاهرًا وباطنًا، والتواضع ضده الكبر، وحقيقة التواضع قبول الحق ممن قاله، والتكبر جحود الحق سبحانه وتعالى، كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [البقرة: 206].

وروي أن أبا ذر عير بلال بالسواد فشكاه إلى رسول الله ﷺ فقال له رسول الله ﷺ: إنك امرؤ فيك جاهلية[33]، فوضع أبو ذر خده على التراب وحلف ليضع بلال قدمه على خده. وحكي أن رجلا قال لمالك بن مِغْوَل: اتق الله، فألصق خده بالتراب. [34]

ومما حكي عنه رضي الله عنه أنه قال: ما سررت في عمري إلا ثلاث مرات، أردت أن أنظر عجائب البحر، فركبت في مركب وكان رجل مضحكًا يضحك بحكاياته الناس، فكان يقول: رأيت وقتًا في معركة الترك علجًا فقتلته، وكان يأخذ بلحيتي ويمر يده على حلقي والناس يضحكون، فلم يكن في السفينة أحقر في نظره مني. ويومًا كنت جالسًا فجاء إنسان من خلفي وصفعني من غير سبب. ويومًا كنت جالسًا فجاء إنسان وبال علي فسررت بذلك، وإنما كان يا اخوان سروره بأن قلبه لم يتغير ولم يغضب عليه، ولم يستوحش من فعلهم، ولم يتغير ظاهره ولا باطنه، لأنه سَرَّهُ فعلهم القبيح به، فعليك يا أخي بحسن التواضع والعفو

---

[33] انظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك، حديث رقم (30)، ج1، ص210.

[34] انظر: تهذيب الكمال في أسماء الرجال للمزي ج27، ص161.

عن الزلل، وأعلم وفقك الله أنه من تواضع لله رفعه الله فوق الغاية، ويرزقه الله عز لا ذل بعده قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: 8].

ومما جاء عنه رضي الله تعالى عنه من حسن إيثاره على نفسه ما حكاه شقيق البلخي[35] قال: قال لي أستاذي إبراهيم بن أدهم: على ماذا أمسيتم؟ قلنا: إذا رزقنا شكرنا، وإذا منعنا صبرنا، فقال له: هكذا كلاب بلخ، فقمت إليه وقبلت يديه، وقلت له: يا أستاذي فعلى ما أمسيتم أنتم؟ فقال: على أنا إذا رزقنا آثرنا، وإذا منعنا شكرنا، فقلت: درجة الإيثار عظيمة، وفتوة كريمة، مدح بها أهل وداده، فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9]، قال علماء التفسير: والخصاصة أي يؤثرون إخوانهم المهاجرين بأموالهم ومنازلهم على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة أي حاجة وفاقة إلى ذلك الشيء[36].

وسبب نزول تلك الآية الكريمة ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رجلا أتى النبي ﷺ ضيفًا، فبعث إلى نسائه فقلن: ما عندنا إلا الماء، فلم يجد في بيته ما يضيفه، فقال عليه السلام: من يضيف ضيفي؟ فقال رجل من الأنصار: أنا يا رسول الله ﷺ، فحمله إلى منزله وأخبر زوجته بالقصة، فقالت: مرحبًا بضيف رسول الله ﷺ، ثم قالت لزوجها: ليس في بيتنا أكثر مما يأكلوا أولادنا، فقال الرجل لزوجته: يا فلانة ما يصيبنا إذا نحن جعلنا ليلة لله تعالى ونضع الطعام بين يديه بعد نوم الأولاد ونطفئ السراج حتى يأكل وحده ونوريه أننا نأكل معه، ففعل ذلك ونومت أولادها برفق جياع، فلما أصبح جاء الرجل إلى رسول الله ﷺ، فلما أبصره النبي ﷺ تبسم في وجهه، وقال له: أقول أنا أم تقول أنت، قال: الكلام منك

---

[35] هو الإمام الزاهد، شيخ خراسان، أبو علي شَقِيق بن إبراهيم الأزدي البَلْخي، أحد علماء أهل السنة والجماعة وهو من أهل بلخ في خراسان، كان أستاذ حاتم الأصم، صحب إبراهيم بن أدهم وأخذ عنه الزهد. وروى عن كثير بن عبد الله الأبلي وإسرائيل بن يونس وعباد ابن كثير. حدث عنه عبد الصمد بن يزيد مرذويه ومحمد بن أبان المستملي وحاتم الأصم والحسين بن داود البلخي. استشهد في غزوة كولان عام 194 هـ (انظر: سير أعلام النبلاء لشمس الدين الذهبي ج9، ص313).

[36] انظر: معالم التنزيل في تفسير القرآن للبغوي ج5، ص58.

أحسن يا رسول الله، فقال ﷺ: قلت لزوجتك البارحة كذا وكذا، وعجب الله من فعلكما، أو كما قال، فأنزل الله هذه الآية الشريفة ﴿وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: 9] الآية.[37]

وقال أنس رضي الله عنه: أُهدي لبعض الصَّحابة رأسُ شاةٍ مشويٍّ، وكان مجهودًا، فوجَّهَ به إلى جارٍ له، فتداوَلَتْهُ تسعة أنفسٍ، ثم عاد إلى الأوَّل، وهو أبو طلحة، وكان أنس يحلف بالله ان ما في الأنصار رجل بخيل ويقرأ هذه الآية الشريفة.[38]

وعن أبي حسين الأنطاكي أنه اجتمع عنده نيف وثلاثون رجلًا فأحضر لهم أرغفة معدودة لم تشبع جوعتهم، فكسروا الأرغفة وأطفوا السراج وجلسوا للأكل، فلما رفعوا إذا هم بالطعام على حاله لم يأكل أحد منهم شيئًا إيثارًا على أنفسهم وكل إنسان له جوهر ينبئك عن جوهره فعله.[39]

ومما نقل عنه انه قال الإمام اليافعي رحمه الله في كتابه أنه اتاه رجل بعشرة آلاف درهم فأبى أن يقبلها، وقال: تريد أن تمحوا اسمي من ديوان الفقراء، بعشرة آلاف درهم، لا أفعل ذلك أبداً، وقيل في ذلك المعنى:

أرى الزهاد في روح وراحة * قلوبهم عن الدنيا مراحه

إذا أبصرتهم أبصرت قومًا * ملوك الأرض سيمتهم سماحه

وقال إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه: أتحب أن تكون لله وليا، قال: نعم، قال: لا ترغب في شيء من الدنيا والآخرة، وفرغ قلبك لله تعالى ليقبل عليك ويواليك.

---

[37] انظر: صحيح البخاري، كتاب مناقب الأنصار، باب قول الله ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، حديث رقم 3798، ج5، ص34.

[38] انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج18، ص25.

[39] انظر: الكشف والبيان عن تفسير القرآن للثعلبي ج26، ص226.

ومما قد أطنب السلف الأول في مدحه إلى الغاية، وأخذ عنه طائفة بلا نهاية، ولقبه بعضهم بألقاب الحسن، فكانوا يقولون عليه الطراز المعلم، وطيب الثناء والشيم، سلطان الزهاد والعباد، إبراهيم بن أدهم، وكانوا يتباركون بأرض يطأها بنعله، ويمرون على أعينهم أحجارًا تنسب إليه.

وقد كان يربط الأحجار على بطنه اقتداء بسنة نبيه ﷺ، وذلك الحجرين الأسودين الذين على مزاره الشريف، من جملة الأحجار التي كان يصحبهم معه في مرقعته، ويربطهم على بطنه، موجودات إلى يومنا هذا على ضريحه وهذه من بعض بركاته.

وكان في زمانه جماعة من العارفين الكبار منهم الإمام العارف بالله تعالى معروف الكرخي، والشيخ الزاهد فضيل بن عياض، ومنهم ذو العهد الوفي والسر الصفي سري السقطي، ومنهم شيخ الطوائف جنيد البغدادي، فمنهم من أخذ عنه وصحبه طائفة كثيرة، نيفًا عن ألف شيخ، وعن ثلاثة آلاف مريد ودراويش وفقراء في وقته.

وتخلف له جماعة كثيرة وصحبة، منهم حذيفة المرعشي، وشقيق البلخي، والشيخ شهاب الدين المقدسي، وجماعة كثيرة لم نذكرهم خوف الإطالة، فهؤلاء نفعنا الله بهم مشايخ الطريقة، وعلماء أئمة الحقيقة في تلك العصر، وبهم قام الدين وبه قاموا وعلى مولاهم عز وجل استقاموا، وبهم قمع الله المبتدعين، وقهر بهم الطائفة الملحدين الخارجين، كان لا يأخذهم في الله لومة لائم، ولم يزالوا يعظمونه ويستحسنون طريقته الحسنة منهم الإمام المبجل أحمد بن حنبل نفعنا الله تعالى به، فروي عنه مع جلالة قدره، وكان كثير التردد إلى بعض الصوفية العارفين بالله، فقيل له: أتتردد لزاوية هذا الشيخ؟ فقال: رأس الأمر عنده تقوى الله ومعرفته، وللفقهاء مع المشايخ حكايات يطول شرحها.

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضي الله عنه في رسالته: أما بعد فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أولياءه، وفضلهم على كثير من عباده بعد رسله وأنبيائه، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وجعل قلوبهم معادن أسراره، واختصهم من بين الأمة بطوالع أنواره، وصفاهم من كدورات البشرية، ورقاهم إلى مشاهدات مجالس المشاهدات لما تجلى لهم من الخلائق الأحدية، ووفقهم للقيام بآداب العبودية، وأشهدهم مجاري أحكام الربوبية، وهذا بعض كلامه رضي الله تعالى عنه. [40]

ثم قال في آخر الرسالة: والناس إما أصحاب النقل والأثر وإما أرباب العقل والفكر وشيوخ هذه الطائفة ارتقوا عن هذه الجملة فالذي للناس غيب فهو لهم ظهور والذي للخلق من المعارف مقصود فلهم من الحق سبحانه موجود فهم من أهل الوصول والناس أهل الاستدلال. وهم كما قال القائل: ليلي بوجهك مشرق، وظلامه من الناس ساري، فالناس في سدف الظلام، ونحن في ضوء النهار. ولم يكن عصر من الأعصار في مدة الإسلام إلا وفيه شيخ من شيوخ هذه الطائفة ممن له علوم التوحيد وإمامة القوم إلا وأئمة ذلك الوقت من العلماء استسلموا لذلك الشيخ وتواضعوا له وتبركوا به، انتهى كلامه[41]. قال في هذا المعنى، وفضل القوم نفعنا الله بهم:

رجال كرام دأبهم همة العلى * لهم في كل وقت حسن الثنى

ولولا تراهم في الوجود وأثرهم * تقلبت الآفاق بالضر والعنى

فهم لوجود الخلق غيث مهلك * بهم تنبت الأعشاب والرزق واللمى

عليهم من الإجلال أشرف حلة * كساهم بها رب البرية ذو البهى

وخاطبهم حقًا خطاب مودة * وأثنى عليهم في الكتاب ويجلي

وقال لهم أنتم عبادي * فلا تخافوا من الأملاق والنفس والهوى

---

[40] انظر: الرسالة القشيرية للقشيري 1/ 15، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف للنشر والتوزيع: القاهرة– مصر.

[41] انظر: الرسالة القشيرية للقشيري 2/ 572.

عليكم سلام أنتم أهل قربتي * سلام من الرحمن ذو الجود والسنا

فهم أين ما حلوا رحمة وكرامة * بذكرهم بين الملائكة والملا

عليهم من الله الكريم تحية * مباركة تتلى عليهم وتمتلى

قلت: وجميع ما ذكره من فضل ابن أدهم مع ذكر القوم في هذه الأوراق يسير، وأنا بلا محال معترف بالعجز والتقصير عن القيام بمثل هذا المقال، لكن الله تعالى وفقني إلى تأليف هذه الأوراق، نفع الله بها المسلمين إنه كريم خلاق، وأنا معتقد أن ذلك حصل ببركة إبراهيم بن أدهم رضي الله عنه وأرجوا به النفع لي ولإخواني ولمن كان سببًا لهذا وجمع ووعى، ولمن أمن ودعا.

قلت: وهذه رحمة من الله إذ عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة وإلى هذا المقام أشار سيد الأنام والأولين والآخرين رسول الله ﷺ بقوله عز وجل: «وَمَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطُشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا، وَإِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ»[42] انتهى كلامه رضي الله تعالى عنه.

وحكى بعض السادة أنه لما سعى بالصوفية إلى بعض الخلفاء، فأمر بضرب رقابهم، منهم الجنيد رضي الله عنه، وكان يتستر بالعلم والفقه على مذهب أبي ثور، والشحام، والرقام، والنوري، فقبض عليهم وقدم النطع ليضرب رقابهم. فتقدم الشيخ العارف بالله أبو الحسين النوري رحمه الله قدام السياف، فقال له: ما أقدمك، أتدري ما تبادر إليه؟ قال: نعم، قال السياف: وما أعجلك؟ فقال: أوثر أصحابي بحياة ساعة، فتحير السياف من كلامه، فأنهى الأمر إلى الخليفة، فتعجب من ذلك ومن عنده، وكان القاضي عنده، فاستأذن الخليفة أن يذهب إليهم ويبحث معهم ويختبرهم عن حالهم، فأذن له الخليفة في ذلك.

---

[42] انظر: صحيح البخاري، كتاب الرقاق، باب التواضع، حديث رقم 6502، ج8، ص105.

فأتاهم القاضي وقال: ليخرج إلي واحد منكم حتى أبحث معه، فخرج أبو الحسين النوري، فألقى عليه القاضي مسائل فقهية، فالتفت يمنة ويسرة، ثم أطرق ساعة، ثم أجابه عن الكل، ثم جعل يقول: إن للهِّ عبادًا إذا قاموا، قاموا باللهِّ، وإذا نطقوا نطقوا باللهِّ، وسرد كلامًا أبكى القاضي. ثم سأله القاضي عن التفاته؟ فقال: سألتني عن المسائل ولا أعلم لها جوابًا فسألت عنها صاحب اليمين فقال لا أعلم. وسألت عنها صاحب الشمال فقال: لا أعلم. فسألت قلبي فأخبرني عن ربي، فأجبتك بذلك. فأرسل القاضي إلى الخليفة وقال: إن كان هؤلاء زنادقة، فما على وجه الأرض مسلم.[43]

قلت: فها أنا أذكر شيئًا من أحوالهم على قدر فهمي القاصر، فانقل منها نبذة يشرح لها الخاطر ويتحقق لها السرائر بعون الملك القادر، إن قلب المؤمن مرآة تبدو له الأشياء بحقائقها، وأصل ذلك ومادته من النور المستفاد بواسطة الإيمان بالله تعالى، وخالص المحبة مما جاءت به الرسل صلوات الله وسلامه عليهم، وبالمحافظة على طاعته ظاهرًا وباطنًا وعلانية، حتى تظهر ثمرة ذلك على ظاهر المؤمن، فيخبر عن المخفيات كما يخبر عن المشاهدات.

وإلى ذلك أشار عليه الصلاة والسلام بقوله: «إِذا دخل النُّور الْقلب اِنْفَسَحَ وانشرح»[44]، قيل: فهل لذلك من علامة؟ قال: نعم، الإنابة إلى دار الخلود، والتجافي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل النزول، قال عليه السلام: «اتَّقُوا فِرَاسَةَ الْمُؤْمِنِ، فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ الله»[45].

وقيل: إن الله أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام إن لي عباداً من عبادي أحبهم ويحبوني، ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم، ويذكرونني وأذكرهم، وينظرون إلى وأنظر إليهم، فإن حذوت طريقهم أحببتك، وإن عدلت عن ذلك مقتك، فقال: يا رب وما علامتهم في الخلق؟ قال: يراعون الشمس بالنهار

---

[43] انظر: حدائق الأولياء لسراج الدين ابن الملقن ج2، ص389.

[44] انظر: نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول للترمذي ج1، ص418.

[45] انظر: سنن الترمذي، أبواب تفسير القرآن، باب: ومن سورة الحجر، حديث رقم 3127، ج5، ص298.

كما يراعى الراعي غنمه، ويحنون إلى غروب الشمس كما تحن الطير إلى أوكارها عند الغروب، فإذا جنَّهم الليل واختلط الظلام، وفرشت الفرش ونصبت الأسرة، وخلى كل حبيب بحبيبه، نصبوا إلى أقدامهم وافترشوا إلى وجوههم، فناجوني بكلامي، وتملقوني بإنعامي، فبين صارخ وباك، وبين متأوه وشاك، وبين قائم وقاعد، وبين راكع وساجد، بعيني ما يتحملون من أجلي، وبسمعي ما يشكون من حبي، فأول ما أعطيهم أن أقذف من نوري في قلوبهم، فيخبرون عني كما أخبر عنهم، والثانية لو كانت السموات السبع والأرض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم، والثالثة أقبل بوجهي الكريم عليهم فترى من أقبلت بوجهي الكريم عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه، فالقلب إذا انغمر بنور الله صار ذلك القلب عرش الله الأكبر يتجلى عليه وينظر إليه بمنه ولطفه[46]، ولقد قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ لَا يَنْظُرُ إِلَى أَجْسَادِكُمْ، وَلَا إِلَى صُوَرِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَى قُلُوبِكُمْ»[47]، وكذلك القلب المعمور بنور الله عرش الله أكبر، وفي الحديث القدسي: «ما وَسِعَني سَمائي ولا أرضي، ولكنْ وَسِعَني قَلْبُ عبدي المُؤمِنِ».

ولنرجع ما كنا بصدده من سيرة إبراهيم بن أدهم قدس الله سره العزيز، ومما ناله من الفضل والكرامة قال: فلما توفي ولده وقضى نحبه ولحق بربه، أخذه القلق الشديد الذي ما عليه من مزيد، وقصد التوجه من الحرم الشريف إلى القدس الشريف وزيارة قبور الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، وقد نوى في سفره أنه لا يصحب أحدًا من الرجال، فمر بطريقه برجل بقال يبيع تمرًا، فأخذ منه بدرهمين، فلما وضعهم في خرقته، وقع من الطبق تمرتين إلى الأرض، فتناول تلك التمرتين، ولم يعلم من أين، وتوجه نحو بيت المقدس في طرفة عين، فلما أن وصل القدس الشريف، دخل الصخرة وجلس معتكفًا إلى الليل في مكان خفي عن الناس، فلما أن خلى المكان من الحرس دخلت الملائكة بلا عدد ولا قياس، فقال واحد منهم: إني أجد رائحة إنسان في هذا المكان، فقال واحد منهم: أما علمتم من هو؟ فقال: هو إبراهيم بن أدهم صاحب

---

[46] انظر: الغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني ج2، ص150.

[47] انظر: صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، حديث رقم 2564، ج8، ص11.

بلخ خرسان، فقال: أما علمتم حاله وما الذي أصابه فإنه قد سقط من ديوان الولاية عند ربه، فقالوا: مما ذا؟ قال: إنه أخذ تمرتين ليس له بهما حق.

فلما سمع إبراهيم من الملائكة هذا الخطاب، راجع نفسه إلى الصواب، وأخذ في الندم والبكاء طوال ليلته إلى أن طلع الصباح، وأخذ في سيره وهام إلى أن وافا ذلك البقال الذي كان اشترى منه ذلك التمر من ذلك الدكان، فرأى في ذلك الدكان شابًا غلامًا فسلم عليه بن أدهم فرد عليه السلام، فقال له إبراهيم: أين صاحب هذا الدكان؟ فقال له: يا أيها الإنسان إن صاحب هذا الدكان والدي وإنه انتقل بالوفاة، فقال إبراهيم: يا ولدي قد أخذت منكم تمرتين بغير حق وهم باقيتين عندي وفي ذمتي وقد جئت أطلب منكم البراءة وخلاص ذمتي، فقال له ذلك الشاب: يا سيدي أنت في حلٍ مني، ولكن لي والدة وأخت وهما عندي فبقي ما يخصهم، فقال له: يا شاب خذني إليهم أستحلل ذمتي لديهم، فتوجه الغلام مع إبراهيم وأخبر والدته وأخته في حال التمرتين، فقالوا له: إن كنت تطلب براءة ذمتك يا أيها الإنسان تكن لبنتنا بعلًا على سنة محمد ﷺ سيد ولد عدنان، فقال لها إبراهيم: إني رجل غريب الديار وليس معي درهم ولا دينار وما ترضون أكون لكم غدًا زوجًا في دار القرار، فلما أن ظهر لهم صدقه مقالته أبرأوا ذمته وخلص من شبهته، ورجع إلى بيت المقدس ودخل إلى الاعتكاف على عبادته.

فلم أن جنَّ الليل أخذ في الدعاء والتضرع إلى الملك العلام طالبًا منه العفو والغفران، فبينما هو في المناجاة إذا أتت الملائكة على عاداتها، فقال أحدهم: إن إبراهيم برئ من ذمته واستغفر من زلته وقبل الله توبته ورفع الله درجته وقربه وكشف له عن حجابه، فلما أن سمع هذا الخطاب بعد العتاب، وقف على قدميه في الأعتاب، وصفى قلبه وطاب، وهذا ما انتهى إلينا من قصة التمرتين ونرجع إلى ما كنا بصدده.

ومما نقله الإمام الواعظ ابن الجوزي في كتابه المسمى "سوق العروس" قال: مرَّ ابن أدهم بسوق من الأسواق بالبصرة فاجتمعت الناس حوله فقالوا له: يا أبا إسحاق إن الله عز وجل يقول في كتابه العزيز: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، ونحن ندعو فلا يستجاب لنا، فقال لهم: إنما حرمتم الإجابة لأن قلوبكم ماتت بعشرة أشياء، أولها عرفتم الله فلم تؤدوا حقه، الثانية زعمتم أنكم تحبون رسول الله وخالفتم سنته، الثالثة قرأتم القرآن وقلتم إنه حق ولم تعملوا بما فيه، الرابعة أكلتم نعم الله ولم تؤدوا شكرها، الخامسة علمتم أن الشيطان عدوكم ووافقتموه، السادسة قلتم إن الجنة حق ولم تعملوا لها، السابعة قلتم إن النار حق ولم تهربوا منها، الثامنة قلتم إن الموت حق ولم تستعدوا له، التاسعة اشتغلتم بعيوب الناس ونسيتم عيوبكم، العاشرة دفنتم أمواتكم ولم تعتبروا بهم، فهذه العشرة أشياء حجبت دعاكم و منعتكم الإجابة.

ومن كلامه رضي الله عنه:

هاكم فؤادي فإن لقيتم فيه أثرا * لغيركم فاجعلوا التعذيب مثواه

وهالساني فإن أنبأكم خبرا * عن غيركم صححوا تكذيب دعواه

وحدثوا سمي عن طيب كاظمة * ولعلع وانظروا إن كان يهواه

فان تكن أنت دون الناس بغية * فامنن علي ولو يوما بلقياه

إذا شربت وغُنَّ لي على قدحي * رأيت وجه حبيبي في محيّاه

ومن كلامه رضي الله عنه قال:

حبيب الله لا تأويه دار * ولا يأوي مكانا فيه جار

ولا يهتم في الدنيا برزقٍ * ويكره أن يكون له عقار

له من حب مولاه قميص * ومن تقوى الجليل له إزار

يفر من الديار إلى قفارٍ * ويبكي حين تنزله القفار

يقول ودمعة قد جرت من عيون * حبيبي إن قلبي مستطار

حبيبي لا أريد اليوم دار * من الياقوت تسكنها الجوار

فلي في وجهك المأمول سؤلي * ولي في ذاك عز وافتخار

ونرجع إلى ما كنا بصدده من سيرة إبراهيم بن أدهم، فمن كرامته رضي الله عنه كلام الغزالة ومخاطبتها له، وهو في الصيد، والثاني أنه لما خرج عن الملك وتوجه إلى المالك سخر له الأسد واللَّبؤة فكان الأسد يقيه المطر، واللَّبؤة تدفع عنه برودة الأرض وخشونتها، والثالثة تسخير الثعبان الذي كان في البستان، والرابعة إظهار الماء من تحت رجليه المباركة في قلعة السند، الخامسة اهدى الله على يديه اليهود والنصارى إلى الإسلام، السادسة الشجرة الرمان ومخاطبتها له وإظهار ثمرها وتسميتها برمانة العابدين، السابعة ركوبه الحوت وتعديته إلى جزيرة قبرص وتسخيرها له بإذن الله سبحانه وتعالى. وهذه السبع كرامات موجودة في الكتاب.

وكما خص الله تعالى أنبياءه بالمعجزات، خص أولياءه بالكرامات، وكما ابتلى نبيه أيوب بالديدان، ابتلى إبراهيم بن أدهم بالديدان لما كان ينقل الحطب على ظهره لما كان عند محمد الباقر رضي الله عنه، وكما كان قوم نوح يضربونه وشجوا رأسه، كذلك إبراهيم بن أدهم لما أخرجه خادم المسجد وجره من رجله شج رأسه وسال منه الدم على وجهه، وكما أن إبراهيم الخليل طالع ولده إسماعيل إلى القربان، كذلك إبراهيم بن أدهم لما اجتمع بولده جاءه الخطاب: يا إبراهيم محبة إثنين لا يسعها قلب، فدعا الله عليه فقبض روحه إليه، وكما أن يونس نبي الله التقمه الحوت، كذلك إبراهيم بن أدهم سخر الله له الحوت حتى ركبه وعداه جزيرة قبرص وظهرت كراماته وهدى الله على يديه القسيسين والرهبان، وكما أن يعقوب نبي الله بكى على يوسف حتى ابيضت عيناه، كذلك إبراهيم بكى من خشية الله حتى ابيضت عيناه، وكما أن عيسى بن مريم زهد في الدنيا، كذلك إبراهيم زهد في هذه الدنيا الفانية، واختار الدار الباقية، وترك الملك

والممالك، وتوجه إلى مولاه الخالق، وكما أن نبينا محمدًا ﷺ اجتهد في العبادة والطاعة إلى الله تعالى حتى تورمت منه الأقدام، كذلك إبراهيم اجتهد في العبادة والطاعة حتى ربط على بطنه الأحجار من الجوع ولم يلتذ بطعام أو منام وهذه أيضا موجودة في الكتاب.

ومما حكي عنه رحمة الله عليه انه كان ببغداد رجل من الزهاد والعباد سمع بإبراهيم بن أدهم وخروجه عن الملك، فطلب من مولاه بأن يجمع الله بينه وبين إبراهيم قبل وفاته، فجاءه النداء من العلي الأعلى: إذا قرب الأجل يكون الاجتماع بينك وبين إبراهيم بن أدهم.

فدخل إلى مكان موقد الحمام وفرش الرماد، وأخذ في التعبد إلى الله تعالى والاجتهاد في طاعة خالق العباد حتى فنى عمره وصار مثل الخلال، فطال عليه العهد وقرب من الوعد، فنادى ربه وناجاه، وقال: إلهي وسيدي ومولاي إن وعدك الحق وأنت لا تخلف الميعاد وقد فنى عمري ودنا ارتحالي وما بقي لي قدرة على خدمتك وعبادتك، وقد وعدتني قبل موتي بأن تجمع بيني وبين محبك إبراهيم بن أدهم، وأنا ما بقي لي حركة على النهوض.

وقد كان إبراهيم في لذة استغراقه، فأتاه النداء أن يا إبراهيم محب من أحبابنا طلبك منا، قم وانهض وتوجه إلى بغداد فهناك الاجتماع به وتبلغ المراد، فقام إبراهيم في الوقت والحين وتوجه إلى بغداد، وقال في نفسه: من يدلني على ذلك المحب ويرشدني إلى طريق الصواب، فجاءه النداء: يا إبراهيم تأتي إلى ذلك القميم الخراب تجد ذلك المحب، فقصد إبراهيم ذلك المكان ودخل القميم الخراب فرأى شخصًا ملقى على الرماد وهو يبكي وتجري دموعه على خديه، وقد نزلت الدموع على وجهه كطلق السيل، فجلس إبراهيم عند رجليه وأخذهما على ركبتيه وبكى إبراهيم لما رأى من حال هذا الكئيب الحزين.

فقال له إبراهيم: يا أيها المحب الصادق والخل الموافق، ومن أكون أنا بين الخلائق حتى تطلبني من الخالق، فقال ذلك المسكين: إني طلبت من مولاي أن يجمع بيني وبين محبة إبراهيم ابن أدهم في الدنيا قبل الآخرة، وقد سبق منه الوعد وقد قرب مني العهد، فعندها قال إبراهيم: أنا العبد الذليل العاصي الحقير أتيتك على عيني ورأسي وقد استجاب الله دعاك وبلغك مناك، فلما سمع ذلك الولي الصادق كلام إبراهيم فتح عينيه ومرغ وجهه على قدميه وشكر الله وأثنى عليه على بلوغ مراده قبل مماته واجتماع شمله وقصده، فرفع طرفه ذلك الولي إلى السماء وقال: لك الحمد يا ربّ قد بلغتني إربي، وما بقي لي حاجة في هذه الدنيا سوى لقاء المولى، وشهق شهقة فارق الدنيا رحمة الله تعالى عليه.

فعندها قال إبراهيم لتدارك تجهيزه وتكفينه، وقصد الخروج لينظر مصالحه، فإذا الملائكة ينزلون من السماء ورفعوه بالإعزاز والإكرام إلى جناب حضرة الكريم العلام، فبقي إبراهيم متفكرًا حيران في ذلك الإنسان وهذا ما انتهى إلينا من قصة ذلك الولي على التمام والكمال.

وهذه قصة الأربعين قطاع الطريق مع إبراهيم قيل إنه كان ذات ليلة متفكرًا في أحواله إذ رأى الرسول ﷺ في منامه ومعه أبو بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين فقال له النبي ﷺ: نسلك من نسلنا وحبلك متصل بحبلنا، في غد يجيء إليك بعض السراق من الزنادقة الفساق وقد يريدون قتلك ويكون واحدا من بعض الدراويش دليل عليك فلا تخالفهم، وإن طلبوك فاصبر على ضررهم فإن الله سبحانه وتعالى يحرسك من ضررهم وتكون توبتهم على يديك، فخاطبهم بلين الكلام وهذا بأمر الملك العلام.

ثم انتبه إبراهيم من منامه مرعوبًا، ومما رآه في منابه مكروبًا، فقام من ذلك المكان وكان قد صحبه من الفقراء والدراويش والمريدين نحو ثلاثين رجلاً، فقص عليهم رؤياه، وقال الذي يدل عليه من بعض الرفاق: يا سيدي كيف نكون في خدمتك ونقصد ضررك؟! فقال لهم: إن فيكم غمازً يدل علي، فقالوا: يا

سيدنا دلنا عليه حتى نخرجه من بيننا ونطرده من صحبتنا، فقال لهم: يا فقراء كيف يليق لي الغمز، والله يبغض الغماز، ولكن سوف يظهر لكم أحواله، فقالوا له: يا سيدنا فكل من يفعل هذه الفعال يُسَود الله وجهه في الحال، فقال لهم إبراهيم: يا مساكين هذا الكلام هذا بأمر الملك العلام.

فسار إبراهيم قدام تلك الفقراء حتى أتوا إلى بعض تلك الأسواق، صادفوا تلك السراق، فلما رأوا إبراهيم ذلك الأشرار كشف له ذلك الأسرار، فأراد الخروج من تلك المدينة قاصدًا نحو البرية، وهو مارًا في الطريق إذا رأى من ذلك الجماعة رجُلاً زنديق، فأتى إلى درويش من ذلك الدراويش فسأله، وقال له: من يكون منكم إبراهيم بن أدهم؟ وقد أعطاه بعض دراهم، فقال له: وما تصنع بابن أدهم؟ فقال: إن معنا بعض نذر وقرابين، فقال له: ذلك الرجل الطويل الذي على رأسه التاج الكبير، فلما عرفه وتحققه أتى إليه ذلك الشرير ومسكه من كمه وثوبه، وقال له: يا شيخ نحن لنا زمان طائفين البلاد عليك، وقاصدين إليك ومعنا من النذر والقرابين أربعين ومرادنا نضعهم بين يديك، فلما سمع إبراهيم هذا الكلام، قال: صدقت يا رسول الملك العلام، فقصد ذلك الشرير ليعمل الحيلة والتدبير، فلما أن سمع السلطان منه هذا الكلام فلم يرد عليه جوابًا، فحينئذ قال لأصحابه: من يكن منكم عرفه بنا ودله علينا؟ فتحيروا ذلك الدراويش وأخذتهم الحيرة والتشويش، فلم يرد أحدًا منهم كلامًا سوى أن قالوا له: يا سيدنا من يكن هذا الرجل حتى نطرده من بيننا؟ فقال لهم إبراهيم: يا مساكين الذي أظهر سرنا وكشف لهم أحوالنا يسود وجهه من بيننا.

فما استتم كلامه حتى اسود وجه ذلك الدرويش، فلما شاهدوا ذلك الدرويش وأحواله طردوه من بينهم ورجموه بالأحجار لما كشف لهم ذلك الأسرار، فلما رأى إبراهيم من ذلك الدرويش، حصل له التشويش، وترك تلك الفقراء وسار وحده في الأقطار، ولم يصحب أحدًا من أهل رفقته قاصد الخراب من البلدان، حتى انتهى به السير إلى قلعة خراب بعيدة عن الأتراب مسكن الحيتان والأفاعي لا يقدر أحد

يقرب إليها ولا يدخلها إنسان، فلما أن وصل إليها دخل القلعة وهو والهٌ حيران مما شاهده عيان، فجلس إلى جانب من المكان وقد أخذه البكاء والهوان، وأخذ يتضرع ويناجي الملك الديان بأن يساعده على هؤلاء الزنادقة الفجار، وأخذ في الطاعة والعبادة إلى خالق الأرض والسماوات، فلما عاينوا ذلك الفجار إبراهيم أخذ نحو البرية خرج إثنين من بينهم قاصدان إبراهيم، والبقية خرجوا في أثرهم.

فوصلوا ذلك الفاسقين الملحدين إلى إبراهيم قبل رفاقهم حتى هموا بقتله قبل وصول رفاقهم طمعًا منهم، فدخلوا على إبراهيم فوجداه ساجدًا راكعًا في مكانٍ إلى الملك الديان، فخاطباه بخشن الكلام، وقالو له: إن كان مرادك تخلص من يدنا أجب مقصدنا وألقي لنا المرقعة من عن ظهرك وفز بنفسك، فقال لهم إبراهيم: أنتما مجانين يا مساكين، وأي شيء مرادكما من هذه المرقعة؟ فقالا له: لا تطيل معنا في الكلام وإلا قطعناك بهذا الحسام، وأشهروا في أيديهم السيوف على إبراهيم، فأيبس الله أيديهم وأرجلهم وما بقي أحد منهم يقدر يتقدم إلى قدام، فأشار بيده المباركة إلى واحد منهم فبقي كالخشبة ليس فيه حركة، فلما شاهد رفيقه ذلك وما قد صار له هرب إلى وراه راجعًا إلى عند رفقائه وقد تغير لونه واضطرب فلما رأوه رفقاؤه قالوا له: ما الذي دهاك؟ وما الذي أصابك يا مسكين؟ فأحكى لهم قصته وما حصل لرفيقه من قلة الحركة والتعطيل، فقالوا له: أنتما قصدتما الطمع من بيننا ونويتما أخذ المرقعة والجواهر الذي فيها وحدكم، فمن أجل ذلك حصل لكما تلك المحنة والشدة من بيننا، فأجمعوا رأيهم على التوجه إلى إبراهيم وقتله، وأخذ المرقعة عن ظهره طمعًا بالذي فيها وقصدوه.

فبات إبراهيم تلك الليلة في ذلك المكان الخراب يعبد الله سبحانه وتعالى ويتضرع إلى وقت الصباح إذ سمع في أذنيه صريخ وصياح حتى تزلزلت له الأرض في الطول والعرض، فأخذته من ذلك الصعقة والصياح الدهشة والافتكار، وقال: يا إله العالمين ما تفعل بعبدك المسكين في هذه الخربة وطول الغربة، إن كان قد قرب الأجل فمرحبًا يا سيدي والأخذ بيد عبدك العاصي الذليل، فنودي في سره: يا إبراهيم إني أنا

الله رب العالمين الذي خلقت كل شيء وقدرته تقديرا، وإرادتي على عبادي، فاترك مرادك لمرادي، إن هذا المكان مسكن الحيات والأفاعي الصايلين على كل من عصاني من عبادي ولهم أربعين عامًا لم يخرجوا من هذا المكان، ولم يأكلوا لحمًا، ولم يشربوا دمًا، وقد أمرتهم بطاعتك وامتثال أمرك.

فلما سمع إبراهيم هذا الخطاب سجد شكرا للملك الوهاب، فرفع رأسه والتفت عن يمينه فرأ ثعبان بسبع رؤوس عظيم الشأن والخلقة، ثم التفت عن يساره فرأى حية برأسين عظيمة الشكل بوجهين ولسانين، فتقدموا وقبلوا قدميه وسلموا عليه بلسان فصيح بقدرة الله الذي يقول للشيء كن فيكون، فرد إبراهيم عليهم السلام ولم يأخذه منهم خوفٌ ولا ملام، فخاطباه وقالا له: يا إبراهيم لنا مدة أربعين سنة لم نأكل لحمًا، ولم نشرب دمًا، وقد أخذنا الجوع والعطش، وقد أمر الحق جل وعلا أن نكون في هذه الليلة ضيوفك، ونجيب أمرك وطاعتك، فقال لهم إبراهيم: لوجه رب العالمين الحمد والشكر ونحن عبيده وأنتم ضيوفه فاصبروا لعل الله يرسل لنا ولكم من خزائنه ما يرضيكم.

فبينما هم في الكلام إلا وأقبلت عليهم تلك الأربعين زنديق على سوابق الخيل كالليل، فلما قربوا من إبراهيم وشاهدوا تلك الأفاعي والثعابين بين يديه قائمين على أذنابهم، وفتحوا أفواههم وقصدوهم من كل مكان، وأحاطوا بهم البلاء، وأرموا عليهم شرر النار وضربوا بأذنابهم الأرض، فتساقطت أحجار تلك القلعة إلى الأرض فلما رأوا تلك الرجال هذه الأحوال فآيسوا من الحيات من أنفسهم، وكان في ذلك الوقت إبليس اللعين قد صحبهم، وقال لهم: هذا من بعض سحر إبراهيم فلا تخافوا من فعله، فلما رأى إبراهيم هذه الأفاعي والثعابين وقصدهم يهدوا المكان وكان بيده عصاة قد صحبها معه، فمرها بيده الكريمة على تلك الأفاعي والثعابين فسكنت بقدرة رب العالمين، فخاطبهم إبراهيم بلين الكلام وأبدا لهم النصيحة والتوبة إلى الله تعالى، فتمكن الشيطان في قلوبهم ووسوس في صدورهم، فلما رأوا تلك الأفاعي

رجعت عنهم داخلهم الطمع وقالوا: يا إبراهيم لابد أن تعطينا هذه المرقعة عن ظهرك وقد وهبناك نفسك، فقال لهم إبراهيم: ارجعوا وتوبوا إلى الله يا مساكين ولا تتبعوا الشيطان اللعين.

وقال لهم: يا مساكين أنتم صيادين كيف جئتم إلى هذا المكان الخراب مأوى الحيات وما يأوي إليه اتراب، فقالوا له يا إبراهيم: لا تطل معنى الكلام وألقى لنا المرقعة عن بدنك وأسلم نفسك، فقال لهم: بسم الله انزلوا خذوها، فترجلت منهم عشرون عن خيولهم ومسكوا الخرقة فلم يقدروا يرفعوها ولا من مكانها يحركوها، فأشار بعضهم إلى بعضٍ هذه الخرقة من ثقل الجوهر لم نقدر نرفعها، فتحققوا أنها أحجار قد صحبها معه من بلخ وخرسان وأراد أن يدفنها في هذا المكان، فعندها تبسم إبراهيم وقام على قدميه ورفعها عن الأرض بأصبعيه وألقاها بينهم من يده، فقعدت الرجال وفتقوا تلك المرقعة في الحال، فطلعت منها أحجار التقطها من حافة البحار، فلما رأوا تلك الأحجار لا تساوي درهمًا ولا دينارًا، قالوا له: يا إبراهيم أنت مجنون كيف تحمل هذه الأحجار على ظهرك وتدور بها في البراري وحدك، وكل من نظرها من الشطار يحسبها يواقيت من الأحجار، فقال لهم: يا مساكين أنا أحملها في الدنيا خوفًا غدًا من حمل الأوزار، وخوفًا من الملك القهار.

فعدوا تلك الأحجار فبلغت ألف حجر فرموهم على الأرض، فصاروا كالجبل كبير، فرأوا على بطنه حجرين كبيرين، فقالوا: وما هذه الحجرين المربوطين على بطنك؟ فقال لهما: اقتداء بجدنا المصطفى ﷺ سيد الأولين والآخرين وقد أخذنا هذه الأحجار بدلًا عن الجواهر واليواقيت نجعلها تحت أظهرنا بدلًا عن الفرش والوسائد الحرير، تواضعًا للملك القدير، ليحصل لنا بها الثواب عند حمل الأوزار يوم الحساب، وكان ﷺ يضع الأحجار على بطنه.

فلم تنفعهم هذه المواعظ، وقال بعضهم لبعض: اتركوا هذا الساحر وتوجهوا إلى غنيمة غيره، فقصدوا إلى خيولهم والتوجه إلى مقصدهم، فإذا الأفاعي قامت رؤوسها وفتحت أفواهها وقصدتهم من كل جانب فطلبوا الخلاص من أيديهم، فاستغاثوا: يا إبراهيم، وقالوا: يا سلطان خلصنا من أيدي هذه الأفاعي، وترجلوا عن خيولهم، وترامو على أقدام إبراهيم، وأخلصوا التوبة والنية الصادقة، فأخذ إبراهيم تلك العصا ومر بها على تلك الأفاعي فرجعت إلى مكانها ورجعت عنهم ونكست رؤوسها تحت أذيالها.

فلما عاين إبليس ما حصل من تلك الرجال من التوبة الصالحة وعقد التوبة والطاعة، فتخيل الشيطان بين يدي إبراهيم بالبكاء وحث التراب على رأسه وصرخ وناح بأعلى صوته وقال: يا إبراهيم لي أربعين عام أستخدم هؤلاء الأربعين في قتل النفوس وأخذ الحرام، وكانوا من جملة أصحابي، فاليوم أخذتهم من كيدي ومصائدي، يا إبراهيم إني قد تكلمت مع مائة ألف نبي وثلاثمائة، وثلاثة وعشرون مرسلًا، وأنا اليوم مرادي صحبتك وأتكلم معك، فقال: اخسأ يا ملعون، إن كان مرادك صحبتنا والتكلم معنا، ارجع واسجد إلى آدم أبينا، فقال إبليس: هيهات هيهات هذا أمر تعدى عنه وفات، فقال له إبراهيم: إذاً أنت من أعداء النبيين والمرسلين، ونعوذ بالله من شر إبليس اللعين ومن شر الشيطان الرجيم، فغاب في الوقت والحين عن أعين الناظرين، فلما أن شاهدوا تلك الرجال من إبراهيم هذه الأسرار عيان، فأخلصوا له النية وجددوا مع إبراهيم العهود والايمان وخلصوا باطنهم من الضلال والعدوان، وخلصوا أنفسهم من كيد الشيطان وتوجهوا إلى الله بالعفو والغفران، وجلسوا بين يدي إبراهيم وليس لهم قدرة على الكلام.

فبينما هم جالسون بين يدي إبراهيم، وإذا بذلك الدرويش المطرود المبعود قد أتى إليه وفي يديه حجرين يدق بهما عنقه وصدره وهو ينادي على ما أصابه وما حصل له من سواد وجهه، ورمي بنفسه على أقدام إبراهيم وقال له: يا سيدي ما فعلت هذا بقصدي، وأنا تائب لوجه ربي مما وقع مني، فعند ذلك قال

له إبراهيم: إن كنت تبت عن الغمز واللمز والغيبة والنميمة بيض الله وجهك إن أخلصت في توبتك، فما استتم الكلام حتى عاد وجهه كما كان بقدرة الله تعالى، فلما أن شاهدوا هذه الكرامات من إبراهيم قالوا له: يا كريم الفعال مرادنا أن تدعو لهذا المسكين بأن يعود على حاله القديم ولك الأجر العظيم، فقال لهم إبراهيم: أخلصوا النية وقولوا آمين، ونحن ندعوا الله بأن يعود هذا المسكين إلى حاله القديم، فما استتم الدعاء إلا والرجل عاد إلى ما كان بقدرة الملك الديان، فعندها قاموا الجميع وأخذوا العهد والمواثيق وبقوا من جملة الدراويش والمحبين إلى إبراهيم.

فعند ذلك قامت الثعابين رؤوسها قدام إبراهيم، وقالوا: قد وعدتنا في ضيافتنا ونحن قد أخذنا الجوع فأتنا بما وعدتنا، فعندها قال إبراهيم إلى ذلك الأربعين: إن كان قد أخلصتم التوبة، وأنتم تائبون، فاجعلوا هذه الخيول إلى هذه الثعابين قرابين، فقامت الأربعين في الوقت والحين وذبحوا خيولهم أجمعين، وقدموها إلى تلك الحيات والثعابين، فأخذوهم في نفسٍ واحدٍ ورجعوا إلى مكانهم، ثم قال لهم إبراهيم: إن كان حقا أنتم تائبون، ولنا محبون مخلصون، فإن كان لكم مال وأسباب فتصدقوا بها على الفقراء والمساكين، فقالت الرجال: كل شيء كان لنا قد خرجنا عنه لوجه الله.

فبينما هم في الكلام، وقد أتاه الخضر عليه السلام في صورة شاب مليح الشباب، فسلم على إبراهيم وقال له: الحق جلَّ وعلا قد قبل توبتهم ببركة دعائك لهم، فلما رأى ذلك الأربعون الخضر عليه السلام، قالوا: يا سيدنا من يكون هذا الشاب الفصيح صاحب الوجه المليح؟ فقال لهم: هذا أستاذي ومعلمي وصاحب إرشادي ودليلي إلى الطريق، فقالوا له: يا مولانا ناشدناك الله بأن تشفع لنا عنده أن يأخذنا إلى زيارة بيت المقدس صحبته.

فإذا هم في هذا الكلام، إلا وقد جاءت تلك المريدون الثلاثون الذين قد تركهم إبراهيم فاجتمع الدراويش وتلك الأربعون وتوجهوا صحبة الخضر عليه السلام إلى بيت المقدس ومن بيت المقدس إلى بيت الله الحرام وهذا ما انتهى إلينا من قصة الأربعين الخارجين من كتاب التركي بلا زيادة ولا نقصان وهذا تمام الكلام.

ومما نقله الدرويش الرومي في كتاب التركي، أن السلطان إبراهيم لما كان في مكة وهو جالس على سريره وتخته، سمع بملك السند، يقال له زياد، وكان من أهل الكفر والعناد، وكان جبارًا عنيدًا يستأسر من يجده من أهل التوحيد، وكان في حبسه عشرون ألفا من المسلمين وعشرة آلاف من الكفار الملحدين، وكان إبراهيم بن أدهم قصد ذلك الجبار العنيد بأن يفتح بلاده ويخلص المظلومين من أيدي الكفرة والمشركين، فلم يتيسر له فتحها من شدة بنائها، وعظم حصنها، وقد قصدها سبع مرات وبقي في قلبه نار تشتعل من أجلها، فلما ترك الملك والتاج والسرير، وتوجه إلى جانب الملك الجليل، فبينما هو نائم ذات ليلة في لذة المنام، إذ رأى محمد سيد الأنام، وخاطبه: يا إبراهيم قم وانهض على بركة الله تعالى الكريم وتوجه إلى مدينة الملك زياد، تبلغ منه المراد بعناية الجواد، وتملكها وتكون سببًا لإسلام أهلها وخلاصهم من الكفر والضلال، وتخليص ذلك المحبوسين المظلومين، بعدما عجزت عن فتحها وأنت سلطان، قم إليها ولا تنم.

فانتبه إبراهيم مرعوبًا من هذا المنام، وقد زاد به الوجد والغرام، وقال: يا معين الصابرين، ويا مجير الخائفين، وفقنا على الطريق المستقيم، فعندها قام إبراهيم في الوقت والحين، وقصد بلاد السند والصين، وسار في البراري والقفار، حتى وصل إلى بلاد تلك الكفار، وقصد تلك القلعة فدخلها على حين غفلة من أهلها، فعلموا به تلك الكفرة والمشركون، وقال بعضهم لبعض: هذا محمدي من المسلمين أتى إلى بلادكم، يتوقع على أحوالكم، ويقف على حصنكم وأخباركم، ويكون سببًا لفتح حصنكم وبلادكم، فأخذوا

إبراهيم من كل جانب، وقصدوا قتله، وقالوا: ليس له في قتله مطالب، فلما رأى إبراهيم هذا الحال، لما قصدوه تلك الرجال، وقد تيقن قتله، فقال في نفسه: يا سيدي ومولاي، أتيت بي إلى هذا المكان لتجعلني إلى هذه الكفرة قربان، ولكن أرجوا أن أكون من جملة الشهداء والسعداء عند حوض سيد الأكوان.

قال: فكان ذلك الوقت أشرف الملك من أعلى قصره فوقعت عينه على إبراهيم لما نظره، فقال لهم: ما الخبر؟ فقال له: يا سيدنا إنه قد وجدنا في القلعة رجل من قوم محمد سيد البشر، فقال لهم: لا أحد يقرب إليه بضرر، بل أسرعوا لنا في إحضاره، لنقف على فعله وصحة أخباره، فأسرعوا في الحال، وأحضروا إبراهيم إلى حضرة ذلك السلطان.

فلما رآه ذلك الملك قربه إليه وأوقفه بين يديه، وقال له: يا أيها الإنسان من أين أتيت؟ ومن أي البلاد أنت؟ أما خفت منا؟ أما سمعت بسطوتنا من سائر الملوك؟ إنما أنت جاسوس تريد تأخذ قلعتنا، فعندها قال له إبراهيم: يا أيها المغرور المسكين الغارق في بحار الضلالة والفجور، ما أنا جاسوس، ولا قاصد بفعلي القوم النحوس، إنما جئتك ناصحًا، وإلى خلاص نفسك من الكفر والضلال واضحًا، وإنما أتيتك بأمر الملك العلام الذي ليس له في ملكه شريك ولا معاند، قم وانهض على الأقدام وأسلم وجهك إلى الملك العلام، تنجو من عذاب النيران، وتحظى بالحور والغلمان، في جوار النبي العربي العدنان، وتشاهد وجه الملك العلام، الذي لا يغفل ولا ينام، تسلم أنت وأتباعك وجندك وأشياعك.

فلما أن سمع من إبراهيم هذا الكلام انذهل عقله وغاب عن الصواب، فقال له: ما كفيت السلامة من أيدينا حتى تخرجنا من ملتنا ودين آبائنا، فعند ذلك أمر بحبس إبراهيم والتقييد، واحفظوه إلى الصباح، حتى نجعله عبرة في سائر الأقطار والبطاح.

فأخذوا إبراهيم بالغصب والتشديد، وأدخلوه في مكان مظلم، ووضعوا في يديه الأغلال والحديد، وأغلقوا عليه الأبواب والأقفال، وتركوه على هذا الحال.

فلما أن تركوا إبراهيم في هذا الزندان تضرع إلى الله وقال: يا إلهي يا عظيم الشأن، يا جميل العفو والإحسان، يا مولاي هذه الأمور، والقدر المقدور، عوضًا عما سلف مني من ظلم العباد، ووضع الحديد في رقاب المظلومين، يا رب العالمين لك الحمد يا مولاي يا فعال لما تريد، وبكى ونادى مولاه بقلب حزين وقال: يا غياث المستغيثين، يا أنيس المستوحشين، يا فارج الهم عن المهمومين، أجرنا من شر الكفرة الظالمين، وكان ذلك الزندان مظلمًا معتمًا كأنه من أبيار جهنم، وكان في هذا الزندان من المحبوسين عشرين ألفًا من المسلمين، وعشرة آلاف من المشركين الكفار، فلما سمعت المؤمنون مناجاة إبراهيم تحققوا، وقالوا لبعضهم البعض: هذه مناجاة أصحاب محمد سيد المرسلين، فعند ذلك صاحت المسلمين وأعلنت بالتهليل والتكبير وكلمة التوحيد، وقالوا له: يا أيها الرجل الصادق مع الله من جابك إلى أعداء الله؟ فلما سمع إبراهيم كلام المحبوسين قال: يا كاشف الكرب عن المحزونين يا الله يا ذا الجلال والإكرام يا رب العالمين أزل عنا ما نحن فيه من هذه القيود والحديد، يا رب يا ودود يا فعَّال لما تريد، إني عبد من بعض العبيد.

فما استتم كلامه رضي الله عنه إلا والأغلال تساقطت من أيديهم بقدرة الملك القادر، فتقدم إبراهيم إلى تلك المحبوسين، وسألهم عن حالهم، وما سبب حبسهم واعتقالهم، فأجابوه بقلب حزين: يا أيها الرجل الكريم، نحن من بلاد المسلمين، ولنا مدة في اعتقال هؤلاء المشركين، ونحن من بلاد متفرقين، ومنا أناس إلى بلاد العرب متوجهين، ومنا جماعة إلى بلاد بلخ والعجم سائرين، ومنا رجال إلى نحو إبراهيم زائرين ومسافرين، فعند ذلك لما سمع إبراهيم منهم هذا الكلام، فاضت عيناه بالدموع على خديه، وأجرى العبرة من جفونه، وتوجه إلى مولاه بالدعاء، وقال: يا رب الأرباب ويا مسبب الأسباب ومعتق الرقاب ويا مفتح الأبواب، اجعل لنا من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا، يا قريب يا مجيب لا ترد دعاء عبدك الكئيب، ولا تفضحني بين هؤلاء العبيد، إنك على كل شيء قدير.

فعند ذلك ما استتم إبراهيم الدعاء حتى تساقطت تلك الأغلال والقيود والحديد من أعناقهم وأيديهم وأرجلهم، وقد تخلصوا من اعتقالهم بقدرة الرب المجيد، فلما شاهدوا هذه الكرامات من إبراهيم، تسارعوا يقبلوا أيديه ورجليه، فقال لهم يا مساكين: أليس مرادكم التوجه إلى أوطانكم وبلادكم؟ فقالوا له: يا سيدنا كيف خلاصنا من هذا المكان والمشركون أحاطت بنا ولنا مدة في أيدي هذه الكفرة الأشرار؟ وكيف لنا الوصول إلى الديار ولنا أولاد وعيال يبكون علينا الليل والنهار ونحن نقاسي الذلة والهوان في هذا الزندان؟ إذا أراد الله خلاصنا، فكيف نتوجه إلى أوطاننا وبلادنا ونكون وعيالنا داعيين لكم حتى يفنى زماننا؟

فعندها أشار إبراهيم إلى حائط الزندان، فانشق بقدرة الواحد الديان، وكان لذلك الزندان سبع طبقات من صلد الأحجار من عمل العفاريت الكفار، فلما رأوا فرجة حائط الزندان، قال له إبراهيم: انهضوا وتوجهوا إلى أوطانكم على بركة الله ورسوله الكريم، فخرجت الأسارى من المسلمين وبقيت العشرة آلاف المشركون، فمال إليهم إبراهيم وأعرض عليهم الإسلام، فأسلموا جميعًا لما رأوا من إبراهيم البرهان، وأقروا لله تعالى بالربوبية، ولمحمد ﷺ بالرسالة، فأشار إليهم إبراهيم بأن يتوجهوا من حيث توجه المسلمون ولا يقف منكم أحد حتى لا يعرفكم المشركون، فخرجت تلك العشرة آلاف المحبوسين سائرين ومجدين، وإلى نحو بلادهم قاصدين، وبما أنعم الله عليهم حامدين شاكرين، وبقى إبراهيم بن أدهم في الحبس وحده، مقيم طول ليلته، يحمد الله ويقدسه ويمجده على ما يسره الله تعالى من خلاص هؤلاء المظلومين، من الكفرة الفجرة المشركين.

وكان ذلك الملك لما رأى من إبراهيم قوته وشدة جنانه، أضمر له الكيد في نفسه لما أعرض عليه الإسلام، وقال: غدًا يا غلمان آتوني بهذا الجاسوس أذبحه بيدي وآخذ دمه وأضعه في قدحي وأشربه في شراب لينسر فؤادي، وبات طول ليلته متفكرًا في إبراهيم، ولم يلتذ بمنامٍ إلى الصباح، فأمر السجانين

بإحضار إبراهيم، فلما قربوا من السجن، رأوا حيطانه مهدمة، وأحجاره مبددة ملقية على الأرض، وما بقي فيه أحد، ورأوا تلك الأغلال والسلاسل فارغة ملقية، فأتوا ذلك الحراس والموكلين وقالوا لإبراهيم: من أطلق هؤلاء المسجونين وهذا الحديد والأغلال من أعناقهم؟ فقال لهم: يا مساكين أطلقهم رب العالمين القادر على كل شيء، الفعال لما يريد، وهو على كل شيء قدير.

فلما رأى ذلك السجانون، وما حل بهؤلاء المسجونين، فسارعوا إلى الملك وأخبروه بقصتهم وأحوالهم، وكيف خربت حيطان الحبس وتبددت، وتلك السلاسل والأغلال ملقاة على الأرض، فلما سمع الملك هذا الكلام، ما بقي له عقل ولا نظام، وقام ذلك الوقت من ديوانه، وأسرع مع عسكره وخدامه، وأتى ذلك المكان، وقال إلى السجان: من فعل بنا هذه الفعال؟! فقالوا: ما رأينا غير هذا الفقير المحمدي الجاسوس المحتال، فأمر الملك بإخراج إبراهيم من الزندان، فلما رآه وليس بيده حديد ولا قيد ولا أغلال، فقال لهم الملك: أما وضعتم في رقبته السلاسل والأغلال؟ فقالوا له: وحق القس والمطران قد وضعنا في يديه ورجليه ورقبته الحديد والأغلال، وها هي ملقاة قدامه وسائر الأغلال التي كانت في أيدى الأسارى كالتل الكبير ملقاة في الحبس، فقال له الملك: من فعل بنا هذه الفعال وأخرج تلك الأسارى من حبسنا؟ قال له: أخرجهم مولاهم القادر القاهر مدبر الليل والنهار، الذي يخلص المظلوم من الظالم، خالق السماوات والأرض.

قال: فازداد الملك ذلك الوقت غضبًا وكفرًا وتحيرًا، وقال: بل أنت أخرجتهم بمكرك وسحرك، فاليوم نجازيك بفعلك وقبيح عملك، فخاطبه إبراهيم بقلب سليم: يا أيها المغرور المرتكب الظلم والجور والفجور، أما علمت أن الله سبحانه وتعالى حليم رحيم كريم، غفار يغفر ذنوب العاصين ويستر ذنوب المذنبين ويقبل توبة التائبين ويعفوا عن الخاطئين وهو رب الأولين والآخرين.

فلما أن سمع الملك هذا الكلام من إبراهيم قال له: يا أيها الساحر المحتال أما تنظر هذه الأصنام التي نعبدها، وهذه الأوثان التي نعتبرها، هل فيه إله أو رب سواها، فقال له إبراهيم: يا أعمى القلب من فيه غير هذا الرب الذي خلق الليل والنهار، وأنبت الأشجار والثمار، ومجري المياه ومرسل البحار، ومسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى بمقدار، لا إله إلا هو الواحد القهار، توجَّه أيها العاصي إلى جنابه ولُذ ببابه وأسلم بقلبك تخلص من عذاب النار.

فقال الملك لا بد من قتلك واهراق دمك وانظر إلى مولاك الذي تعبده كيف يخلصك من أيدينا، وأمر بتقييد إبراهيم ووضعه في السلاسل والحديد فصعق إبراهيم بقلب قريح: يا الله، فتساقطت تلك السلاسل والحديد من عنقه بقدرة ذي الجلال والإكرام، فلما رأى تلك الحديد والسلاسل لا تفيد، فقال الملك: ضعوه تحت الصخرة التي هي في الديوان من زمن شداد بن عاد[48].

فأخذوا إبراهيم إلى عند تلك الصخرة ليضعوه تحتها فلم يقدروا على تحريكها، فاجتمعت إليها سائر الكفار ليضعوها على ظهر إبراهيم فلم يقدروا يحركوها من مكانها، فلما رآهم إبراهيم بن أدهم قد عجزوا عن تحريكها، فتقدم إليها إبراهيم ورفسها برجله، فذهبت مقدار رمحين عن مكانها، فلما رأى الملك ومن حوله ما فعله إبراهيم قالوا: هذا ساحر عظيم، فقال لهم إبراهيم: يا ويلكم لا تفتروا وتنكروا ما رأيتم من قدرة الله سبحانه وتعالى معين عباده وأهل وداده، ومعرضًا عمن أنكر قدرته وجحد نعمته، وأنت يا أيها العاصي لمولاه، تتقلب في انعامه، وتتخذ إلها سواه، فأسلم إليه بقلبك وتوجه إلى ربك فإنه كريم غفار، فعسى يجيرك غدًا من عذاب النار، وتكون من أمة سيدنا محمد ﷺ النبي المختار، مع الأحباب والأصحاب

---

[48] هو شداد بن عاد بن عوص بن إرم بن سام بن نوح بن لامك بن متوشلخ بن اخنوخ وهو إدريس بن يرد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم أبي البشر.

وهو ملك عربي أحد ملوك قوم عاد من العرب البائدة ارتبط اسمه الوثيق بتشييد مدينة إرم ذات العماد الوارد ذكرها في القرآن الكريم، كان شداد وأخوه شديد يحكمان كلاهما على قوم عاد، بعد أن ملكا بعد والدهما، الملك عاد بن عوص، الذي سميت القبيلة على اسمه وكان مؤسسها وأول ملك عليها. كان لشداد بن عاد ابن يدعى مرثد بن شداد، وكان مرثد هذا على ما يقال مسلما مؤمنا بنبي الله هود عليه السلام (انظر: الأعلام للزركلي ج3، ص242؛ التيجان في ملوك حمير لعبد الملك بن هشام الحميري المعافري ص74).

الكرام، يوم لا ينفع مال ولا سلطان، إلا ما قدمت من عملك، يوم تحشر في لحدك وحيدًا فريدًا ليس معك جند ولا غلمان، ولا مال ولا بنون، إلا من أتى الله بقلب سليم.

فلما سمع الملك من إبراهيم هذه المواعظ أخذت عقله، وانذهل لبه، مما شاهده من أسراره وكراماته، فأطرق ساعة في الأرض متفكرًا حيران من هذه الأفعال، ثم قال: يا أيها الشيخ الكريم الصالح إن لي مشكلًا قد خطر في نفسي، إن أنت كشفت عني ذلك الكربة أجبتك إلى سؤالك وما تريد، ودخلت في دينك وأسجد إلى إلهك وأتبع دين نبيك، وأعلم أن الذي أنت عليه حق وصدق، فتقدم إبراهيم إلى عند الملك وقال: ما الذي خطر ببالك؟ وما سألت به نفسك؟ فقال: يا شيخ إن قلعتنا هذه حصينة ليس لأحد قدرة عليها من الملوك والسلاطين، مشيدة البناء والأركان ليس بها ما يعيبها من الحصار إذا قصدتنا الأعداء والسلاطين إلا قلة الماء، فإذا أنت دعوت ربك حتى يخرج فيها الماء الزلال فندخل في دين الإسلام، ونكون لك عبيدًا على مر الأزمان، لأنه قد أتانا سلطان بلخ وخرسان مدة من الزمان وقصد أخذ قلعتنا من أيدينا فلم يقدر علينا سبع مرات، ولم يتيسر له فتح حصننا، لكن كان يجهدنا العطش من قلة الماء، واليوم بلغنا أنه تفرغ من الملك السلطان، وترك الأموال والأهل والأوطان، وصار درويشًا في رضى الملك الديان.

فلما سمع إبراهيم هذا الكلام من الملك تزايد به الوجد والغرام، وقال للملك: في أي بقعة تريد ويظهر لك الماء عيان؟ فقال له: إن في وسط قلعتنا ميدان مفترجًا ومفتوحًا إلى كل إنسان، وفي وسط ذلك المكان صخرة عظيمة الشأن، فقال لهم إبراهيم: توجهوا بنا إلى ذلك المكان فإن الله تعالى قادر على ما يشاء ويختار، فقام ذلك الملك ومن حوله من الوزراء والحجاب والجند والغلمان والقسوس والرهبان حتى وصلوا إلى ذلك المكان، فرأى إبراهيم بن أدهم مكانًا واسع الأركان، وفي وسطه صخرة كالجبل العظيم، فلما قرب منها إبراهيم قال لمن حوله من الحاضرين: إذا أخرج الله تعالى لكم من هذه ماء تأتوني طائعين

وإلى الله سبحانه تعالى مسلمين؟ فقالوا له: إن أنت أخرجت لنا من هذه الصخرة ماء ندخل في دينك، ونسلم على يديك الخاص والعام، ولا يتخلف منًّا إنسان. فأخذ عليهم العهود والمواثيق، بأن لا يبقى منهم فاسق ولا زنديق.

فعند ذلك تقدم إبراهيم بن أدهم إلى قرب الصخرة وتيمم وصلى لله سبحانه وتعالى ركعتين وقال في سجوده: يا رب الأرباب، ويا منشئ السحاب، ويا منزل الغيث من خزائن الغيب، ويا مجري العيون والأنهار، ويا مسخر البحار، ويا خالق الليل والنهار، ويا محي الأرض بعد موتها إنك على كل شيء قدير، وبحال عبدك الضعيف خبير، لا تفضحني بين عبادك يا عليم يا عظيم يا كريم يا الله.

فما استتم كلامه إلا والخضر عليه السلام أتى وتمثل بين يديه، وسلم عليه، وقال: يا صاحب الأسرار إن الله سبحانه وتعالى قد سخر لك هذه الصخرة اركضها برجلك يخرج لك منها الماء بقدرة الله تعالى الذي يقول للشيء كن فيكون، فعند ذلك تقدم إبراهيم إلى قرب تلك الصخرة ورفسها برجله، ففاضت إلى ركبتيه، ثم أخرجها وإذا بالماء وقد تدفق من تحت رجليه، وقد جرى على وجه الأرض، وطاف بالأزقة والأسواق والطرقات والبيوت بقدرة القادر الخالق، فلما شاهد الملك ومن حوله من الوزراء والأعيان والقسوس والرهبان، ترامُوا على أقدام إبراهيم يقبلوها وعلى رؤوسهم يضعوها، وحملوا إبراهيم إلى الديوان وأسلم كل من حضر في ذلك المكان، وأعلنوا بكلمة التوحيد والإيمان إلى الملك الديان، ونادى السلطان حينئذ إلى من حوله من الرعية الخاص والعام، بأن يتابعوه في دين الإسلام، وكل من يأبى علوت رأسه بالحسام، فأسلموا الجميع، ولله أمرهم سلموا، وأعلنوا بكلمة بالإسلام، وأقام إبراهيم عندهم برهة من الزمان، يعلمهم شرائط الإسلام والصلاة والوضوء وشرائع الإيمان، وتلاوة القرآن وسنة النبي عليه من الله أفضل الصلاة وأتم السلام وعلى آله الكرام.

وكان بين ذلك الجماعة وزير مكار لا يصطلي له بنار، وقد أضمر الكيد في قلبه حسدًا لإبراهيم، وأظهر الإسلام خدعة ومكرًا، وأضمر لإبراهيم الحيلة والمكيدة، فأظهر الله تعالى لإبراهيم ما أضمره ذلك الوزير من الحيلة والتدبير والتزوير.

فجلس يومًا في المسجد للذكر والتسبيح مع الكبير والصغير، وأعطى إلى من حضر سبحة يسبح بها رب العالمين، ويخلص بقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، وكان ذلك الوزير المنكر على إبراهيم يقول: لا إله إلا الله، ولم يقول محمد رسول الله، فقال له إبراهيم: قل لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ، فقال له الوزير: ما مرادك إذ أقول كما يقولون؟ فقال له إبراهيم: يا أيها المنكر على ربه، لم لا تقل محمد رسول الله، ولم تحرك شفتيك وأنا أنظر إليك لم تتحرك شفتاك، فعلمت أنك لم تؤمن بقلبك، ومكر وفساد اعتقادك، فقال له الوزير المنكر: الله أكبر ما أعجب سحرك يا ساحر، أنت الذي أبطلت دين آبائنا وأجدادنا.

وخرج من بينهم وفي قلبه لهيب النار، وأضمر لإبراهيم البغض جهارًا، وقصد قتله من شدة بغضه وحسده، فتركه إبراهيم ولم يلتفت إليه، وكان قد أخذ إبراهيم القلق والوسواس، وخرج ظاهر المدينة بعيدًا عن الناس، فرأى شجرة عظيمة قد دلت أغصانها، وأرخت على وجه الأرض ظلالها، فأتى إليها إبراهيم فتوضأ وصلى ركعتين، وجلس يذكر الله تعالى ويحمده ويمجده على ما أنعم الله به عليه، فأخذته سنة من النوم، فنام تحت ظل تلك الشجرة، فجاء ذلك الوزير يتفقد إبراهيم، فسأل بعض الغلمان فقال لهما: أين هذا الدرويش؟ فقالوا له: قصد ظاهر القلعة والتجأ إلى تلك الشجرة، فقال في قلبه: هذا وقت الفرصة، فأخذ في يده سيفًا من البولاد وقد أضمر قتل إبراهيم، وقال: اقتله وأشفي قلبي.

فتوجه نحو تلك الشجرة لقتل إبراهيم، فلما قرب منه فرأى على رأسه أسدًا عظيمًا، فلما شاهده الوزير ووقع نظره عليه حمل ذلك الأسد وقصد أن يفترس ذلك الوزير، وهمهم وأرعد وأرغى وأزبد وقرب إليه، فصاح الوزير وقال: يا درويش، فانتبه إبراهيم من نومه كالولهان من ذلك المكان، فرأى الأسد

فاتحًا فاه قاصدًا نحو الوزير، فأشار إبراهيم إلى ذلك الأسد أن ارجع عنه، فلما رأى الأسد مرغ وجه على أقدام إبراهيم، وهمهم وتوجه نحو الجبل، فلما أن شاهد الوزير من إبراهيم هذه الكرامات، ألقى السيف من يده، ووقع على رجل إبراهيم يقبلها ويديه، وقال: يا سيدي بحق مولاك إلا ما عفوت عن زلتي، وقبلت توبتي، فقال له إبراهيم: إن ربي غفور رحيم، يغفر ذنوب العاصين، ويقبل توبة المذنبين التائبين إلى جناب رب العالمين، فعندها قال له: يا سيدي إنك على الحق والطريق المستقيم، وأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله.

فقام إبراهيم ودخل المدينة والوزير بين يديه، فعلم الملك وسائر العباد بما جرى للوزير مع إبراهيم وذلك الأسد، فعند ذلك قال له الملك: يا سيدنا وهادينا إلى طريق الإسلام، أخبرنا من أنت؟ ومن أي البلاد أنت؟ وما اسمك بين العباد حتى نعترف بفضلك؟ فقال: لا بد من صدق القال والكلام، وإظهار أسرار الملك العلام، أنا السلطان إبراهيم بن أدهم ملك خرسان وبلخ.

فلما أن سمع الملك من إبراهيم هذا الكلام، قام على رجليه وأخذ يقبل رأسه ويديه، وقال: الحمد لله الملك المنان، على ما أولانا من فضله والإحسان، وهدانا على يديك إلى دين الإسلام، وألحقنا بأمة محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام، وخلصنا من عذاب النيران، وبعده قامت الوزراء وسائر الأعيان، وجميع القسوس والرهبان، وقبلوا يديه ورجليه، وشكروا الملك الديان، وقالوا له يا سيدنا: لك المنة والفضل علينا، وأنت كنت قبل اليوم أكبر أعدائنا، واليوم لله الحمد صرت حبيبنا ومحبًا لنا، ونرجو من كرمك وإحسانك بأن تقيم عندنا تهدينا إلى شرائع الإسلام، وتعلمنا القرآن.

فعند ذلك شرع الملك في عمارة المساجد والمدارس لتعليم تلك الطوائف وإرشادهم إلى الطريق المستقيم، وأخذ في بناء تكية، وعمارة وصدقة جارية إلى حضرة السلطان إبراهيم، وجعل لها أوقاف وخيرات، وتخلف له خلفاء ومريدون وفقراء ومحبون إلى يومنا هذا في بلاد السند مقيمون، وهذا ما انتهى إلينا مما كتبه الدرويش حسن الرومي في كتابه على التمام والكمال والسلام.

وهذه قصة رابعة العدوية ومما حكي عنه رضي الله عنه معها، لما قضى مراده من ملك السند، قصد التوجه إلى مكة المشرفة، فقصد متوجهًا نحو أراضي بيت المقدس، وطلع إلى جبل الطور، وزيارة تلك الأماكن، وكانت رابعة العدوية رضي الله عنها تجتمع في مجلس إبراهيم من غير دستور، فدخل يومًا إلى عندها يجالسها، فبينما هما في الكلام إذ دخل عليهم الرجال من السادات الكرام، وكانت رافعة البرقع عن وجهها وهي جالسة مع إبراهيم بن أدهم بلا حجاب، فلما أن دخلت الرجال عليهم أرخت على وجهها النقاب، فعندها قالت لها الرجال: أنت تخاطبينا من وراء الحجاب وتجالسي ابن أدهم بغير نقاب، فقالت لهم: يا أيها السادات الكرام، لو أبديت لكم وجهي ما كان يستقر لكم حال، بل كنتم تخرجون من عقلكم والصواب ويداخلكم الوسواس، ولكن ابن أدهم خرج عن ملك خرسان، وترك التاج والسرير، وترك سبع أقاليم، وكان في مطبخه ثمانون جارية مثلي، تصحب المسك والعنبر الخام لأجل الطعام، وأنتم عن أي شيء خرجتم، وأين لكم مثل ملكه تركتم.

فلما أن سمع إبراهيم منهم هذا الكلام، داخله الوجد والغرام، وقام مغضبًا من عندهم، وكان بالقرب منه صخرة عظيمة نابتة في الأرض، فرفسها إبراهيم برجله ففاضت في الحجر إلى ركبته وخرجت من مكانها إلى الأرض، فلما شاهدوا من إبراهيم هذه الأسرار والكرامات، أتوا إليه وقبلوا يديه واستغفروا مما وقع منهم من عثرات اللسان، فعندها لما رأت رابعه تلك الصخرة انفلقت من مكانها برفسة إبراهيم،

أوصت رابعة بأنها إذا ماتت يضعوها عند رأسها، وهي الآن مشهورة عند رأس رابعة رضي الله عنها في جبل الطور.

وقيل إن رابعة رضي الله عنها تكون زوجة إبراهيم بن أدهم في الجنة، وكذلك عبد الرزاق زاده مع بنت قيصر، ومجنون ليلى، يتزوجون في الجنة بين الحور والغلمان، وهذا أيضا وجدناه مكتوبًا في الكتاب التركي.

وهذه حكاية بيعة نفسه إلى تلك العجوز، فمما حكي عنه رضي الله عنه، أنه كان مارًا ببعض الطرقات فرأته عجوزة جالسة عمياء مقعدة، فتعلقت بأذياله وقالت له: شيء لله، ولي أولاد صغار أيتام، ولهم ثلاثة أيام ما ذاقوا طعامًا، فقال لها: لا أملك إلا نفسي خذيني وبيعيني وأنفقي على طعام أولادك، فقالت له: ومن يشتريك مني؟! فقال لها: أنا أبيع نفسي لك.

فبينما هما في الكلام إذ أقبل تاجر يهودي قد قدم عليهم، وقال لهما: فيما تتنازعون يا مساكين؟ فقال له إبراهيم: يا هذا اعلم أني مملوك إلى والد هذه العجوز، وقد افتقرت واحتاجت إلى ثمني، ومرادها تبيعني، فقال لهما التاجر اليهودي وكم الثمن؟ فقال: دية الذمي، فاشتراه ذلك التاجر، وقبض إبراهيم الثمن بيده وسلمه للعجوز، وأخذ التاجر اليهودي إبراهيم بن أدهم يستعمله في العمل، فأظهر الله له أسراره فأسلم ذلك اليهودي وأولاده وأتباعه، وقيل أهل المدينة أجمعين، وهذه من بعض كراماته موجودة في هذا الكتاب التركي.

ومما حكي عنه رضي الله عنه أنه كان جالسًا ذات يوم إذ دخل عليه بعض الأحباب والأصحاب من السادات المقربين الأنجاب، وجلسوا بين يديه في الخطاب، وقالو له: يا سيدنا بالله عليك بما وصلت إلى هذه المرتبة العلية؟ قال لهم: يا إخواني نلتها بست خصال، فقالوا: وما هي؟ قال: الأولى بصدق النية

مع الله تعالى، الثانية بالصبر والفقر، الثالثة بالغنى، الرابعة بالصبر، الخامسة بالإحسان إلى من أساء إلي، السادسة بالمجاهدة في العبادة والرياضات، وهذه أيضًا منقولة من الكتاب. وهذه أيضا حكاية ابن الجوزي وهذه الأبيات التي تقدمت وهي هذه الأبيات:

يا راقدَ الليل مسرورًا بأوله * إن الحوادثَ قد يطرقْنَ أسحارا

لا تفرحنَّ بليلٍ طابَ أوَّلهُ * فربَّ آخرِ ليلٍ أجَّجَ النَّارا

وحكى عنه رضي الله تعالى عنه أنه كان ذات يوم في سياحته، إذا دخل مدينة، فرأى جماعة آخذين رجلًا ليصلبوه، فلما رأى ذلك الرجل إبراهيم بن أدهم فاستغاث به، فقال لمن حضر من الرجال: ما جرمه وما الذي فعل؟ قالوا: إنه من أهل الفساد ومن جملة قطاع الطريق وأهل العناد، فقال: أطلقوه ولكم عندي أربعون ألف درهم ديته، فأطلقوه وقالوا له: هات الدراهم الذي قلت عليها، فكان في يده عصاة فأعطاها إلى ذلك الرجل، وأتى إلى مقبرة وقال له اضرب بهذه العصاة هذه المقبرة، فضربها فخرج منها دم، فقال له: اضرب بها ثانيًا، فضربها فخرج منها قيحًا وصديدًا، فقال: اضرب بها ثالثًا، فضربها فطلع منه جوهر، فتحيرت الحاضرون من هذه الإشارات، فسألوه عن ذلك، فقال لهم إبراهيم: أما صاحب القبر الأول كان سفاكًا للدماء، وأما صاحب القبر الثاني كان يأكل الحرام وأموال الناس بالباطل، وأما صاحب القبر الثالث كان لا يفتر لسانه عن قراءة القرآن ليلًا ولا نهارًا ويعمل بما جاء به، فأخذ ذلك الرجل تلك الجوهرة فباعها فساوت أربعين ألف فدفعها إلى ذلك الوالي، وتفرقوا من ذلك المكان وانصرفوا، وأما الرجل فإنه عاهد الله ألا يفارق إبراهيم إلى الممات، وهذا أيضًا وجدناه في الكتاب.

ومما حكى عنه رضي الله عنه أنه صحبه رجلًا درويشًا وكان في خدمته لا يفارقه، فقال له يومًا: يا سيدي أريد من بعض كراماتك توصلني إلى الله وترشدني، فقال له: اخرج بنا إلى هذه القبور، فخرج هو وإبراهيم إلى ظاهر المدينة، فأتى إلى مقبرة فقبض منها قبضةً تراب ووضعها في كف الدرويش، فاحترق كفه وصار كالغربال، فصاح من ألمه، فقال له إبراهيم: يا مسكين، لو كنت درويشًا صادقًا لم يضرك التراب، وهذا القبر كان صاحبه من أهل الفسق والفساد، وإن عذاب القبر حق يا هذا، فتركه إبراهيم وانصرف، وهذا من بعض كراماته موجودة في الكتاب.

ومما حكي عنه رضي الله عنه أنه كان مجاورًا بمكة المشرفة ولم يشرب من زمزم خوفًا من تأثير الحبل والدلو خوفًا من مال الوقف، خوفًا أن يلحقه شيء منه، وهذا من بعض كراماته وتورعه وتفرغه.

وحكى عنه رضي الله عنه أنه اشترى يومًا عبدًا فسأله عن اسمه فقال له العبد: ما تسميني به، فقال له: ما تأكل؟ قال: الذي تطعمني أنت، قال له: ما تلبس؟ قال: الذي تلبسني وتكسيني، فقال له: ما عملك؟ قال: الذي تستعملني به، فقال له: ما الذي تريد؟ فقال: المراد مرادك أنت الذي تريده، فراجعت نفسي وقلت يا مسكين يا إبراهيم هل فعلت يومًا مثلما فعل هذا العبد، فتعلمت منه طريق العبودية، وبكيت على نفسي وسوء فعلي. وقال رضي الله عنه:

تعصي الإله وأنت تظهر حبه* هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقًا لأطعته * إن المحب لمن يحب مطيع

وقال غيره:

جمال ساقي المحب قد تجلي لي * فلا تسألني هذا الوقت عن حال

أتى المحب ومحبوبي ينادمني * وغيره أبدًا ما مر في بالي

يا عاذلي خلني فالحب هيمني * ولست أصغي إلى ما قال قوالي

فلا تلمني يا هذا على ولهي * ما يصلح الحب والتواليه إلا لي

فطف بقلبي الذي فيه الحبيب ولا * تقصد سواه فما المسكون كالخاني

ومما حكي عنه رضي الله عنه مع الست إبراهيمات، أنه لما كان في صحبة الإمام سيد العارفين محمد الباقر ابن الإمام زين العابدين نسل سلالة سيد المرسلين، وكان إبراهيم بن أدهم في صحبته وأراد التوجه من عنده، وكان في حضرة الإمام ست من السادات الكرام، وكان ابن أدهم رضي الله عنه ينقل الحطب على ظهره لحضرة الإمام، فجمع يومًا ذلك السادات الأخيار وقال لهم: إن إبراهيم بن أدهم له علينا حق الخدمة، وله اثني عشر سنة ينقل الحطب إلى مطبخنا على ظهره، وليس بقي عندكم إنصاف، فقالوا تلك الست دراويش: كيف يتفضل علينا، وكيف يصل إلينا، ونحن لنا مدة سنين في خدمتك ولم تنظر إلينا نظرة إبراهيم، وفي هذه المدة يتفضل علينا.

فلما سمع منهم هذا الكلام قال: ليس يصير لكم الفتح والعناية عندنا، بل تكونوا في خدمة إبراهيم لعله يقع عليكم من نظره نظرة فتكون درة، فلما سمعوا من حضرة الإمام هذا الكلام، داخلهم الوجد والغرام، وعلى التوجه عزموا صحبة إبراهيم، وآلوا على أنفسهم بألا يفارقوه إلى الممات، وتوجه إبراهيم إلى عند الإمام هو وتلك الست ابراهيميات، وهم: إبراهيم الحطاب، وكان صاحب الكشف والصواب فصحب معه عصاة وعباة، فلما أن حضرته الوفاة أوصى بأن يغرسوا تلك العصاة عند رأسه، فغرسوها فاخضرت وأورقت وأثمرت بقدرة الله تعالى، وكان من بعض كراماته إذا جاء أصحاب التهم يحتكمون بين يديه، فمن كان بريئًا صادقًا ينجو من تهمته، ومن كان كاذبًا سقيمًا يحصل له موت الفجأة ولم يخلص من علته.

وأما إبراهيم الثاني كان اسمه أوماور، وكانت ولايته وأسراره تفلق الحجر وقبره مقابل قبر إبراهيم بن أدهم، وكان له حجرًا من أسرارها وخواصها إذا أحد لسعته عقرب أو حية، يجيء إلى تلك الحجرة فيمر بها مكان اللسعة فتبرأ بإذن الله، وكان قد سمعوا بخبرها الكفار من أهالي جزيرة قبرص، فأتوا إليها وأخذوها ووضعوها في كنائسهم بسبب ذلك، فلم تمكث عندهم، فلما أصبح الصباح، رأوها في مكانها عند قبره موضوعة مكانها، وذكروا أنها معروفة، وهي موجودة عند رأسه إلى يومنا هذا.

والدرويش الثالث إبراهيم الخواص، والدرويش الرابع إبراهيم ابن بشار صاحب البرهان وهو من السادات الأخيار، والدرويش الخامس إبراهيم أبو جوكلان صاحب البرهان، والدرويش السادس إبراهيم الرومي كاشف الكروب والهموم.

وكانت هذه الست سادات الكرام لم يفارقوا إبراهيم على الدوام، فلما انتقل ابن أدهم إلى رحمة الله تعالى أوصى بالسجادة لإبراهيم الرومي، فجلس على السجادة، وأعطاه إجازة في الكسوة والتاج والكمر، وتربية الدراويش والفقراء، وهذا ما وجدناه في الكتاب التركي الذي نقله الدرويش حسن الرومي.

وهذه قصة التاج الكبير واتخاذه المرقعة، ومما حكى عنه رضي الله تعالى عنه أنه كان ذات يوم جالسًا على نهر وماء جار ومعه اثني عشر درويشًا، وكان معهم قرص واحد من الخبز الشعير، وكان قد جمع بعض خرق من على المزابل ليصنع منهم مرقعة، وكان يغسلهم ويضعهم على الطريق، فيمرون بهم بعض الفقراء فالتي تصلح لهم يأخذوها ويترك الفانية البالية الخلقة التي لم يقبلوها، فيجيء ابن أدهم ويأخذها ويجمعها، حتى بلغت مرقعته ألف رقعة، حتى ركبها القمل وابيضت من كثرة القمل الذي كان عليها، فوضعها يومًا في بعض الطرقات، وقال في خاطره: لعل أن يكون أحد أفقر مني فينتفع بها، فتركها من الصباح إلى وقت العصر، فلم يلتفت إليها أحد من الناس، فبينما هو يرقب الطريق لينظر من يأخذها، وإذا برجل حطاب قد وافى تلك المرقعة فوجدها ملقية على الأرض وغمرها التراب من كثر ما داستها الدواب، فقال

في نفسه: خذها واجعلها لهذا المركوب غطاء تقيه من شدة البرد، وكان في يده عصا فرفعها بها وألقاها على ظهر ذلك الحمار، وسار فإذا ذلك الحمار صار يركض ويهرب ويهرول في سيره، وكان ذلك الحمار ليس له قدرة على الركض، فتعجب صاحبه من سيره، فلحقه ذلك الرجل ومسك بحبله، فإذا القمل مركب على رقبته وذيله وعينيه، فأراد أن يرمي نفسه إلى الأرض من كثر ما آذاه وآلمه، فلما رأى صاحب الحمار ما آلمه من القمل أخذ تلك المرقعة بالعصاة وألقاها عنه، وقال: لو كان فيها خير ما ألقاها صاحبها عن ظهره وتركها ومضى، فلما شاهد إبراهيم ذلك الفعال، رفعها حينئذ وأخذها وشكر الله سبحانه وتعالى إذ لم يكن في الدنيا أفقر منه، ولا أزهد منه.

وكان رضي الله عنه يضع تحت كل رقعة حجرًا من الأحجار، حتى لا ينام الليل ولا النهار، خوفًا من الملك الجبار، ويناجي بها ربه ويعاتب نفسه ليلًا ونهارًا على تنعمها وتلذذها بالطيب والطيبات، والجلوس على الديباج، مع الكواعب الناعمات، وهذه الأحجار عوضًا لك في حب الملك الغفار، فبينما هو في هذا الافتكار، إذ أتاه الخضر عليه السلام، وقال له: يا إبراهيم إن الله تعالى قد رضي عنك بفعالك وما تعاتب به نفسك، فقد أعطاك الله بكل واحدة عشرة أمثالها في الآخرة، والتلذذ في القصور الفاخرة، والنظر إلى وجه الكريم يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم، فقال: لوجه ربي الحمد والشكر. وهذه قصة المرقعة وسببها وكيف وضع نقشها بدلًا عن القمل الذي كان عليها، وهذا كان في الكتاب التركي بالتمام والكمال.

وهذه قصة التاج الكبير، قيل إن إبراهيم بن أدهم كان يجمع الخرق إلى عمل الخرقة وسبب عمل التاج الكبير، ثم جاء إلى مكان فيه ماء، ومعه بعض فقراء، وجلسوا ليأكلوا ما كان معهم من الزاد، وكان مع إبراهيم بعض خرق، فغسلهم ونشرهم، فأتى بعض نساء تغسل أثوابًا كانت معهن، فلما رآهم إبراهيم قاصدات إلى ذلك المكان، قام من مجلسه وأخذ رفاقه، وقال: النظر إلى المحرمات حرام، فتوجهوا بعيدًا،

فتذكر الخرق الذي غسلهم في ذلك المكان، فرجع بسبب أخذ الخرق، وكان بينهم ولد صغير، فقال له إبراهيم: قل لهم يقول لكم ابن أدهم ضعوا على وجوهكم شيئًا ليأخذ هذه الخرق الذي نشرها. وكانت بينهن امرأة صالحة عارفة، فقالت له: يا للأجواد، هذا أحق منا بأن يوضع على وجه الغطاء، ولم ينظر إلى المحرمات، ويراقب بذلك رب الأرض والسماوات، فلما أن سمع إبراهيم هذا الكلام، تزايد به الوجد والغرام، وترك الخرق في ذلك المكان، وهام على وجهه، وأخذ في عمل التاج الكبير، حتى بلغ إلى صدره فلم ينظر به إلا إلى أطراف أصابع أقدامه. وهذا كان سبب عمل التاج الكبير واتخاذه.

فقال: هذه خلوة الرجال الذي لم يستقر لهم حال في مكان، لا في خلوة ولا في إيوان، ومن ذلك الوقت، لم يأوي إلى بيوت ولا سقوف إلا إلى رؤوس الجبال والكهوف، ويقصد الخلوات والعزلات عن الناس، فتسامعت به الرجال والأبطال والأقطاب والأنجاب، بأن إبراهيم بن أدهم قد هام على وجهه في البراري والبطاح، ولم يخاطب الرجال والأصحاب، وندم على ترك الملك والتاج، فكشف له في سريرته مما خطر في خواطر تلك الأحباب، وكان بينه وبينهم مسيرة سنة تمام، فقال في دعائه: يا الله يا قريب يا مجيب يا سميع يا عليم، بأن تستجيب دعاء عبدك إبراهيم. فما استتم دعاه، وخطا في الهوى وقال: يا عالم السر والنجوى، ويرقب بطرفه إلى السماء، فما شعر إلا هو بين يد ذلك الرجال والأبدال، وكانوا في ذلك الوقت جالسين يتحدثون في أمر إبراهيم فوافى إليهم في ذلك الحين.

فلما رأوه قاموا إليه على الأقدام، فحياهم بالتحية والإكرام، وفاتحهم في الكلام، وقال لهم: ما الذي خطر في خاطركم ووسوس لكم الشيطان، بأن إبراهيم قد ندم على ترك الملك والتاج والسلطان، وبقي والهًا حيران، لا يأوي مكان ولا عمران، وعزة العزيز الجبار، إنما فراري وتوجهي إلى جناب الملك الجبار، الذي لا تأخذه سنة ولا نوم، وجعلت النوم عليَّ حرام، واعتكافي وتعبدي إلى مولاي الكريم الستار، أما تعتبرون يا أولي الأبصار في انقراض الليل والنهار، إنما هو نقصان من أعماركم وتنقرض آجالنا، وأنا إنما

جعلت خلوتي وجلوتي وتعبدي على أقدامي خوفًا من هفوات الشيطان، وطاعة إلى الرحمن، وهذه خلوة خلوات الرجال يا إخوان.

فعند ذلك أخذ تلك الرجال وعظ إبراهيم بعقولهم وقلوبهم، وقالوا له: يا سيدنا وكيف خلوة الرجال؟ فقال: إن بعض المشايخ الصوفية يقصدون الدخول إلى الخلوات، ويدخلون إليها بعض الدراويش والفقراء، ويجلسون في بيت أربعين يومًا، بلا ماء ولا زاد، فبعضهم تغلب عليه السوداء، وبعضهم يداخله الشيطان ويوسوس له، ويقول له: متى تنقضي هذه الخلوة، وأخرج منها إلى عند الإخوان، فتتنزه في الرياض والبساتين، وتطرح ذلك الهم والضيق الذي أنت فيه، فهؤلاء من قسم الحيوان، الذي يكون مربوطاً في الرباط، وما يصدق بالإطلاق، فيقصد بتسريحه المراعي والزروع، فهذه الخلوة إنما هي من قسم الحيوان يا إخوان.

فلما سمعت هذه الرجال والإنجاب، كلام أبن أدهم ومواعظه، أخذت بعقولهم وخواطرهم فقاموا له على الأقدام، وقبلوا بين عينيه، وقالوا له: أرشدك الله كما أرشدتنا إلى طريق الحق والصواب وهذه موجودة في كتاب التركي.

وهذه قصة القرابين والذيب، قيل إنه أتى إليه من بعض السادة الكرام ثلاثة رؤوس من الأغنام برسم القربان، فقال لبعض الدراويش: اذبحوا هذه الأغنام وفرقوهم على الفقراء والخاص والعام، وإن بقي منهم شيء فأطعموه إلى الكلاب والوحوش ولا تبقوا منهم شيئا، فأخذوا تلك القرابين فذبحوا منهم واحدًا، وأخفوا اثنين، وربطوا ذلك الخروفين في حبل من أعناقهم من الطرفين وسرحوهم إلى الصحراء في المرعى، وغفلوا عنهم الدراويش، فجاء إليهم ذئب من الذئاب وهجم عليهم فأخذ الواحد فجفلوا من الذيب فدار الحبل الذي في أعناقهم على رقبة ذلك الذئب والتف علي عنقه، فتراكضا ذلك الخروفين خوفاً

من ذلك الذئب، فاشتد الحبل على رقبته فاختنق ذلك الذئب، فافتقد ذلك الدراويش ذلك القرابين فلم يجدوهم، فطافوا عليهم في البرية ثلاثة أيام فلم يجدوا لهم خبرا فرجعوا خائبين.

فلما رآهم إبراهيم وجلين، تبسم في وجوههم وقال لهم: أين كنتم يا طماعين، أبقيتم القرابين وأخفيتموهم عن الفقراء والمساكين، فقالوا له: يا سيدنا ما أبقيناهم طمعًا، بل أبقيناهم لتذبحهم غدًا إلى بعض المحبين، فقال لهم: أما قلت لكم لا تبقوا منهم شيء أبدًا، بل فرقوهم ولا تحرموا أحدا، فأخذهم من ذلك خجلًا وداخلهم الوجل، فقال لهم إبراهيم: أنا أدلكم على ذلك القرابين، تلقوهم بين البساتين، وعندهم قربان عظيم. فأسرعوا في الوقت والحين وقصدوا البساتين، فرأوا ذلك الخروفين قائمين وبينهم ذئب مخنوق وفي رقبته حبل مثل الطوق، فأتوا بهم الجميع إلى حضرة إبراهيم، فقال لهم إبراهيم: أما علمتم أن لهم راعي يرعاهم يا مساكين، وهذا الفقراء والدراويش تعجبوا من ذلك غاية العجب، وتابوا ورجعوا عن إخفاء القرابين بهذا السبب وهذا موجود في الكتاب.

وهذه حكاية صاحب الدين، ومما حكي عنه رضي الله عنه أن رجلًا كان عليه دين فجاء صاحب الدين يطلب حقه منه، فقال الرجل: ليس لي مقدرة على درهم ولا دينار، فقال صاحب الدين: لم أصبر عليك ساعة، بل أرفعك إلى حاكم الديار، وكان ذلك الرجل فقير الحال لا يملك قطمير، فقال له: بالله عليك أمهلني حتى أبيع لك شيئًا من أسبابي، فقال صاحب الدين: ما أصبرك يومًا واحدًا، بل أحبسك في حبس الحكام، فطار عقل ذلك الرجل خوفًا من الحبس، وقال في نفسه الهرب والانهزام، فوافى ابن أدهم في مكان فلحقه ذلك الرجل إلى عند ابن أدهم، فقال له: ما شأنكم وما الذي أصابكم؟ فقال ذلك الفقير: يا سيدي أنا رجل فقير وهذا الرجل له علي دين وجاء يطالبني وليس معي درهم، فقلت له: أمهلني حتى أبيع موجودي، فقال: ما اصبر عليك ساعة بل أحبسك، وأنا قد أتيتك يا سيدي، ووقع نظرك علي ولي

عائلة خذ بيدي يأخذ الله بيدك، فقال إبراهيم لصاحب المال: قدر أي شيء لك عليه دين؟ فقال: ألفين درهم عين، فقال إبراهيم إلى صاحب الدين: مالك عندي وفي ذمتي واترك هذا الرجل عندي.

وكان إبراهيم ليس يملك في يده سوى ابرته التي كان يرقع بها مرقعته، فناجى ربه وقال: يا مولاي يا كريم يا ستار أنت بالحال عليم، وأخذ يحفر بالتراب بتلك الإبرة التي بيده، فأخرج الله سبحانه وتعالى من الأرض جوهرة، فقال إبراهيم لذلك الفقير: خذ هذا الحجر وبيعها وأوفي دينك منها، والذي يفضل من ثمنها فرقه على الفقراء والمساكين، وقال لصاحب المال: حقك عندي والرجل في ضماني، فأخذ ذلك الرجل الحجر وقال في نفسه: يا الله العجب، أي شيء أعمل بهذا الحجر ومضى صاحب الدين في حاله إلى الصباح، وأتى ذلك الفقير إلى بيته ووضعها في ناحية من البيت وإذا هي تضيء كالمصباح في الزجاج، فأخذها وأتى بها إلى بعض التجار، فباعها بمال جزيل، وأوفى دينه الذي كان عليه وأبقي بقيته بين يديه وادخره إلى نفسه وانصلح حاله وهذه وجدناها في الكتاب.

وهذه حكاية مع الجندي والحصَّاد، قيل إن إبراهيم كان مارًا يومًا في البلدان وكان قد صحبه ثلاثين درويشًا من الرجال، وكان في وقت الحصاد، فجاء إليهم جنديًا وقال لهم: يا فقراء إن لنا بعض زراعة وقد آن حصادها ومرادي تحصدوها لنا ونعطيكم أجرتكم بتمامها، فقالوا له: يا أيها العزيز إن هذا الشيخ الكبير هو أستاذنا وكبيرنا شاوره ولعله يروح معك ونروح بجمعنا، فقال لهم الجندي: هذا رجل كبير وليس له قدرة في العمل، ولكن خذوه معكم ونعطيه أجره ولا يعمل شيئًا وينام تحت ظل شجرة لأجل خاطركم.

فقاموا تلك الدراويش وصحبهم ذلك الأمير وقدامهم إبراهيم وجاءوا إلى زرع قد فات حصاده، ولا يقدر أحد يدوره في سبعة أيام على ظهور الخيل، فلما رآه إبراهيم قال إلى ذلك الأمير: اقسم هذا الزرع بينك وبين هذه الفعالة نصفين النصف الواحد لك والنصف الثاني لهذه الفعالة، أما أنا أحصد النصف الواحد والثاني لهؤلاء الفعالة، فقال له الجندي: يا مسكين كيف تقدر تحصد هذا النصف وحدك وليس

لك قوة ولا معين؟! فقالت له تلك الدراويش: اعمل بقول هذا الشيخ العزيز وما عليك من شغلنا، فقسَّم حينئذ تلك الزرع شطرين وتوجه إلى بيته يحضر لهم الغداء.

فأخذت الفقراء في الحصاد وأخذ إبراهيم في العبادة لرب العالمين، فبينما هو في الذكر إذ أتاه النداء: قم يا إبراهيم في عملك الذي اشترطه على نفسك، فقام إبراهيم على قدميه وأخذ منجلًا في يده وتقدم إلى ذلك العمل وقال: بسم الله، فنزلت ألف ملك من السماء بأمر الله فحصدوا ذلك الزرع في أقل من طرفة عين، وفرغت تلك الفعالة من العمل وجلسوا ينتظروا الغداء، فبينما هم إلا وذلك الجندي واصل إليهم وصحبته الغداء مع غلمانه، فرأى الزرع جميعًا قد أتموه وهو مجموع في مكانه، فتعجب من ذلك.

فلما شاهد هذه الإخوان قال لهم: من فعل هذه الفعال؟ فقالوا له: فعله هذا الشيخ الكبير، فقال لهم الأمير: ما أظن أن يفعل هذه الفعال من الرجال إلا أن يكون ابن أدهم، وكان قد سمع في أخباره وأفعاله ولم ينظره، فقال لهم: بالله عليكم إن كان هو بينكم دلونا عليه، فقالوا له: أعطنا أجرتنا التي اشرطنا عليها، وإن كان مرادك الاجتماع في ابن أدهم يجمعك الله سبحانه وتعالى بقدرته، فقدم لهم الذهب والدنانير، وقال له: خذ يا سيدي ما شئت من هذا المال، والذي فعلته ما يفعله ألف من الرجال، فقال له إبراهيم: نحن ما نأخذ غير الذي صار عليه القول والإقرار، وأنت قلت لي أن أنام تحت الشجرة وإذا جاء الغداء نعطيك رغيف مع الفقراء.

فدخل عليه ذلك الأمير، وقال له: يا سيدي أنت رجل عزيز محترم، وكيف نجازيك على فعلك وقد صار لك حقًا علينا، فبالله عليك تجبر خواطرنا وتحضر منزلنا ولك ما تريد منا، فقال له إبراهيم: الذي يريدنا ويطلبنا يتبعنا ويخرج عن هذه الدنيا الفانية، ويقصد الدار الباقية، فاقسم عليه بالله العظيم إذا أنت إبراهيم، قال له: أنا إبراهيم، فأخذ عليه العهد والميثاق وألبسه التاج والكمر وأدخله في طريقته، وبنى له

تكية وأوقف عليها أوقاف من ماله وموجوده، وأجرى على يده الخيرات وبنى له زاوية، وتوجه إبراهيم صحبة تلك الدراويش وتركه في زاويته، وهذا كما وجدناه في الكتاب التركي نقلناه بالعربي.

ومما حكي عنه رضي الله عنه انه لما انتهى في سياحته، تفكر في حاله وذكر الموت وسكراته، وقصد بأن يكون له من بعد وفاته مكانًا يعرف به في حياته ومماته، ويبقى له ذكر في سائر البلاد إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ويكون له خيرات وصداقات دائمًا إلى أبد الآبدين كما أشار إليه سيد الأولين والآخرين في ابتداء زواج جده السلطان أحمد بأن يكون له ولد ويسميه أدهم، ويجيء منه ولد ويكون محترمًا ويصير سلطانًا ويملك السبع أقاليم، ويكون له شأن عظيم.

فلما أن علم إبراهيم ما هو إليه صائر، وإلى أن هذه الدار ليست بدار قرار، وأن الآخرة هي دار القرار، وقد آن ارتحاله، ومن حمله الأحجار قد انحنى، طلب مكانًا ينقطع فيه ويكون له مدفنًا، فجاء إلى شيخه الإمام الجليل نسل الأنبياء والمرسلين محمد الباقر ابن زين العابدين وشاوره في التوجه إلى مكان يعبد الله فيه إلى أن يأتي الله باليقين فأشار الإمام إليه، وقال له: يا إبراهيم أي مكان جرى منك الدم يكون مرقدك والمقام إلى وقت الارتحال إلى دار السلام، فودع الإمام وقبل يديه وقال له: عليك السلام منا إلى يوم القيام.

وتوجه إبراهيم والست إبراهيمات وأتوا إلى بيت الله الحرام وزاروا قبر سيد الأنام وتوجهوا إلى القدس الشريف، وزاروا الأنبياء والخليل، وخرج في سياحته إلى سواحل البحر حتى انتهى بهم السير إلى مدينة جبلة، وكانت هذه المدينة من قديم الزمان دير للرهبان، فلما أن حصل إلى جبلة ابن الأيهم الغساني وارتد وغلبت عليه الشقاوة وترك دين الإسلام، وقصد الملك هرقل من انطاكية، وأعطاه وأجازه بأن يتخذ له مكانًا، فجاء إلى هذه المدينة وابتدأ في عمارتها وتحصينها وقصته مشهورة في فتوح الشام، فصادف طريقهم الميدان ورأوا شبابًا يلعبون بالكرة والجوكلان فطارت الكرة من يد شابًا من الرجال فجاءت في نقرة

إبراهيم فسال الدم على صدره في الحال، فلما رأي إبراهيم العلامة وظهرت له تلك الإشارة قال في نفسه: يا إبراهيم هذا بلا شبيه موطننا ومكاننا.

وتوجه إلى نحو البحر ليزيل عنه الدم فرأي مغارة فقصدها هو وأصحابه، فلما أن وصل إليها ودخلها رأي سبعة من الرجال الأبدال جالسين وعلى ربهم معتمدين، فسلم عليهم، فردوا عليه السلام، وتلقوه بالإعزاز والإكرام، وقدموا لهم الزاد والطعام وفاتحوهم في الكلام، وقالوا لهم: من أي البلاد أنتم؟ وما اسمكم؟ وإلى أين قاصدين؟ فقال لهم إبراهيم: نحن كنا في مكة المشرفة مجاورين، وأتينا القدس الشريف وزرنا نبي الله إبراهيم الخليل وموسى الكليم، وقصدنا زيارة الأولياء والصالحين، ورجال الله المقربين، ونحن من بعض الفقراء المحبين، فأقاموا عند هؤلاء السادة الكرام ثلاث ليال مع الأيام وكان يأتيهم في كل ليلة من الغيب الأكل والطعام.

فلما مضى لإبراهيم ورفاقه ثلاثة أيام، قالوا لهم ذلك الكرام: اننا أقمنا في ضيافتكم ثلاثة أيام الذي وجب علينا بها القيام في حقوق الضيفان، وأنتم يا اخوان ادعوا الله سبحانه وتعالى أن يأتيكم نصيبكم من عنده بلا امتنان ونأكل نحن وأنتم من كرم ذي الإحسان، أو ترحلوا عنا، فعند ذلك قام إبراهيم وبسط كفيه وقال: يا رازق كل حي الا ما أطعمتنا من رزقك الواسع يا أكرم الأكرمين، فما استتم كلامه إلا وقد وضعت الأطعمة قدامه وفيها من الأطعمة ألوان ومن سائر فواكه الجنان بقدرة الملك الديان.

فلما رأى ذلك الاخوان هذه السفرة والأطعمة بين أيديهم من صنوفه ألوان، قال لهم إبراهيم: تقدموا يا اخوان وكلوا من فضل الملك القديم الإحسان، فتقدموا تلك الرجال وأكلوا من تلك الأطعمة وشكروا الله سبحانه وتعالى، وقالوا له: بالله عليك يا أيها العبد الصالح من تكن؟ أنت إبراهيم بن أدهم بلا إنكار صاحب الكرامات والأسرار، فعرفوه بالإشارة وصافحوه، وقالوا له: يا إبراهيم نحن لنا من

قديم الزمان مقيمين في هذا المكان منتظرين قدومك يا سلطان الزهاد، فسلموه المغارة من تلك الوقت والحين، وغابوا عن الأبصار، وكانوا من الأخيار، وهذا وجدناه في الكتاب التركي فترجمناه بالعربي.

فلما أن تركوه السادة الكرام في تلك المغارة وظهرت له الإشارة مكث هو والست إبراهيمات يتعبدون الليل والنهار فتسامعت به سائر البلدان وقصدوه من كل مكان، وكان رضي الله عنه لا يقر له قرار، وتجري دموعه الغزار خوفًا من سطوة الملك القهار، فبلغت أخباره وأسراره في البر والبحر وقصدوه الكفار وكان في جزيرة قبرص ملك جبار، فجهز إليه المراكب مشحونة من الكفرة الفجار الأشرار.

وهذه قصة جزيرة قبرص، ومما حكي عنه رضي الله عنه وقدس الله سره العزيز الجبار، لما تجهزت المراكب من جزيرة قبرص، وقصدوا جبلة، وأرسلوا مراكبهم وقصدوا إبراهيم، وهو جالس يذكر الله تعالى، إذ خرجت عليه طائفة نصارى وهو لا يشعر بهم سكارى، فلما رآهم قاصدين إليه، أشار إليهم بيده: ما تريدون؟ وما الذي تقصدون؟ فبهتوا مكانهم حائرين متفكرين، لم يقدروا ينقلوا أقدامهم إلى قدامه، وكان فيهم رجل معتبر كبير المقدار، فلما شاهد من إبراهيم ابن أدهم هذه الأسرار، تقدم إليه وخضع بين يديه، وقال له: يا أستاذ إن ملكنا قد أرسلنا إليك لتحضر إليه، فقال له: بسم الله نحن نتوجه إليه برضانا، وأنتم تلحقونا من بعدنا، وكان عليه رقعة ألقاها عن ظهره، وقصد الدخول في البحر، فهاج البحر وماج، وتلاطم بالأمواج، وظهرت حيتانه فاتحة فاها، تريد تلتقم تلك المراكب، فأشار إليهم إبراهيم بيده، فارتدوا عن المراكب، وظهر من بينهم حوتًا كبيرا، فركب إبراهيم على ظهره، وسارت تلك الحيتان في خدمته.

فأخذ طريقه في البحر وسار وهم ينظرون إليه تلك الكفار والفجار، وقد غاب عن أبصارهم، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: ليس هذا من الرجال، إنما هو عيسى بن مريم عليه السلام، فقامت المراكب وسارت في الوقت والحين، إلى نحو قبرص قاصدين.

ثم إن إبراهيم لا زال راكبًا على ظهر ذلك الحوت العظيم حتى وافى جزيرة قبرص في طرفة عين، فدخل على الملك على حين غفلة وهو جالس في الديوان، فلما أن الملك رأي إبراهيم قائمًا بين يديه ولم يعلم ما جاء به، قال له: ما حاجتك يا درويش وما قصدك؟ قال له: يا أيها الملك المغرور بملكه وسلطانه أنا الذي أرسلت في طلبي عساكرك وجندك، وها أنا قد جئت إليك فما الذي تطلبه مني وما مرادك، فعندها قال له الملك: يا درويش نحن بعثنا لرجل يقال له إبراهيم بن أدهم، قد رمى سلطنة بلخ وخراسان، وترك الملك والتخت والتاج، وخرج عن السرير وترك الديباج والحرير، وأنت مجنون يا مسكين، ونحن قصدنا إبراهيم بن أدهم، حتى نقف على أسراره وصحة أحواله.

فقال له إبراهيم: أيها الملك المغرور بملكه وسلطانه، أما علمت أن الملك لله الواحد القهار، الذي لا يغفل ولا ينام، أنا إبراهيم ابن أدهم سلطان بلخ وخرسان العجم، فلما سمع الملك كلام إبراهيم، أرسل إلى جميع القسوس والرهبان، ومن كان في جزيرة قبرص من كل شماس ومطران، فاجتمعوا عليه وقبلوا يديه ورجليه، وقد كانت الرهبان رأوا في المنام بأن يظهر لهم من البحر رجلا راكب على حوت وحوله سائر الحيتان، فيكون هو عيسى بن مريم عليه السلام، وكانت بعض الرهبان على شاطئ البحر، وشاهدوا إبراهيم في جزيرتهم وهو راكبًا على ظهر ذلك الحوت وحوله سائر الحيتان، ولم يبدوا إلى أحد هذه الأحوال، فلما شاهدوا إبراهيم في جزيرتهم وحضروا عند الملك، تحققوا أنه إبراهيم صاحب ملك بلخ وخرسان مما شاهدوه من أسراره، فعندها قام الملك على قدميه وسائر الرهبان والقسوس والأعيان، واعتذروا إليه وجعلوا يقبلوا يديه ورجليه.

وأحضر الملك كيسًا فيه ألف دينار، وقال له: يا سيدي هذه هدية منا، أنفقها على الفقراء والمساكين، فأخذ إبراهيم المال، فقالوا له: يا أيها الملك الكريم، مرادنا أن تبقي هذه الخرقة التي على ظهرك عندنا نتبرك بها ونودعها في كنائسنا، فتركها إبراهيم لهم، وقال: إذا جاءت مراكبكم وسألوكم عنا فهذه

خرقتنا شاهدة عندكم، وقصد البحر فجاءت تلك الحيتان، وركب على ظهر ذلك الحوت وسار حتى غاب عن الأبصار، فوافى المغارة في أقل من ساعة، فرأى تلك السادة الإخوان متفكرين في حال إبراهيم، فقص عليهم ما جرى له مع الملك في جزيرة قبرص، وتوجه المراكب إلى بلادها، وكيف أهدى له ذلك الدنانير، وكيف أبقى عندهم المرقعة على التمام.

وهذا ما جرى لإبراهيم وتوجهه إلى جزيرة قبرص، وأما المراكب توجهوا إلى بلادهم، فصادفتها رياح وهاجت عليهم البحار، فلم يقدروا على الوصول إلى جزيرة قبرص، إلا بعد ثلاثة أشهر، وفي رواية بعد ثلاثة أيام، فلما أن وصلت المراكب إلى المدينة تسامعت أهل البلدة، فجاء سائر العسكر والكافرون والقسوس والرهبان، وطلعت من المراكب الرجال، وقالوا لهم: كيف حالكم؟ وما الذي حل بكم ودهاكم؟ فأخبروهم بما جرى لهم مع إبراهيم بن أدهم، وكيف توجه نحو البحر وركوبه الحوت، ومشى حوله سائر الحيتان، وقال لنا: نحن نروح قدامكم ونسبقكم، وأنتم تجيئون بعدنا وتلحقونا، وهذه قصتنا والذي شاهدنا، وقد رأينا هذه الخرقة التي عندكم على ظهره عيان.

فلما أن شاهدوا من السلطان إبراهيم هذه الأسرار والكرامات، فأخذ بعقولهم وانغرس حبه في قلوبهم، وأخذوا تلك الخرقة بالإعزاز والإكرام ودعوها في كنائسهم، وكان من جملة عاداتهم واعتقادهم يدخلون إليها ويقبلونها ويمرون بها على عيونهم، وقالوا تلك القسوس والرهبان: لابد لنا من زيارة ذلك السلطان، ونشاهده في ذلك المكان، فعند ذلك أمر الملك بتجهيز السفر والمراكب وسائر العساكر والقسيسون والرهبان، وأخذوا معهم سائر ما يحتاجون إليه من الزاد والتحف والأموال، وأواني الذهب والفضة، وقصدوا جبلة.

فلما وصلت مراكبهم جزيرة قبرص إلى البر، ورموا المراسي في البحر، وقصدوا نحو المغارة بنية الزيارة إلى حضرة السلطان إبراهيم بن أدهم، فدخلوا عليه وقبلوا يديه ورجليه، واعتذروا له، وقالوا له: بالله عليك لا تؤاخذنا وسامحنا، وقد أرسل إليك ملكنا هذه الهدية تقبلها منا، فقال لهم: لا نقبل هذه الجيفة الدنية القاتلة إلى أهلها الطامعين بجمعها الغدارة المكارة على من يحبها.

وكانوا مع إبراهيم في الجدال والكلام إلى أن جاءت سمكة من بين الأسماك صغيرة حقيرة فوضعت رأسها على الأرض، فأنطقها الله الذي أنطق كل شيء وقالت: يا إبراهيم لما توجهت إلى جزيرة قبرص، وصحبتك الأسماك، أنا كنت ضعيفة وليس لي قدرة على الحركة بين الرفاق، وقد عيروني سائر الحيتان في البحار، وحقروني وضربوني وقد آذوني في الجراحات، وقد هربت منهم وأتيتك يا سيدي وإني معترفة بذنبي وتقصيري فتقبل عذري، فقال لها: لا بأس عليكِ، قد قبلنا عذركِ وسامحناكِ، ومسح بيده المباركة على ظهرها فبرأت من جراحاتها، وعادت أحسن ما كانت، وانطلقت وغاصت في البحر على عادتها، فلما شاهدت تلك العساكر والقسوس والرهبان من كرامات إبراهيم، ازدادت محبته في قلوبهم واعتقادهم فيه، وجعلوا يقبلوا يديه ورجليه، ودخلوا عليه في قبول هداياهم ولا يردهم خائبين.

وكان عنده درويش من بعض الدراويش، قال له: يا سيدنا اجبر خاطر هؤلاء القاصدين، واقبل هديتهم وفرقها على الفقراء والمساكين، فعندها قال لهم إبراهيم: نقبل هديتكم ولا نردكم خائبين، لكن شرط عليكم بأن لا تعودوا وترسلوا مراكبكم وسفنكم بسبب الضرر إلى أهل جبلة، ولا تؤذوا المسلمين من الفقراء والمساكين، وأن تطلقوا لنا جميعا ما عندكم من الأسارى من المسلمين الموحدين.

فأخذ هديتهم وتعاهدوا بألا يقصدوا مدينة جبلة ولا يضروها بسوء، وكان عندهم من الأسارى خمسين ألفًا من المسلمين، فأطلقوهم إكرامًا إلى حضرة السلطان إبراهيم، وجعلوا له بطريق النذر ألف دينار من شمع وبخور يرسلوها في كل سنة إلى حضرة السلطان، وهذا كما وجدناه في الكتاب التركي.

وهذه قصة خرقته رضي الله عنه، قيل إنه لما ترك الخرقة في جزيرة قبرص، وقد تسامعت أخبارها، كان في مدينة مصر امرأة صالحة، فأرسلت واحتالت في أخذها بمال جزيل، وأخرجتها من جزيرة قبرص ووضعتها في مصر وبلادها. وذكر بعضهم أنها باقية موجودة عندهم إلى يومنا هذا، وهذا ما وجدناه في الكتاب التركي.

ومما حكي عنه رضي الله عنه أنه لما مكث في تلك المغارة تسامعت به الأطراف والأكناف، وتسارعت إليه الفقراء والدراويش، واجتمع عليه خلق كثيرون بلا قياس، وهو ما كان مراده إلا الخلوة والعزلة عن الناس، وقيل انه كان بين الدراويش، درويش من بعض الشطار، وكان يسري تحت الليل إلى البساتين يسرق الأثمار، وكانت أهل البساتين يتضررون منه غاية الضرر، فجاءت أهل البساتين إلى إبراهيم يشكون من أفعاله وأحواله، فقال لهم إبراهيم: هل عليه كسوة وخرقة؟ قالوا له: نعم، قال: نحن وكلنا كسوتنا وخرقتنا عليه تأخذ لكم حقكم منه وحق الطريق، وخرجوا من عنده آيسين، وقال بعضهم لبعض: هذه من بعض خرافات إبراهيم، فلقيهم ذلك الدرويش في الطريق خارجين، فعلم أنهم شكوه إلى إبراهيم، فقال لهم ذلك الدرويش: والله العظيم ما بقيت أقنع بجميع ثماركم، بل في أخذ روحكم، فتعرف تلك الجماعة إلى منازلهم، وما أحد يقدر يتوجه إلى بستانه خوفًا من شره.

فلما جاء الليل قام ذلك الدرويش التعيس، الذي وسوس له إبليس اللعين، وأخذ معه مخلاة وطاف تلك الأشجار، وأخذ من تلك الثمار، وكان ذلك الزمن أوان المشمش والرمان، وقد أتى شجرة مشمش وجمع من ثمارها ما أحب واختار، وقد ملأ المخلاة من الفاكهة، وجعلها في عنقه وقصد بها النزول، فأخذ غصن من أغصان تلك الشجرة بيده، فتعلق ذيله من خلفه، فاستدار ليصلحه فانكسر ذلك الشعب من يده، ودخلت تلك المخلاة في عنقه، فتعلق في الشجرة من رقبته فاختنق ومات من وقته.

فلما أصبح الصباح خرجوا أصحاب البساتين يتفقدوا ما كان من البساتين والأشجار والفواكه والثمار، فرأوا ذلك الدرويش معلق من رقبته في الشجرة والمخلاة في عنقه فيها الثمر وهو ميت ليس فيه نفس ولا حركة، فجاءوا تلك الجماعة إلى إبراهيم وأخبروه بقضية ذلك الدرويش، فقال لهم: الخرقة والكسوة طلعت من حقه، وهذا الدرويش ليس منا ومن فقرائنا، وهذه قصته موجودة في الكتاب.

فانظر يا أيها الدرويش الآخذ بالطريقة الأدهمية، إنما هي الكسوة والخلوة ناظرة على الدرويش، علامةٌ كالمحتسب الذي يمسك النقص على الناس في معاملتهم، وفي غدٍ الخرقة والكسوة تشتكي من لابسها إذا لم يقم بحقها، ولم يعمل بها، فانظر يا أخي في معاملتك إلى من تعامل، واتبع طريق شيخك ابن أدهم ترشد وهذه موجودة في الكتاب أيضًا.

ومما نقله الدرويش حسن الرومي، انه كان عنده درويش من بعض الدراويش وكان مرتكبًا على الفسق والفجور ومدمن على شرب الخمور، وكان إبراهيم يراقب أحواله ولم يظهر عيبه، ويصبر على فعله، وكان دائمًا يظهر له السرور، وكان قد قرب أجله، وكان الناس يتضررون منه غاية الضرر، فلما أن حضرته الوفاة، لم يحضر في موته أحد، فلما بلغ إبراهيم الخبر وفاة ذلك الدرويش، قال في نفسه: يا مولاي ما يكون حال هذا العبد العاصي المذنب الفقير الغريب، أنت خلقته وقضيت عليه ما تشاء وأنت الفعال لما تريد، فنودي في سره: قم وانهض إلى هذا الغريب الكئيب، فنهض إبراهيم من ساعته وأخذ في تجهيزه وتكفينه، فلما رأت الجماعة إبراهيم شرع في تجهيزه، اجتمعت الناس إلى تكفينه وحملوه ودفنوه وواروه بالتراب، ورجعوا إلى منازلهم متفكرين منكرين أفعاله.

فباتوا تلك الليلة، فرآه رجل من تلك الرجال في المنام يخطر بالحلي والحلل في الجنان، مع الحور والغلمان، فقال له: يا مسكين بماذا نلت هذه المرتبة الرفيعة، وكنت في الدنيا مرتكبًا كل قبيحة وشنيعة، فقال له: يا سيدي كنت ذات يوم سكران من الخمر، فأتيت منزلي أتمايل من حائط إلى حائط، حتى انتهيت

إلى داري وكان في جنب داري جار لي، فجئت إلى قرب حائطه اتكئ عليه لئلا أقع على الأرض من عظم ما بي، فرأيت كوة في حائطه، فنظرت منها فرأيته يجامع زوجته، فرجعت إلى نفسي ودلني عقلي، فجئت إلى مزبلة وأخذت قطعة من زبل البقر وسددت تلك الخرق بها، وعاهدت الله تعالى أني ما بقيت أطلع على أحد من جيراني، ولا أطلع على عيب أحد من الناس، فببركة هذه الفعلة غفر الله زلتي، وأعطاني هذه الدرجة العالية، كما تراني في الجنة العالية، قطوفها دانية، فلما سمع إبراهيم هذا الكلام قال: الحق كريم يغفر الذنب العظيم.

فانظر يا أخي كيف ستر عيب جاره فستره الله وأجاره، فكيف حال من يهتك أستار المسلمين، ويظهر عيوبهم ولا يستر عليهم ويهتك سترهم، وهذه موجودة في الكتاب أيضًا وعلى ذلك.

حكاية غريبة، قال مالك بن دينار رضي الله تعالى عنه كان لي جار مسرف على نفسه كثير الخطايا، فشكا الجيران منه فأخبرته وقلت: إن الجيران يشتكون منك فاخرج من البلد، فقال: أنا في منزلي لا أخرج منه، فقلت له: بع دارك، فقال: لا أبيع ملكي، فقلت له: أنا أشكوك إلى السلطان، فقال: أنا من أعوانه، قلت له: أدعي عليك، فقال: الله أرحم بي منك، فهممت أن أدعو عليه، فهتف بي هاتف لا تدعوا عليه، فإنه ولي من أوليائي، فجئت إلى باب داره، فظن أني جئت لأخرجه من داره، فقام لي كالمعتذر، فقلت له: ما جئت لهذا، ولكن رأيت كذا وكذا، فوقع عليه البكاء، فقال: إني تائب عما كان مني ثم خرج عن البلد هائمًا على وجهه فلم أراه بعد ذلك أبدا.[49]

ومما حكي عنه رضي الله عنه أنه كان سائرًا في سياحته إذ وجد رجلًا صالحًا فجلس لمحادثته، فطال معه الجلوس، فقام ليتوجه من عنده، فلم يطيب له فراقه، فقلت له: يا حبيبي قد خطر ببالي أن أتوجه إلى بعض الأصحاب وأعود إليك إن شاء الله تعالى، فودعه وعاهده الرجعة، فطالت غيبة إبراهيم، فزاد بذلك

---

[49] انظر: التوابين لأبي محمد موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي ص148؛ الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح شمس الدين أبو الخير ابن الجزري ص44.

الصالح الوجد والغرام مما وقع في قلبه من محبة إبراهيم، ولم يعلم أين توجه، فبكى شوقًا إلى لقاه ومحبته له حتى ابيضت عيناه من حزنه وشوقه إلى لقائه.

فخطر في خاطر إبراهيم ذلك الرجل الصالح، وعهده بأن يرجع إليه، فقبل وصول إبراهيم إلى عنده، أتاه الخضر عليه السلام، فقال له: أبشر أيها المحب الصادق في الله تعالى، قد قرب وصول محبك ابن أدهم، وغاية مطلوبك، قم وانهض وتلقاه، فلما سمع ذلك الكلام، قام على قدميه، وربط عينيه، فوصل إلى إبراهيم فسلم عليه وصافحه وأقبل عليه، وقال له: يا أخي نحن تركناك صحيح العين، فما بالك؟ وما سبب ما صار إلى عينك؟ فقال له: يا أخي لما أن فارقتني وزاد شوقي إلى لقائك، فبكيت حزنًا على فراقك، فطاوعتني عيني الواحدة على البكاء ولم تساعدني الأخرى على البكاء، فآليت على نفسي أن عيني هذه قد خانتني على البكاء في حق الأحباب، ألا أنظر بها ولا أدعها تنظر إلى زينة الدنيا، فحبستها عن رؤية الأحباب، فتعجب إبراهيم بن أدهم في محبته واعتقاده، فدعا عند ذلك إبراهيم ربه في ردها عليه، فصارت كما كانت في الحال.

فدخل عليه بأن يقصد معه الخلوة والجلوس في خلوته، وتوجه هو وذلك الرجل إلى منزله وقدم له الزاد، فبعدما أكل، قال له: يا أخي أين كانت هذه المدة غيبتك عنا؟ فقال له إبراهيم: كنا في زيارة سيدنا محمد ﷺ، فقال له: لما لا تصحبنا معك ونكون يا أخي في الأجر والثواب مثلك؟ فقال له إبراهيم: حب الإخوان في الله له الثواب والأجر مثل من حج وطاف بالبيت والمقام، ونحن وأنت في الأجر سواء، وأنت بكيت في محبة الإخوان لله تعالى، وهذا هو الأجر العظيم يا أخي والطريق المستقيم.

فلما سمع ذلك الرجل الصالح من إبراهيم هذا الكلام، ترامى على يديه يقبلها والأقدام، وقال: الحمد لله الذي جمعنا وإياك بلا تعب في منزلي هذا قبل وفاتي، وشهق شهقة فارق الدنيا بها بين يدي إبراهيم، فتعجب من صدقه ومحبته له في الله تعالى، فأخذ إبراهيم في تجهيزه وتكفينه، وصلى عليه كل من كان في ذلك المكان، وواراه التراب ودعا له وانصرف متفكرا في حاله.

فانظر يا أخي من كانت محبته لله تعالى خالصة مع إخوانه، فكيف حال أبناء هذا الزمان، الذين يصحبون الإخوان وفي خواطرهم الحقد والحسد والبغض والغدر، فنعوذ بالله من أبناء هذا الزمان ومن كيد الشيطان وهذا وجدناه في الكتاب أيضا ونعوذ بالله من الزيادة والنقصان.

ومما حكي عنه رضي الله عنه، قال إبراهيم: بينما أنا أمشي وإذا بامرأة على رأسها ميت والناس يرجمونه بالحجارة، فقلت لها: ولأي شيء يرجمونه؟ فقالت: كان يعصي الحق ولا يستحي من الخلق، فقلت لها: وأي شيء يكون منكي؟ فقالت: ولدي وقطعة من كبدي، فقلت: وما احمله معك؟ قال: فحملته وحفرت له قبر وألحدته، فلما فرغت من تلقينه، قالت لي: يا إبراهيم توارى عني، فتواريت خلف جدار، فقامت وضمت القبر إلى صدرها ومرغت عليه خدها، وقالت: ليت شعري ما الذي قلت وما الذي قيل لك، ثم تركته وانصرفت، فرجعت بنية الزيارة فجلست عنده أقرأ فلحقتني سنة من النوم، فنمت، فرأيت شخصين قد جاءا إلى القبر فشقاه وأجلساه، ثم شم أحدهما عينيه، فقال: عين خائنة ما بكت قط من خشية الله ولا سهرت في سبيل الله، ثم شم يده، فقال: يد عن الخير مغلولة، ثم شم بطنه، فقال: ملئ من الحرام وما فيه لقمة من الحلال، ثم شم فرجه، فقال: فرج مهتوك وما حفظه قط عن معصية الله، فقال أحدهما لصاحبه: أي شيء يعمل حتى أؤدي الرسالة، فغاب ثم عاد وهو يقول: الحق كريم غفر ذنبه العظيم، قال صاحبه: بماذا؟ قال: لما قلت للحق سبحانه وتعالى وهو أعلم به رأينا منه كذا وكذا قال الحق جل جلاله:

شممتم قلبه؟ قلت: لا يا رب، قال: فإن قلبه موضع توحيدي، فخلقي قطعوه وأنا وصلته، وهم ايسوه من رحمتي وأنا نظرت إليه برأفتي وأجبت له مغفرتي وأنا ارحم الراحمين.

وقال في ذلك:

يا من إذا أبعدني معرضًا * وليس فعلي عنده يرتضى

بحرمة التوحيد يا سيدي * أنت الذي تمنحني بالرضى

ونرجع إلى ما كنا بصدده من سيرة إبراهيم، حكي عنه رضي الله عنه أنه لما أن قصد ساحل البحر حتى انتهى به السير إلى مدينة جبلة، وقصد تلك المغارة، تسامعت به الأكابر والأعيان، حتى بلغ خبره إلى مدينة خرسان، فلما سمعت والدته بخبره وما جرى له في سياحته ووفاة ولده محمود، أخذها البكاء والحزن والقلق على فراقهما، فأخذت في تجهيز العسكر والغلمان، وصحبت معها من الخدم والغلمان ثلاثمائة نفر من الأحمال والجمال، وقصدت التوجه إلى مكة المشرفة لزيارة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، وإلى زيارة ولدها إبراهيم، فوصلت إلى مكة المشرفة، وطافت بالبيت الحرام وزمزم والمقام، والوقوف بعرفة عند المشعر الحرام، وزارت قبر الرسول، وسألت عن ولدها إبراهيم وولده السلطان محمود، فقيل لها: إن محمود انتقل إلى رحمة الله، ودفن في باب شبيكة. فقصدت قبره وأنشأت عليه العمارة، وعينت له الخيرات والصدقات، وطلبت إبراهيم، فقيل لها: إنه توجه إلى جانب القدس المبارك، وزيارة إبراهيم الخليل وإسحاق ويعقوب ويوسف وموسى والأنبياء عليهم الصلاة وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام.

ثم إنها توجهت نحو الأراضي المقدسة هي وتلك العساكر والغلمان حتى وصلت إلى مدينة خليل الرحمن، وزارت تلك الأماكن والأنبياء عليهم أفضل الصلاة وأتم السلام، وأتت إلى بيت المقدس، ودخلت إلى المسجد الأقصى والصخرة العظمي وطلعت إلى جبل الطور، وزارت تلك الأماكن والقبور، وزارت سيدنا موسى الكليم ﷺ، وسألت عن ولدها إبراهيم، فقيل لها: إنه جاء إلى تلك الأماكن

وصحبته فقراء ودراويش وأخذوا لهم موضعًا ظاهر الباب، وكان يعتكف فيه والأصحاب، فسألت عن المكان فدلوها عليه.

فلما وصلت إليه رأت جماعة من الفقراء والدراويش جالسين، فسألت عن ابنها إبراهيم، فقالت: هل هو بينكم أيها السادة الكرام؟ فقالوا لها: إنه كان عندنا وهو شيخنا ومرشدنا، وطلبناه بأن يقيم عندنا فلم يلبث إلا قليلًا حتى قيل إنه نودي في سره: يا إبراهيم توجه من هذا المكان فإنه ليس لك به مستقر ولا مقام، فقام من ساعته وقصد في سيره سواحل البحر حتى انتهى به السير إلى مدينة جبلة، وتلاقيه هناك في مغارة على شاطئ البحر، فدخلها وقد اعتكف فيها هو وأصحابه.

فلما سمعت والدته هذا الكلام وعلمت أنهم من جملة المحبين لإبراهيم، أفرغت عليهم الذهب والدنانير، وتوجهت هي ومن معها نحو السواحل في طلب ولدها إبراهيم، حتى انتهى بهم المسير إلى مدينة جبلة، ووافوا هذا الميدان، فنزلوا ونصبوا الغلمان الخيام في ذلك المكان، وطلبت المغارة التي وصفوها لها ذلك الدراويش فدلوها عليها، وسألت ممن كان قد عرف السلطان ووقف على حاله، فقالوا لها: ما تريدي من هذا الرجل العزيز؟ فقالت لهم: هو ولدي وقطعة من كبدي، وقد تركني في ملك خراسان وحدي فريدة من أهلي وأولادي، وقد أضرَّ بي فرقته، وقد أتيت قصدي الاجتماع به، وقد سحت البلاد من أجله، فدلوني عليه أنه قد وصل إلى هذه المدينة وهو في هذه المغارة فدلوني عليه.

فلما سمعوا ذلك الدراويش كلامها وحزنها واشتياقها إليه، قاموا على الأقدام وقالوا لها: تقدمي على بركة الله تعالى وعونه وانهضي لتجتمعي مع ولدكِ وقرة عينكِ.

فسارعت هي وتلك الغلمان إلى أن أتوا إلى ذلك المكان، فرأت ولدها إبراهيم جالسًا على ركبتيه وفي يده إبرة يرقع بها المرقعة التي عليه، وكلما غرزها في تلك المرقعة تخرج الإبرة والخيط مغموسان بالدم من كثرة القمل التي عليها.

فلما أن وقع نظرها عليه، ونظره عليها، قام إليها وتلقاها وضمته وضمها، وأظهرت البكاء والنحيب، بملاقاة المحب للحبيب، وكان يومًا عجيبًا حتى تباكت الحيتان في وسط البحر، وسالت دموعهما من الأجفان، وكان يومًا مشهودًا تفتت فيه الكبود، وغشي عليهما، فلما أفاقا من غشوتهما، أتوا تلك الخدم والغلمان يقبلن أقدام السلطان، فلما استقر بهم المقام، ورأت ولدها إبراهيم على هذا الحال وحوله تلك الفقراء والرجال، قالت: يا ولدي وقرة عيني وحشاشة كبدي، كيف تركت ملك آبائك وأجدادك ورضيت لنفسك هذه الحالة؟! قم وانهض إلى ملكك وسلطانك وهذا الجند والغلمان في انتظارك، فقال لها: يا أماه لا تحزني اليوم على ما أنا فيه من شدة البلاء، وإنما تخافي في غدٍ في الموقف بين يدي الله تعالى كيف تكوني في ذلك الوقت يا أماه عند حسابي يوم أبعث وحيدًا فريدًا ليس معي مؤنسًا ولا شافعًا، يوم يقال للمخفين جوزوا، وللمثقلين حطوا، يا ترى مع المخفين أجوز، أم المثقلين أحط، يا أماه كلما كبر سني كثرت ذنوبي، يا أماه كلما طال عمري عظمت خطاياي فكم أتوب وكم أعوذ، وقال في ذلك:

يا رب أنت أمرتني ونهيتني * وسلكت بي طرق الضلال والهدى

وعلمت أن لا مفر من الذي * قدرت لي إن كان خيراً أو ردى

وسلكت بي ما شئت للأمر الذي * في الخلق ما أخفيته عنهم سدى

ودخلت عن غير اختياري محنة * فالعبد محكوم عليه وإن غدى

فاقبل بفضلك توبتي لك مخلصًا * وارحم فإني قد بسطت لك اليدى

واغفر بفضلك ما مضى حتى أرى * برضاك سرورًا علي رغم العدى

واصفح عن العبد الذي يا سيدي * قد جاء معترفًا لديك وعاش موحدا

فلما فرغ من قوله قال لها: يا أماه بالله عليك لا تنكري علي ما أنا فيه، ولا تشغليني في شيء من حب الدنيا الفانية التي تركتها، ولا تكوني حجابًا بيني وبين محبوبي، أقسمت عليك يا أماه بالله الكبير المتعال، لا تفارقي بيني وبين ذي الجلال والإكرام، يا أماه لي أربعين سنة في الملك والسلطان، وما قدمت عملًا صالحًا إلى الله تعالى الملك الديان، فقالت له: يا ولدي وقرة عيني، راعي حقي وقدري، وقد أتيتك قاصدة في طلبك راغبة، قم وانهض وتوجه معي صحبة هذا الجند والغلمان، وانظر ملك خراسان بعدك قد استولى عليه يد الطائفة الخوارج الفاسقين، وأظهروا في ذلك البلد الفساد، وظلموا الرعايا والعباد، فتكون سببًا لإصلاح تلك الممالك والبلاد، وتكون قد أديت فرض الوالدة مع الولد، وما بقي لك منا خلاص، فبحقي عليك الا ما أجبت مقصدي، وتوجهت معي إلى بلدي.

فعند ذلك بقي إبراهيم متفكرًا في حاله، وفي مخاطبة والدته وكيف يسلبها ويدفعها عن نفسه بالتي هي أحسن، فبينما هو في الكلام وإذا بالخضر عليه السلام أتاه في صفة شاب لطيف بثياب خضر كالشريف فسلم على إبراهيم فرد عليه السلام، وقال له: يا إبراهيم إن حقوق الوالدين عند الله عظيم، ورضاهما من رضى المولى الكريم، فتعطف بخاطرها وارحمها وأرفق بها ولا تخرج من رضاها، ولكن ألقي هذه الإبرة من يدك في البحر ولا تكسر خاطرها، واصطبر لتشاهد أحوالك وأفعالك حتى تستقر مكانك.

فلما سمع من الخضر عليه السلام هذا الكلام، أخذ يؤانسها ويحادثها ويطيب معها في الكلام، وأخذ تلك الإبرة وألقاها في البحر كما أشار عليه الخضر عليه السلام، فلما أن الإبرة استقرت في البحر هاج وماج، وظهر سائر الحيتان منه في الوقت والحين، طوعًا إلى إبراهيم، فجاءت من بين هذه الأسماك سمكة صغيرة وأخذت تلك الإبرة وغاصت بها في البحر، فلما رأوا ذلك الحيتان هذه السمكة الصغيرة أخذت تلك الإبرة وغاصت بها في البحر من بينهم، ودخلت في البحر تبعها ذلك الحيتان من مكانٍ إلى مكان،

وغاصت بها سبعة أيام، وتباركت بها جميع الحيتان التي في تلك البحار، فاجتمعت على تلك السمكة وفي فمها الإبرة، وتبرك بها كل حيوان في البحر.

وكان لذلك الحيتان ملك كبير عظيم الشأن، وقد فقد عينه من الكبر، فأحضر تلك السمكة إلى بين يديه وفي فمها الإبرة فوضعتها ومرتها على عينيه فردت أحسن ما كانت بصيرة ببركته، فلما شاهدوا تلك الحيتان الكرامات ازدحموا على تلك السمكة وأرادوا أخذ الإبرة إلى عندهم، وأراد الملك والأسماك أخذ الإبرة منها ليحصل له بها البركة والشفاء من سائر العلل، وقد كان إبراهيم في انتظار ما يصير إلى إبرته وما يظهر له منها، فأبطأ عليه أمرها وضاق صدره ولم تأتِ إبرته وما يظهر له منها شيء.

فعندها نادى إبراهيم وقال: يا مباركين يا أسماك ردوا علي إبرتي فقد أبطأت عن ترقيع مرقعتي ولا يصادفكم محنة بسببي، فلما أن سمعت والدته هذا الكلام قالت له: يا ولدي كيف تنادي هذه الحيتان في البحار؟! وكيف يسمع منك هذا الحيوان هذا الخطاب؟! أنت مختل العقل لا محال. فقال لها: يا أماه إن ربي قادر فعال لما يريد.

فبينما هم في هذا الكلام، إذ خرجت له من البحر سمكتين وفي فم كل واحدة إبرة ونادوا: يا إبراهيم إن ملكنا قد أبقى إبرتك عنده كي يتبرك بها سائر حيتان البحور، وقد أرسل هذه الإبرتين عوضًا عن إبرتك، فقال لهم إبراهيم: ليس لنا نأخذ غير إبرتنا ولا نأخذ حق أحد غير حقنا، ولا بد من إحضار إبرتنا.

فبينما هم في الخطاب، إذ خرج حوت عظيم ومعه تلك السمكة الصغيرة وهي ماسكة تلك الإبرة في فمها وألقتها بين يدي إبراهيم، فقال لهم إبراهيم: ما أبطأكم في رد إبرتنا حتى أخرتمونا عن شغلنا، فأنطقهم الله الذي أنطق كل شيء وأحكوا له ما قد جرى في الإبرة وطوافها السبعة أبحر، وأخذها ملك الأسماك الذي فقد بصره، ومر الإبرة على عينيه فعادت أحسن ما كانت، وما قصدوا بإبقاء الإبرة عندهم إلا ليحصل لهم البركة والصحة بسببها، وأنا يا سلطان الزهاد أخو الحوت الذي كان التقم يونس عليه

السلام، فلما توفي أخي جعلوني مكانه ملكًا على هذه الحيتان، فلما رأيت هذه الدار ليس بها قرار، وتركت لهم الملك والسلطان، واخترت عزلة في مكان أسبح الله تعالى وأعبده في قعر البحار وأنا فارغ البال، إذ سمعت نداك على هذه الحيتان فأسرعت في إحضار إبرتك أنا وهذه السمكة الصغيرة الحقيرة، وقد صار بيننا وبين الأسماك حرب وجدال وقتال فصادف هذه السمكة في بدنها هذه الجراحات، وأنا يا بن أدهم قد أصابتني شوكة سمكة قلعت عيني، وهذا سبب تعويقنا عن إحضار إبرتك يا سلطان.

فلما سمع منهم هذا الكلام أخذ الإبرة من السمكة ووضعها على عين ذلك الحوت العظيم، ومسح بيده المباركة فبرئ وعاد كما كان بقدرة السميع العليم، فلما شاهدوا الأسماك هذه الكرامات طلبوا بأن يكونوا في خدمته وتحت طاعته، فقال لهم: ارجعوا إلى مكانكم واذكروا الله وسبحوه خير لكم، فقالت السمكة: يا سيدي اقض حاجتي لأني كنت سببًا لأخذ إبرتك من بين يديك وردها إليك، فادع ربك بأن يخلصني من أعدائي، ويجعل لي إشارة تظهر في عقبي ونسلي ولا أحد يتعرض لي، فدعا لها إبراهيم في ذلك الوقت والحين فأظهر الله سبحانه وتعالى الإبرة من بدنها وفي فمها وصار جسدها كما كان وما بقى فيه جراح ببركة ابن أدهم، وسار جسدها كالدم الأحمر.

وذلك السمكة موجودة في بحرنا هذا، وكل صياد تقع في شبكاته يطلقها لحرمة السلطان إبراهيم بن أدهم، ولا أحد يقدر يأكلها، وسميت بهذا الاسم سمكة إبراهيم رضي الله عنه، وأمه تسمع وتنظر هذا الكلام وغاص تلك السمك في البحر وغابوا عن الأبصار.

فلما شاهدت والدته هذه الكرامات، وما أظهر الله على يديه من هذه الأسرار الخفيات، فحينئذ خاطبها ولدها بلين الكلام، وقال لها: يا أما ما تقولي في هذا الملك وما صار إليه مالي ومطلوبي ومرادي؟ يا أماه أي ملك وسلطان أعظم من هذا الملك والسلطان؟ فقالت له في ذلك الوقت والحين: بارك الله لك فيما

أعطاك من العز والسلطان والملك على الدوام، والآن قد طاب قلبي بما خصك ربك ومولاك من عطاياه في هذه الدنيا قبل الآخرة، فأخذ في محادثتها وأنسها.

ثم قال لها: يا أماه قد كان علينا سبعة عشر قميصًا أخذا بأعيننا، الأول: قميص الغفلة، والثاني: قميص من النار، والثالث: قميص من الفقر، والرابع: قميص من الحرص، والخامس: قميص من هوى النفس، والسادس: قميص من الطمع، والسابع: قميص من المسكنة، والثامن: قميص من الشريعة، والتاسع: قميص من الطريقة، والعاشر: قميص من المعرفة، والحادي عشر: قميص من الحقيقة، والثاني عشر: قميص من الخدمة، والثالث عشر: قميص من الجنة، والرابع عشر: قميص من الذكر والتسبيح والعبادة، والخامس عشر: قميص من الدروشة والمسكنة، والسادس عشر: قميص من التراب والحجر، والسابع عشر: قميص من الخام الذي لم يقصر ولا ينغسل. يا أماه فكيف حال من تكون عليه هذه القمصان ولم يقطعها؟ كيف يليق به إلى حضرة مناجاة الرحيم الرحمن؟

فأخذت تلك المواعظ قلبها وخاطرها وانذهل عقلها، وقالت له: يا ولدي كيف حال ولدك السلطان محمود؟ فقال لها: يا أماه فعلت بولدي محمود كما فعل إبراهيم الخليل بولده إسماعيل، جعلته قربانًا حتى لا يبقى بيني وبينه حجاب، ولا يشتغل قلبي بأحد من العباد، فلما أن سمعت أمه منه هذا الكلام علمت أنه ليس بقي له اختيار ولا صحبة ولا كلام، فقال لها: يا أماه قد أشغلت خاطري وشتتي فكري، وقد أشتعل لهيب قلبي ولهيب النار في كبدي عن مناجاة سيدي وخالقي، فقالت له: بالله عليك يا ولدي من يكون هذا الشاب المليح الوجه، الطويل القامة، صاحب هذه الثياب الخضر الذي يأتيك في كل ساعة وأوان، فقال لها: يا أماه هذا أستاذي ومرشدي إلى طريق النبي الهادي، هذا الخضر عليه السلام صاحب الكرامات، وهو قائم في سائر الأقطار آناء الليل وأطراف النهار، المنجي لمن طلبه من الهلكات، وهو لمن طلبه وقصده وبه استجار، وهو منتظر دعوة من مظلوم وملهوف يناديه إلا وأخذ بيده في الحال،

وقد ألبسني هذه الخرقة والتاج وهي خرقة الفقر، وبه افتخرت. يا أماه لا تطيلي معي الكلام، وقد أودعتكِ الله الذي لا ينام، ومن معك من الجند والغلمان، وقد اخترت هذه البقعة لي مقام وعليك مني جزيل السلام.

وقيل إنه لما أن ظهرت لوالدته منه هذه الكرامات العجيبة والمكاشفات، قبض في ذلك المكان فأخذت في تجهيزه وتكفينه ودفنته في هذا المكان، وأورثه التراب هي وتلك الأصحاب فأخذت في بنيان التكية، والعمارة السنية، واجراء الخيرات، والصداقات.

وفي رواية أخرى أنها لما لحت عليه بهذا الكلام، قال لها: يا أماه قد أشغلتني عن عبادة ربي فخذي هذا العسكر وتوجهي إلى مدينة بلخ وخرسان وقد فوضنا أمرهم لله ولكي، وليس هذا المكان بمقامكِ واقصدي بلادكِ، وإن كان لك شفقة وإحسان لولدكِ اجعلي لي مقام أذكر به إلى يوم القيامة، وتجري الخيرات والصداقات وإطعام الطعام للفقراء والأرامل والأيتام الواردين والمجاورين في المكان والعمارة والقاصدين والعابرين من أبناء السبيل، كما قال سيد الأولين والآخرين: «إِذَا مَاتَ ابْنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إِلَّا مِنْ ثَلَاثَةٍ: مِنْ صَدَقَةٍ جَارِيَةٍ، وَعِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ، وَوَلَدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ»[50]، فاخترت يا والدتي بأن يكون صدقة جارية في هذا المكان، كما أشار لنا سيد الأنام، ورسول الملك العلام، عليه من الله أفضل الصلاة وأتم السلام.

وهذه وصيتي يا أماه إن فعلتيها تكوني سببًا في الأجر والثواب عند الملك الوهاب، وعليك السلام وعلى من تبعك من الأحباب والأصحاب، فودعته وانصرفت في الوقت والحين إلى مدينة خراسان وأخذت في جمع الأموال والعود إلى جبلة لأجل العمارة.

---

[50] انظر: السنن الكبرى للنسائي ، كتاب الوصايا، فضل الصدقة على الميت، حديث رقم 6513، ج6، ص251.

ولما انصرفت تركت ولدها على حاله في تلك المغارة هو والست الأخيار، يعبدون الله سبحانه وتعالى آناء الليل وأطراف النهار، وهذا ما انتهى إلينا من قصة المغارة واجتماعه بوالدته والإبرة على التمام والكمال كما في الكتاب التركي.

ونرجع إلى ما كنا بصدده من سيرة إبراهيم رضي الله عنه، ورجوع والدته من خرسان بنية العمارة وفعل الخيرات وإجراء الصدقات وإطعام الطعام إلى الفقراء والمريدين والدراويش والأيتام على مر الدهور والشهور والأيام صدقة عن ولدها إبراهيم، فجهزت الجواهر والمعادن والأموال، وحملت الأحمال والأثقال، وخرجت من مدينة خرسان وصحبتها الجند والغلمان، فلا زالوا سائرين ليالي وأيام، حتى أتوا مدينة جبلة عند إبراهيم بن أدهم، فنزلوا الأحمال والأثقال في الميدان، ونصبوا الخيام والسرادقات للجند والغلمان، وسارت إلى المغارة واجتمعت بولدها هي وبقية عسكرها وجلسوا يتحدثون بما صار على ملك بلخ وخرسان، فقال لها: يا أماه من ترك شيئا لله لا يبقى يعاود فيه أبدًا، وأنا أسألك بالله إن كنت أتيتنا بنية الزيارة فمرحبًا بك، فلا تكدري خاطرنا بشيء من أمور الدنيا، وإن كان قصدك اتخاذ البناء والعمارة، فاجتهدي في ذلك.

فقالت له: يا ولدي في أي مكان يكون البنيان في الميدان، فقال لها: يا والدتي ليس لنا في هذا الميدان من مقام، فقام على قدميه وأخذ حجرين أسودين كان يصحبهما معه في سفره، وإذا نام يضعهما تحت رأسه، وقيل تحت جنبه، ثم انه طلع على ظهر المغارة، وقال لها: يا أماه انظري في أي مكان يقع الحجران فيكون هناك مرقدي، فألقى تلك الحجرين من يده في الهواء فوقعا في هذه البقعة المباركة وهم يشاهدوها، فأسرعوا إليهما فوجدوهما في هذا المكان، فعند ذلك حضر العاملون والمعلمون والمهندسون وشرعوا في بنيان التكية والعمارة والمكان والمسجد للتعبد وتلاوة القرآن، والصحبة والميدان للمجاورين والواردين

وإطعام الطعام، فأسرعوا في البنيان مدة من الشهور والأيام، فأتموا البناء والعمارة والمكان، كما ذكر ولدها إبراهيم صاحب البرهان.

ثم إن والدته أخذت في مشتري الأملاك والبساتين والأسواق، ورتبت الرواتب والخيرات والطعام والصداقات، وعينت القراء لقراءة القرآن العظيم، والإمام ليصلي الخمس أوقات في المسلمين، وعينت الخدام والفراشين وطباخين الطعام والخبازين للفقراء والمجاورين والواردين والأرامل والأيتام من المسلمين.

وقيل إن أول مشتراها من القرى بساتين، وأتمت بقية الأوقاف والضياع على أحسن حال، وقد أجرت التكية والخيرات في حال حياته وقبل مماته بمدة من الزمان، وشيدت العمارة والبنيان، إلى أن توفي ولدها السلطان ووارته التراب، وهذه قصة وفاته، وما قد جرى لها على فراقه.

وتجهزت بالمسير إلى مدينة خرسان مع بقية العسكر والغلمان، فوصلت إلى مدينة اللاذقية قاصدة في سيرها مدينة أنطاكيا، فوافاها هادم اللذات ومفرق الجماعات، وقضى عليها الموت، فتوفيت في مدينة اللاذقية ظاهر المدينة، وتربتها موجودة إلى الآن من جانب الشمال من المدينة رحمها الله تعالى وولدها، وهذا ما وجدناه في الكتاب المذكور.

ومما نقل عن أرباب الخير مما سمعوا من السادة القدماء أن والدته لما توجهت إلى بلادها وصحبت غلمانها وجندها بسبب إحضار الأموال للعمارة والتكية وإجراء الخيرات والصداقات، جلس إبراهيم مدة يسيرة ضعيف سقيم قد آن وفاته وارتحاله إلى ربه، أوصى إلى مريديه من الدراويش إلى الدرويش إبراهيم الرومي في خرقته وتاجه والسجادة، وانتقل بالوفاة إلى رحمة الله تعالى وحمل من المغارة بعد ما غسلوه وأدرجوه في الأكفان، وصلت عليه الرجال والأبدال مع أخيه الخضر عليه السلام، ودفن في مكان تلك الحجرين التين رماهما وأشار بهما إلى مكان قبره الشريف المعروف إلى يومنا هذا من قديم الزمان.

فعند ذلك حضرت والدته من مدينة خرسان صحبة الجند والغلمان، فوجدت ولدها إبراهيم قد انتقل إلى رحمة الله، فأخذت في البكاء والنحيب تندبه على ما فاتها قبل وفاته حتى تشاهده مرة أخرى، فبعد ذلك شرعت في عمارة روضته المنيرة التي قد حوت عظامه المطهرة، وبنت القبر على ضريحه الشريف، وقد جبلت طينها بماء الورد والمسك والعنبر الخام والكافور، وأخذت في عمارة المسجد والصحبة والميدان، والمطبخ لطبخ الطعام للمجاورين في تلك المقام، وأخذت في شراء الأماكن والمزارع والضياع، ووجهت الأوقاف وكملت العمارة على أحسن حال كما تقدم، وارتحلت قاصدة بلادها فقبضت في مدينة اللاذقية ودفنت ظاهر المدينة من جهة الشمال، وقبرها إلى الآن مشهور رحمة الله تعالى عليها وغفر لنا ولها ولسائر المسلمين ولمن يقول آمين.

ومما نقله الدرويش حسن الرومي أن السلطان إبراهيم بلغ من العمر مائة وأحد عشر سنة، منها إحدى وثلاثين سنة شابًا في تعلم القرآن والعلم، وقد تولى الملك أربعين سنة سلطاناً مجتهدًا في فتح البلاد والجهاد في طائفة الكفار والفجار، حتى غزى بنفسه اثنا عشرة غزوة على التمام، ومنها الغزوة والجهاد الذي قابل بها العفاريت في جبل قاف وهي مسطرة وقصتها في الكتاب. وبعدها ترك الملك والتاج والسلطان، من بلخ وخرسان، وترك الأهل والعيال والأولاد في حب مولاه رب العباد، وساح أربعين سنة في سائر النواحي والبلاد وزهد في الدنيا حتى صار عالماً فردًا بين العباد والزهاد.

وقد ابتلاه الله سبحانه وتعالى بسبع بليات، كما ابتلى بها أنبيائه الأصفياء الأتقياء عليهم من الله أفضل الصلاة وأتم السلام، الأول ابتلى خليله إبراهيم بذبح ولده إسماعيل، فوجده صابرًا على ذبح ولده ولم يشفق عليه في رضى ربه، فرحمه المولى الكريم، وفدا إسماعيل بكبش عظيم، وكذلك السلطان إبراهيم لما اجتمع بولده محمود ورآه بأن يشغله عن مولاه، وعلم الله سبحانه وتعالى سره ونجواه، ناداه: يا إبراهيم محبة إثنين لا يسع قلب واحد، والمحبة لا تريد مشاركة، فلما لاح له الخطاب عن ذلك الجناب بسط كفيه

نحو السماء، وقال في دعائه: يا مولاي أنت أعلم بحالي، إما أن تقبضني إليك، أو تقبض روح هذا الولد حتى أتفرغ لعبادتك، يا رب لا تشغلني بغيرك، فقال لمن حوله من السادات والأخيار: قولوا آمين، فقالوا: آمين، فقبض من ذلك الوقت والحين.

والثاني كما ابتلى الله سبحانه وتعالى نبيه يعقوب عليه السلام بالبكاء والنحيب حزنًا على فراق ولده يوسف حتى ذهبت عيناه، وكذلك إبراهيم بن أدهم قد بكى خشية من الله تعالى حتى سالت عيونه على خديه، وأثرت الدموع جريانها على وجهه.

والثالث كما ابتلى الله سبحانه وتعالى نبيه أيوب عليه السلام، وكذلك إبراهيم بن أدهم وقعت الديدان على جسمه من نقل تلك الأحطاب التي كان ينقلها من الجبال على عاتقه إلى مطبخ شيخه الإمام محمد الباقر رحمة الله تعالي عليه ابن زين العابدين، وأثر ذلك الحبل في جسده.

الرابع كما ابتلى الله نبيه يونس عليه السلام والتقمه الحوت وسار به في ظلمات البحار يسبح الله تعالى الواحد القهار حتى قذفه على الأرض بأمر الملك الجبار، كذلك ابن أدهم لما أتت إليه الكفار ليأخذوه إلى جزيرتهم جهارًا، سخر الله له حوتًا عظيمًا فركبه على ظهره، وسارت جميع الأسماك حوله وسار إلى جزيرة قبرص حتى غاب عن الأبصار، وإلقائه الإبرة في هذه البحار، وأخذها تلك السمكة الصغير، وسارت بها وطافت سبع بحار، ورجعت بها إلى بين يديه كما أخذتها.

والخامس كما أن الله سبحانه وتعالى سخر لسليمان عليه السلام الوحوش والطيور والسباع، كذلك سخر الله سبحانه وتعالى لإبراهيم وقت خروجه الغراب والباز، وأخذ الخبز واللحم إلى ذلك المربوطين في الغار، وخلاصهم من اعتقالهم، وتسخير السبع واللبؤة وركوبه الأسد، وتذلل بين يديه.

السادس كما أن نبيه عيسى عليه الصلاة والسلام وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم السلام روح الله وصفيه قد زهد في هذه الدنيا الفانية وتركها، كذلك إبراهيم بن أدهم زهد في هذه الدنيا وترك الملك والتخت والتاج والسلطان، وتوجه إلى جناب مولاه الكريم المنان.

السابع كما أكرم الله سبحانه وتعالى نبيه وحبيبه محمدًا ﷺ بالمعجزات والكرامات من كلام الغزالة والثعبان، ونبع الماء من بين أصابعه كالزلال، ولين الأحجار تحت أقدام الشريفة، وأوراق تلك الأشجار، وإظهار الأثمار، كذلك إبراهيم رضي الله عنه لما أن خرج متصيدًا فظهرت له غزالة فطردها حتى انتهت به إلى كهف جبل، ودخلت فيه وهو ينظر إليها، فالتفتت إليه وقالت له: يا إبراهيم ما لهذا خلقت، ولا بهذا أمرت، فتركها ورجع إلى عسكره وهذه كانت سبب إلهامه ورشده وترك الملك والسلطان.

والثاني لما ترك الملك وتوجه إلى ربه سخر الله له اللبؤة لما نام على الأرض فرشت ذراعيها تحت جنبيه، والأسد قائم على رأسه يقيه المطر لا يضره، وركوبه الأسد وتذلله بين يديه. وكذلك لما قصدته تلك الأربعين رجلًا قطاع الطريق وأرادوا قتله فنجاه الله سبحانه وتعالى منهم وسخر له تلك الثعابين وذللهم بين يديه وقصدوا تلك الأربعين رجلًا، فحينئذ استغفروا الله وتابوا على يديه لما شاهدوا من تلك الأسرار.

كذلك لما اجتمع برابعة العدوية في جبل الطور فأتت إليه الرجال الأخيار، وكانت جالسة هي وإبراهيم بلا حجاب، فلما دخلوا أرخت النقاب فعنفوها الأحباب، وقالوا لها أنت تجالسي إبراهيم بغير نقاب، فقالت لهم: يا إخواني إنه كان في مطبخ إبراهيم ثمانون جارية مثلي بأيديهن أهوان الذهب يدقون المسك والعنبر الخام فتركهم، فأي شيء تركتم أنتم يا مساكين؟! فقام إبراهيم من بينهم غضبان وكان بالقرب منه صخرة من الصوان فرفسها برجله فغاصت إلى ركبتيه، وطلعت من مكانها، فلما شاهدت رابعة رضي الله عنها هذه الأحوال وتلك الرجال، ندموا على فعلهم واستغفروا وتابوا مما خطر لهم من أمر

إبراهيم، وقد أوصت رابعة رضي الله عنها أنها إذا توفت أن يضعوها عند رأسها، وهي إلى الآن ظاهرة في جبل الطور عند رأسها.

وكذلك إجرائه الماء من قلعة السند من تحت قدميه، وقد شرحناها في هذه السيرة، وإنبات شجرة الرمان وإظهار ثمرها في طريق بيت المقدس وهي مشهورة وتسمى برمانة العابدين، وهذه من جملة كراماته رضي الله عنه وأرضاه وحشرنا وإياه في دار السلام تحت لواء محمد عليه أفضل الصلاة وأتم السلام.

وقيل إن الدرويش حسن الرومي لما صنف الكتاب، كان قد مر على هذا المقام الشريف دهور وأعوام، واستولت على هذه البلاد طائفة من الملحدين الخارجين أهل الجور والظلم والعناد، وخربوا الديار، وتفرقت الرعايا في سائر الأقطار، وخرب المكان مدة من الزمان من كثرة الظلم والفساد، لما أن قتلت تلك الطائفة الخوارج أولاد الحسين نسل السادة الكرام، وقصدوا أولادهم ونسلهم وكانت سببًا إلى خراب هذه الديار، ولم يبق في المدينة المعروفة سوى الدير المعروف بدير السبع دنانير، وكان مقرًا للرهبان.

وهذه حكاية السلطان جقمق[51]، وكان في ديار مصر، لما تولى السلطان جقمق وسمع بخراب هذه السواحل لما استولت عليها أيدي الكفار، وخربوا البلاد وسبوا العباد، خرج في ذلك الزمان جقمق سلطان وكان شابًا من الرجال، وكان لا يهاب الأبطال، فتوجه بعسكره من الديار المصرية إلى السواحل والمدن البحرية، حتى وصل إلى مدينة جبلة واللاذقية بعد أن فتح البلاد وقمع أهل الجور والعناد، واستقرت المسلمين في أوطانهم، والرعايا في أماكنهم، واصطلح حال الفقراء والمساكين، وتراجعت الناس بلا حد

---

[51] هو السلطان جقمق هو السلطان الملك الظاهر أبو سعيد جقمق العلائي العلاي الجركسي الظاهري، سبي صغيرًا من بلاد الجركس، وجلب إلى القاهرة، وربي في بيت الأمير "إينال اليوسفي" وانتقل إلى الملك "الظاهر برقوق" ومن هنا لقب بـ "الظاهري" كما أنه تلقب بـ "الملك الظاهر" مثل لقب أستاذه "الظاهر برقوق" أما لقبه "العلاي أو العلائي" فقد اكتسبه من "العلاي علي" ابن الأتابكي "إينال اليوسفي" الذي قدمه إلى "الظاهر برقوق"، وهو الرابع والثلاثون من ملوك الترك وأولادهم بالديار المصرية، وهو العاشر من ملوك الجراكسة وأولادهم في العدد (انظر: بدائع الزهور في وقائع الدهور لابن إياس ج2، ص198- 199؛ نظم العقيان في أعيان الأعيان للجلال السيوطي ص103).

ولا قياس. ولا زال سائر في عسكره ورجاله حتى نزلوا بالقرب من مدينة جبلة، ونزلت جنده وخيله وتفرقوا في تلك الديار، وكان بين عسكره من الطائفة جماعة من الأشرار، وكانوا مصرين على الفسق والفجور وشرب الخمور.

وقد نام السلطان جقمق تلك الليلة، وهو في لذة المنام، إذا جاءه شيخ عزيز محترم، فقال له: قم وارحل أنت وعسكرك من هذا المكان، فقال له: وما سبب ترحلنا من هذا المكان، فقال له: قد تأذينا منكم ومن قبيح فعلكم وأحوالكم الشنيعة عندنا، قبل ما ينزل عليكم البلاء والعذاب من عند ربنا.

فاستيقظ السلطان جقمق مرعوبًا من هذا المنام، وما قد سمع من الشيخ العزيز هذا الكلام، فأخذه القلق وما عاد يستلذ بمنام، فقام على أقدامه في الظلام، فرأى نورًا ساطعًا من الأرض إلى السماء حتى كان يخطف بصره، فنادى وزرائه وجنده وعسكره، فحضروا بين يديه كالفازعين المرعوبين من صوته وشدة ندائه، فقالوا له: يا مولانا، ما الذي أصابك في هذا المكان؟ فأحكى لهم ما رأى في المنام بمخاطبة الشيخ العزيز المحترم، ومشاهدته ذلك النور الساطع في مثل هذه الليلة المظلمة، وقال لهم: انظروا هذا النور كيف هو واقف؟ فقالوا: يا مولانا ليس ننظر شيئا مما قد أشرت به لنا، فقال لهم: أنتم يا عميان القلوب والأبصار أما تنظروا هذا النور الساطع وهذه الأسرار؟ فقالوا له: إن كنت تشاهد هذا النور قم دلنا عليه لعل الله سبحانه وتعالى يوفقنا عليه.

فعند ذلك قام السلطان جقمق وأخذ معه تبن وقيل رماد، حتى وصل إلى ذلك المكان الذي شاهد منه ذلك النور الساطع من الأرض إلى السماء، وطرح ذلك التبن في ذلك المكان، وترك ومضى إلى وقت الصباح، فقام هو وبقية عساكره وجنده إلى المكان الذي وضع فيه التبن فرأى هناك أثر جبانة ومقبرة قد دثرت أحجارها وعلاها التراب وقربها علامات البناء والأساسات، قد تهدمت أركانها، وبقي حيطانها، فأمر عند ذلك الخدام بأن يرفعوا هذه الأحجار عن القبر.

فلما أن كشفوا تلك الأحجار عن القبر ظهر له تابوت وراقد فيه شيخ عزيز محترم، ملتف في أثواب الحرير الأخضر طري الجسم والبدن، كما أنه وضع في تابوته يوم موته، ورائحة المسك والعنبر والكافور طالعة من التابوت.

فلما أن شاهد السلطان جقمق وعسكره ذلك الشيخ العزيز نائم في تابوته، أخذت عقولهم وغابوا عن الصواب، فأمر عند ذلك برد الأحجار إلى مكانها، ورجع إلى الخيام فنام تلك الليلة، وبن أدهم جاءه في المنام ولذيذ الأحلام، وقال له: ما كفاك أيها الإنسان حتى كشفتم عنا الستر عيان، فأقسم عليه السلطان جقمق بعزة الله العظيم من تكون أنت يا أيها الرجل الكريم؟ وكرر عليه الأقسام في المنام، فقال له: أنا إبراهيم بن أدهم صاحب بلخ وخرسان العجم، فاستيقظ الملك من منامه مرعوبًا مما شاهده في منامه، وبات طول ليلته قلقان لم يأخذه منام إلى الصباح، فقام وأسرع إلى ذلك المكان وجمع في ذلك الوقت المعلمين، وأخذوا في تجديد تلك البنيان وجدد أوقافه وعمارته على أحسن الأحوال، وزاد في عمارته وجرايته، ورد الرعايا والفلاحين إلى قراهم مطمئنين، وهذا ما وجدناه في الكتاب الذي صنفه الدرويش حسن الرومي.

ثم بعد ذلك استولت على سواحل البحر أيدي الطائفة الكفرة الفجرة الإفرنج من البندقية، وفرت الرجال إلى الحصون والجبال، حتى أتى أبو الفتوحات الملك العادل الملك المنصور من عند الله الملك الظاهر رحمه الله[52]، وقد فتح الفتوحات في السواحل وفتح القلاع وعمر المدن والضياع، وأظهر العدل وأقام دين الإسلام، وفتح قلعة المرقب وجبلة واللاذقية إلى أن وصل إلى مدينة أنطاكيه، ورجع إلى حلب وحمص

---

[52] هو السُّلْطَان الأعظم المْلك الظَّاهِر ركن الدّين بيبرَس بْن عَبد اللهَّ البُنْدُقْدارِي الصَّالِحِي لقب بـأبي الفتوح. سلطان مصر والشام ورابع سلاطين الدولة المملوكية ومؤسسها الحقيقي، بدأ مملوكاً يباع في أسواق بغداد والشام وانتهى به الأمر أحد أعظم السلاطين في العصر الإسلامي الوسيط. لقّبه الملك الصالح أيوب في دمشق بـ«ركن الدين»، وبعد وصوله للحكم لقب نفسه بالملك الظاهر. ولد بيبرس نحو عام 625 هـ الموافق 1228م، حقق خلال حياته العديد من الانتصارات ضد الصليبيين وخانات المغول ابتداءً من معركة المنصورة سنة 1250 ومعركة عين جالوت انتهاءً بمعركة الأبلستين ضد المغول سنة 1277م. وقد قضى أثناء حكمه على الحشاشين واستولى أيضا على إمارة أنطاكية الصليبية. (انظر: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة لابن تغري بردي ج7، ص94).

وحماه وبلادها، وبعلبك ونواحيها، حتى دخل إلى دمشق الشام، وأقام بها إلى أن مات إلى رحمة الله تعالى وقبره مشهور في دمشق سنة سبعة وستين وستمائة.

وتولى بعده في السنة المذكورة ولده السعيد ناصر الدين[53] وقد استمر إلى سنة ثمانية وسبعين وستمائه ثم تولى بعده الملك العادل سلامش ابن الملك الظاهر[54]، واستناب في الحكم الملك المنصور قلاوون[55] مدة يسيرة، وتولى الملك المنصور قلاوون المذكور في شهر رجب سنة ثمانية وسبعين وستمائة، ثم مات في سنة تسعة وثمانين وستمائة.

وتخالفت الأحكام من تلك السلاطين في الديار المصرية والشامية، حتى توفي السلطان الغوري[56]، حتى أتى السلطان سليم خان ابن السلطان أبا يزيد شاه ابن السلطان محمد خان من آل عثمان[57]، فتح قسطنطينية أيده الله وشيد أركان ملكهم إلى انقضاء الزمان.

---

[53] هو الملك السعيد ناصر الدين محمد بركة خان بن الملك الظاهر بيبرس البندقداري الصالحي النجمي، أو السعيد بركة لقب بـ أبي المعالي (ولد بالقاهرة سنة 1260 – سنة 1280). خامس سلاطين المماليك البحرية، وأول من تربع على عرش السلطنة من أبناء السلطان الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري. حكم بعد وفاة أبيه نحو سنتين من 1277 إلى 1279.. (انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ج2، ص107).

[54] هو الملك العادل بدر الدين سُلامش. (ولد في القاهرة سنة 1272 – توفي في القسطنطينية سنة 1291). ابن السلطان ركن الدين بيبرس. لقب بـابن البدوية ونصب سلطانا في عام 1279 وهو في السابعة من عمره، بعد أن خلع أخوه الملك السعيد نفسه، ليصبح سادس سلاطين الدولة المملوكية. حكم لمدة مئة يوم. (انظر: السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي ج2، ص120).

[55] هو أبو المعالي السُّلْطَان الْملك الْمَنْصُور سيف الدّين قَلَاوُونَ الألفي العلائي الصَّالِحِي ولقب ايضا بأبو الفتح هو أحد أشهر سلاطين المماليك البحرية، وهو السابع مع ملوك الترك بالديارة المصرية، ورأس أسرة حكمت مصر والمشرق ما يزيد على قرن من الزمان فهو مؤسس دولة بنو قَلَاوُونَ، كان من رجال الملك الصالح نجم الدين أيوب. وأبلى بلاء حسناً في معركة المنصورة، وعلا شأنه بعد ذلك، فكان من كبار الأمراء أصحاب النفوذ في دولة الظاهر بيبرس، وبويع له بالسلطنة في الحادي عشر من رجب سنة 678هـ خلفاً للملك الصغير العادل بدر الدين سُلامش. (انظر: مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة لابن تغري بردي ج2، ص38).

[56] هو الأشرف أبو النصر قانصوه من بيبردى الغوري الجركسي الأصل، هو من سلاطين المماليك البرجية. ولد سنة (850 هـ– 1446 م). ثم امتلكه الأشرف قايتباي وأعتقه وجعله من جملة مماليكه الجمدارية ثم أصبح في حرسه الخاص وارتقى في عدة مناصب حتى ولي حجابة الحُجّاب بحلب. وفي دولة الأشرف جنبلاط عين وزيرا. بويع بالسلطنة سنة 906 هـ– 1500م وظل في ملك مصر والشام إلى أن قتل في معركة مرج دابق شمال حلب سنة 1516م. (انظر: الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الدين الغزي ج1، ص295).

[57] هو الملكُ الناصر والسُلطان الغازي القاهر ظهيرُ الدين والدُنيا سليم خان بن بايزيد بن مُحمَّد العُثماني، ويُعرف اختصارًا باسم سليم الأوَّل أو سليم شاه، وبِلقبه ياووز سليم أي سليم القاطع، هو تاسع سلاطين آل عُثمان وسابع من تلقَّب بِلقب سُلطانٍ بينهم بعد والده بايزيد الثاني وأجداده من مُحمَّد الفاتح إلى مُرادٍ الأوَّل، وثالث من حمل لقب «قيصر الروم» من الحُكَّام المُسلمين عُمومًا والسلاطين العُثمانيين خُصوصًا بعد والده بايزيد وجدِّه الفاتح، وأوَّل خليفة لِلمُسلمين من بني عُثمان، والرابع

فلما أن تولى السلطان سليم خان قصد فتح بلاد مرعش وقرمان وحلب ومصر والشام، فيسر الله له فتح تلك البلاد في سنة تسعمائة وثمانية عشر، وقد عين النواب والكتاب لتحرير البلاد، وتطمين خواطر الرعية وسائر العباد، فحرروا المزارع والضياع على أحسن حال، وحررت الكتاب في جهات السلطان إبراهيم، وكان شيء يسير فاعرضوه على السلطان سليم، فأمرهم في زيادة جهات أوقاف السلطان إبراهيم، وأضاف لهذه الأوقاف ما كان مناسبًا واستمر المقام الشريف على هذا المنوال.

حتى تولى من بعده السلطان سليمان[58] عليه من الله الرحمة والغفران في سنة تسعمائة وستة وعشرين، فعين الكتاب والنواب إلى تحرير البلاد، فجاءت إلى مدينة جبلة فكتبوا النواحي والأقاليم حتى أتوا إلى جهات أوقاف السلطان إبراهيم وكان في ذلك الزمان من أهل الخير من الأكابر والأعيان قد قرروا إلى تلك الكتاب والنواب بأن يضيفوا إلى أوقاف السلطان إبراهيم مثل ما أضاف والده السلطان سليم، فأعرضوا إلى حضرة السلطان سليمان مما فعله والده السلطان سليم في زيادة أوقاف السلطان إبراهيم، فأمر السلطان سليمان في إضافة المزارع والضياع وزيادة الخير والإحسان وأجرى الصدقات فكتبت الكتاب سائر المدخولات وجميع المصروفات وقدروا الجهات إلى أرباب الوظائف والعمارات، واستمر الحال في أحسن مال.

والسبعين في ترتيب الخُلفاء عُمومًا. والدته هي عائشة كُلبهار خاتون، وكان مولده سنة 875هـ المُوافقة لِسنة 1470م، ووفاته سنة 926هـ الموافقة لسنة 1520م. (انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك ص188).

[58] هو سليمان خان الأول بن سليم خان الأول، عاشر السلاطين العثمانيين وخليفة المسلمين الخامس والسبعون، وثاني من حمل لقب «أمير المؤمنين» من آل عثمان. بلغت الدولة العثمانية في عهده أقصى اتساع لها حتى أصبحت أقوى دولة في العالم في ذلك الوقت. وصاحب أطول فترة حكم من 6 نوفمبر 1520م حتى وفاته في 7 سبتمبر سنة 1566م خلفاً لأبيه السلطان سليم خان الأول وخلفه ابنه السلطان سليم الثاني. (انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك ص198).

حتى تولى المقام المرحوم بابا حيدر في دولة السلطان سليم الثاني[59]، فأجرى الخيرات وعمر العمارات والبنيان، وشيد الأركان وعمر القبة الكبيرة والشادروان[60]، وفتح الأبواب وركب الأعتاب، وأجرى الماء، وبنى هذه البركة الكبيرة خارج الباب، وبسط الرخام، وشرع في بنيان الحمام ظاهر المقام، الذي لم يوجد مثله في سائر البلدان، الذي قال فيه بعض واصفيه:

بأحسن حمام حكي جنة * والماء من أركانه جارية

يا طالعًا من بعد غسل به * هنيت بالصحة والعافية

ونرجع إلى ما كنا بصدده من سيرة السلطان الأمجد خلقة الرحيم عبده إبراهيم بن أدهم رحمه الله وما أظهر الله على يديه من الأسرار والكرامات الخفيات، فلما أن السلطان سليم خان أمر في تجهيز العساكر في فتح جزيرة قبرص، عين المرحوم مصطفى باشا سردار إلى تلك الديار، ولما سبع بابا حيدر جهز العلم الأخضر، وأرسله صحبة الفقراء والدراويش إلى جزيرة قبرص يوم الخميس، ففرح مصطفى باشا وسائر العساكر بوصول علم السلطان إبراهيم، واستبشروا بالفتح والنصر، وأعطى خبر مصطفى باشا إلى سائر الأمراء والباشات والصناجق، بأن يوم السبت تكون الهجمة على هؤلاء الكفرة الفجرة.

فلما أن صارت صبيحة يوم السبت، تقدم علم السلطان إبراهيم قدامهم، وتقدمت عساكر الإسلام إلى قدام، فما لبثوا غير ساعة حتى فتح الله على المسلمين مدينة الأفقسية، وأباد الله الكفرة والمشركين، وقتلوا الرجال، وأسروا النساء والأطفال، وأخذوا الأرزاق والأموال ببركة السلطان إبراهيم ابن أدهم، فعند ذلك أمر مصطفى باشا بإرسال الهدايا والنذور، فجهز سفينة ومعها عشرة أسارى من تلك الكفرة الفجرة، وصحبتهم هذا الجوز الجراقات النحاس الأصفر الموجودات في الصحبة والميدان،

---

[59] هو السلطان سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل، وهو السلطان العثماني الحادي عشر والابن الثاني للسلطان سليمان القانوني من جاريته خرم بعد الأمير محمد. حكم السلطان سليم الثاني الفترة ما بين (1566م – 1574م)، مولده سنة 1524م ووفاته سنة 1574م. (انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك ص253).

[60] الشاذروان أو الشادروان، آلة لفصل مياه الأنهار عند التحويل، وهي ألواح خشبية توضع خلفها أعمدة لتثبيتها، فيرتفع مستوى الماء في النهر لتسقي الأماكن المرتفعة.

وأحسن إلى تلك الدراويش كل الإحسان، وتوجهوا في السفينة قاصدين مدينة جبلة واستمرت تلك الأسارى في خدمة المقام، وقد كان منهم معمارين ونجارين وحدادين.

ونرجع إلى ما كنا بصدده من أخبار الملوك والسلاطين، الذين أظهروا الخيرات في مقام السلطان إبراهيم، ثم انتقل المرحوم السلطان سليم إلى رحمة الله تعالى، وتولى الملك بعده ولده السلطان مراد خان[61] في سنة تسعمائة واثنين وثمانين ورسم في تحرير البلاد وضبط الرعايا والعباد، وفعل في وقف السلطان إبراهيم مثلما فعلت أجداده وأبوه، وزاد الوقف والخيرات في المقام، ثم توفي بعد ذلك بابا حيدر، وقد كان في فعل الخيرات قد اشتهر، ودفن في المقام الشريف، وقبره إلى الآن مشهور رحمة الله عليه.

ثم من بعده تولت الأيادي والرجال، فلم ينتظم لهم حال، ونسأل الله العفو والغفران، من الخطأ والذلل والزيادة النقصان.

وهذا ما انتهي إلينا مما جرى للدرويش حسن الرومي، وكلما نقله هذا الدرويش من هذه السيرة والقصة الغريبة قد اكتتبها في مدة ثلاث سنين وستة أشهر وكان فراغه منها في غرة شهر رجب المعظم الحرام من شهور سنة ثلاثة وتسعين وتسعمائة في محروسة قسطنطينية المحمية في حياة السلطان سليمان خان وكان قد مضى على وفاة ابن أدهم ثمانمائة وثلاثة وتسعين عامًا على التمام وهذا وجدناه في الكتاب.

اللهم اختم لنا بخير أجمعين وإلى من كان سببًا إلى نقلها وإلى جميع المسلمين أجمعين واكفنا شر الظالمين وأخرجنا من هذه الدنيا سالمين والسامعين برحمتك يا أرحم الراحمين وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومحبيه وعلى التابعين وتابعيهم وجميع أولياء الله المكرمين من أهل السماوات والأرضين والحمد لله رب العالمين.

---

[61] هو السلطان مراد بن سليم الثاني بن سليمان القانوني بن سليم الأول بن بايزيد الثاني بن محمد الفاتح بن مراد الثاني بن محمد الأول جلبي بن بايزيد الأول بن مراد الأول بن أورخان غازي بن عثمان بن أرطغرل السلطان الثاني عشر من سلاطين الدولة العثمانية. ولد عام 953 هـ / 4 يوليو 1546م وتوفي 16/ 15 يناير 1595 م وتولى الخلافة عام 982 هـ / 1574 م بعد وفاة أبيه حتى وفاته 1595 م، وبعد أن تولى السلطة أمر بمنع شرب الخمر، ولكن ثورة الانكشارية أجبرته على ترك هذا القرار، وخلفه ابنه السلطان محمد الثالث. (انظر: تاريخ الدولة العلية العثمانية لمحمد فريد بك ص259).

قائمة المصادر والراجع

❖ الأعلام، خير الدين الزركلي، دار العلم للملايين: بيروت- لبنان، ط15، 2002م.

❖ إمتاع الفضلاء بتراجم القراء فيما بعد القرن الثامن الهجري، إلياس بن أحمد حسين البرماوي الشهير بالساعاتي، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2000م.

❖ الإمتاع بالأربعين المتباينة السماع لابن حجر العسقلاني، تحقيق: أبو عبد الله محمد حسن محمد حسن إسماعيل الشافعي، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، ط1، 1997م.

❖ البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان: الجيزة- مصر، ط1، 1999م.

❖ بدائع الزهور في وقائع الدهور، محمد بن شهاب الدين بن أحمد بن إياس، تحقيق: محمد مصطفى، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط1، 1984م.

❖ بغية الطلب في تاريخ حلب، كمال الدين ابن العديم، تحقيق: د. سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت- لبنان.

❖ تاريخ الدولة العلية العثمانية، محمد فريد بك، تحقيق: إحسان حقي، دار النفائس للنشر والتوزيع: بيروت- لبنان، ط1، 1981م.

❖ تاريخ بغداد، الخطيب البغدادي، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي: بيروت- لبنان، ط1، 2002م.

❖ تاريخ دمشق، أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله بن عساكر الدمشقي، دراسة وتحقيق: محب الدين أبو سعيد عمر بن غرامة العمروي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت- لبنان، ط1، 1995م.

❖ تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الحافظ المِزِّي، تحقيق: د. بشار عواد معروف، مؤسسة الرسالة: بيروت- لبنان، ط1، 1992م.

❖ التوابين، أبي محمد موفق الدين عبد الله بن قدامة المقدسي، دار ابن حزم للطباعة والنشر، ط1، 2003م.

❖ التيجان في ملوك حمير، عبد الملك بن هشام الحميري المعافري، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية: صنعاء - الجمهورية العربية اليمنية، ط1، 1347هـ.

❖ جامع السنن، أبو عبد الله محمد يزيد ابن ماجه الرَّبعي، تحقيق: عصام موسى هادي، دار الصديق للنشر: الجبيل – السعودية، ط2، 2014م.

❖ الجامع الصغير وزيادته، جلال الدين السيوطي، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، ط2، 2004م.

❖ الجامع الكبير، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك السُّلَمي الترمذي، تحقيق: أحمد محمد شاكر ومحمد فؤاد عبد الباقي وإبراهيم عطوة عوض، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي: القاهرة- مصر، ط1، 1975م.

❖ جامع بيان العلم وفضله، أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر، تحقيق: أبو الأشبال الزهيري، دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع: المملكة العربية السعودية، ط1، 1994م.

❖ الجامع لأحكام القرآن، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فَرْح القرطبي، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية: القاهرة- مصر، ط2، 1964م .

❖ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع، الخطيب البغدادي، تحقيق: د. محمود الطحان، مكتبة المعارف: الرياض- المملكة العربية السعودية، ط1، 1983م.

- ❖ حدائق الأولياء، سراج الدين أبو حفص عمر بن علي الأنصاري المعروف بـ ابن الملقن، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، ط1، 2009م.
- ❖ خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، محمد أمين المحبي، دار صادر للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت- لبنان، ط1، 1990م
- ❖ الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، ابن حجر العسقلاني، دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد الدكن – الهند، ط2، 1972م.
- ❖ الدر المنثور في التفسير بالمأثور، جلال الدين السيوطي، دار الفكر: بيروت- لبنان.
- ❖ الرسالة القشيرية، عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك بن طلحة أبو القاسم القشيري، تحقيق: الإمام الدكتور عبد الحليم محمود والدكتور محمود بن الشريف، دار المعارف للنشر والتوزيع: القاهرة- مصر.
- ❖ الزهر الفائح في ذكر من تنزه عن الذنوب والقبائح، شمس الدين أبو الخير ابن الجزري، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان، ط1، 1986م.
- ❖ السلوك لمعرفة دول الملوك، تقي الدين المقريزي، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية: بيروت- لبنان، ط1، 1997م.
- ❖ السنن الكبرى، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي بن سنان بن بحر بن دينار النَّسائي، المكتبة التجارية الكبرى: القاهرة- مصر، ط1، 1930.
- ❖ سير أعلام النبلاء، شمس الدين الذهبي، مؤسسة الرسالة: بيروت- لبنان، ط3، 1985م.
- ❖ شاهنشاهی ساسانیان، مریم نژاداکبری‌مهربان، مهر و ماه، بنگاه ترجمه و نشر کتاب پارسه، ط3، 2017.

❖ صحيح البخاري، أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري الجعفي، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير: دمشق– سورية، ط5، 1993م.

❖ صحيح مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم بن وَرْدٍ بن كوشاذ القشيري الكعبي النيسابوري، تحقيق: محمد ذهني أفندي وإسماعيل بن عبد الحميد الحافظ الطرابلسي وأحمد رفعت بن عثمان حلمي القره حصاري ومحمد عزت بن عثمان الزعفرانبوليوي وأبو نعمة الله محمد شكري بن حسن الأنقروي، دار الطباعة العامرة: تركيا، 1334هـ.

❖ الغنية لطالبي طريق الحق، عبد القادر الجيلاني، تحقيق: أبو عبد الرحمن صلاح بن محمد بن عويضة، دار الكتب العلمية: بيروت – لبنان، ط1، 1997م.

❖ الكافي، أبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني، منشورات الفجر: بيروت– لبنان، ط1، 2007م.

❖ الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، دار التفسير للطباعة والنشر والتوزيع: جدة – المملكة العربية السعودية، ط1، 2015م .

❖ كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال، علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين الهندي، تحقيق: بكري حياني وصفوة السقا، مؤسسة الرسالة: بيروت– لبنان، ط5، 1985م.

❖ الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة، نجم الدين الغزي، تحقيق: خليل المنصور، دار الكتب العلمية: بيروت– لبنان، ط1، 1997م.

❖ مسند الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 2000م.

❖ معالم التنزيل في تفسير القرآن، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق: محمد عبد الله النمر وعثمان جمعة ضميرية وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، ط4، 1997م.

❖ معجم تاريخ التراث الإسلامي في مكتبات العالم: المخطوطات والمطبوعات، علي الرضا قره بلوط وأحمد طوران قره بلوط، دار العقبة: قيصري- تركيا، ط1، 2001م.

❖ المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي، ابن تغري بردي، تحقيق: محمد محمد أمين، الهيئة المصرية العامة للكتاب: القاهرة- مصر، ط1، 1984م.

❖ مورد اللطافة فيمن ولي السلطنة والخلافة، ابن تغري بردي، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد، دار الكتب المصرية: القاهرة- مصر، ط1، 1997م.

❖ النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ابن تغري بردي، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

❖ نظم العقيان في أعيان الأعيان، جلال الدين السيوطي، تحقيق: فيليب حتي، المكتبة العلمية، بيروت، 1927م.

❖ نوادر الأصول في معرفة أحاديث الرسول، أبو عيسى محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك السُّلَمي الترمذي، تحقيق: توفيق محمود تكله، دار النوادر للنشر والتوزيع: بيروت- لبنان، ط1، 2010م.

❖ هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين، إسماعيل باشا الباباني، وكالة المعارف بإسطنبول- تركيا، ط1، 1955م.